أحمد مراد

رواية

حين يصبح القتل أثرًا جانبيًا

تراب الماس

دار الشروق

أحمد مراد

رواية

حين يصبح القتل أثرًا جانبيًا

تــراب الماس

دار الشروق

أحمد مراد

تراب الماس

دار الشروق

"للمرة الثانية بعد "فيرتيجو" يتخذ أحمد مراد من الجريمة خلفية تكشف بأسلوب مشوّق كواليس المجتمع والفساد المستشري وسط طبقاته.. وهو بذلك يؤكد قواعد النوع الروائي الذي أصبح رائدًا له"..

صنع الله إبراهيم

لم يكن "طه" سوى مندوب دعاية طبية في شركة أدوية؛ حياة باهتة رتيبة، بدلة و كرافتة وحقيبة جلدية ولسان لبق يستميل أعتى الأطباء لأدويته..

كان ذلك قبل أن يسقط..

جريمة قتل غامضة تتركه خلفها وقد تبدّل عالمه.. للأبد..

تتحول حياته إلى جزيرة من الأسرار، يبدأ اكتشافها في دفتر عتيق يعثر عليه مصادفة، ويجد معه أداة رهيبة لها فعل السحر..

سنقرأ هنا كيف تتحول هذه الجريمة إلى سلسلة من عمليات القتل. وكيف يصبح القتل بابًا يكشف لنا عالما من الفساد، وسطوة السلطة التي تمتد لأجيال في تتابع مثير لا يؤكد أبدا أن "طه" سيصل إلى نهايته..

أحمد مراد كاتب ومصور ومصمم جرافيك، من مواليد القاهرة عام ١٩٧٨، درس التصوير السينمائي وحصلت أفلامه القصيرة على عدة جوائز في مهرجانات أوروبية.. في نوفمبر ٢٠٠٧ صدرت له رواية "فيرتيجو " والتي نفذت ست طبعات لها في أقل من عامين..

إهـداء

إلى رجل الفرصة الأخيرة...

السيد الرئيس محمد نجيب

«أظلم الأوقات في تاريخ الأمم هي الأوقات التي يؤمن فيها الإنسان بأن الشر هو الطريق الوحيد للخير»

عن فلسفة العدميين (nihilist)

من كتاب «الجمعيات السرية» لعلي أدهم

الفصل الأول

الاثنين ١٥ نوفمبر ١٩٥٤م..

حارة اليهود بـ«الخرنفش» - «الجمالية»..

في مدخل زقاق «سالومون» امتد الظِل على البلاط الإنجليزي المُحدّب، رجل نحيل يَحمل عصًا وسُلمًا صغيرًا، اقترب من عَمود الإنارة وصَعد سلّمه في خفّة قبل أن يرفع الباب الزجاجي للمصباح ويدسّ العصا مُشتعلة الطرف في الفوهة، ثوان وأضاءت تحتها بقعة باهتة أخذت تتراقص على الأرض قُرب دُكان صغير تعلوه لافتة مَكتوبة بخط اليد: عطور «الزهّار».. فوق الرفوف تراصت زجاجات زيوت ورد مُغلقة بقطع من الجلد ودوبار رفيع لم يَحبس الشذا عن العابرين.. حين انتهت صَلاة المغرب اتّخذ «حنفي» طريقه إلى الدكّان، رفع يده في تحيّات متفرقة إلى أصحاب المحال ولا تزال أكمامه تحمِل أثر الوضوء.. حين لَمحه بكريه «فاروق» في مدخل الحارة، أطاح بسيجارة إلى منتصف الطريق قبل أن يلوّح بيديه مُبددًا الرائِحة، مُبتسمًا في خجل للسّت «حَلاوة» التي تقف أمامه في مِلاءتها اللف.. عَمودان من المرمر الأبيض مُطوقان بخلخالين من الذهب يَحمِلان سُلطانية

من القِشدة تحت صَدر مُتكبّر آنِف ووجه تزيّنه عينان كحيلتان تموت مِن أجلهما.. أرملة الحي التي انطبقت عليها مقولة أن: خلف كُل امرأة عظيمة.. رجل ينظر لمؤخرتها!.. طلّت ابتسامة رضا من شفتي «حنفي» حين لمحها، مَسح على شعره متخللًا بأنامله سَواد خصلاته وأخرج قنينة عطر صغيرة مَسح مِنها يمينه قبل أن يربت على شاربه المهذّب.. اقترب يَرسِمها بعينيه حتّى اقتحم مُحيطها: ازيك يا «حلاوة».

هَمست ببحّة مُذيبة للأعصاب: أهلًا يا سي «حنفي».

سَحب كُرسيًا بذراعه مُستعرضًا أعصابًا متينة وأجلسها قرب الباب: استريحي خمس دقايق.

سأل «فاروق» الذي يشبهه لَولا مُوضة «شُكري سرحان» التي شمَّر لها أكمامه حتّى العضد منذ فيلم «لهاليبو»: حد اشترى حاجة؟

– البكباشي «حسن» أخذ قرنفل وريحان وقال الحساب آخِر الشهر.

تمتم «حنفي» بصوت خفيض: يا مستنّي السّمنة من ليّة النملة عُمرك ما هتقلّي.. هيقعد يقطّر لِنا في الفلوس!!

– رايح النهارده للخواجة «بيتو»؟

–آه..

ثم ربت على كتفه: يلله اتكل أنت عشان أمّك لوحدها.

أشاح «فاروق» بنظره ناحية حلاوة وغمز عينه متقبلًا الزحلقة:

– حلاوتك يا أبو «فاروق».

انحنى «حنفي» يجمع بعض الزجاجات وبدون أن ينظُر له:

– ماتروحش كده ولا كده، وخف الهباب على صدرك شوية.. ريحة الدُكّان معبّأة.

– ماشي يابا.

ركض «فاروق» مبتعدًا فالتفت «حنفي» لحفيدة الرشيدي الميزان:

– جيل ما يعلم بيه إلا ربنا.. اؤمري يا ست الناس.

– فُل.. ألقتها ببطء.

أفاق «حنفي» من شفتيها ثم سحب قنينة ولفّها في ورق أصفر داكِن: فُل لشجرة الفُل.

– عندك حِنّة حمرا؟

خطف بعينيه خطفة مِن ساقيها: حِنّة ليه! دم الغزال في كعبك خِلقة ربنا.

عضّت شفتها السفلى: وشّك مش عاجبني.. ما لك ياخويا؟

– عكوسات يا «حلاوة».. العين مش رحماني.

– ضروري معمول لك عمل.

– عليّا النِعمة بشوفهم بيتنطّطوا قدّامي.

– يا ساتر يا رب.. لازمن تعدّي عليّا أرقيك وأبخّرك.

فلتت منه ابتسامة: ما ينفعش آخد نفحة هِنا في الدُكّان؟

ضحكت بصوت رنّان: عين العفريت تحرقك.

اقترب منها: اتأخرتي يا «حلاوة».. لو كنا تقابلنا قبل ما...

قامت تلملِم مِلاءتها بابتسامة حالِمة: وحياتك ده الشيخ البعيد بس سِرّه باتع.. لو كنت مراتك يمكِن ما كنتش...

أجابها بلا تفكير: عليا النِعمة والا أعدم عافيتي ما كنت أنزِل الدُكّان.. أنت ما تعرفنيش ده أنا...

– بيّاع كلام ما تحلفش.. كام حِسابك؟

التقط كيسًا من الحناء تعمّد وهو يدسّه في يدها أن يلامس أصابعها البضّة: الحِساب وصل وليكي باقي.

– لو غيّرت رأيك أديك عارِف «عطفة البرقوقية».

أحكمت المِلاءة حول خصرها العجيب ورحلت بعدما رمته بنظرة ألهبت صدره، تأمّل تبخترها ودندن حتّى غربت: عُمري ما هنسى يوم الاتنين.. يوم ما تقابلنا إحنا الاتنين.

في التاسعة ضم أبواب دكانه، ثبّتها بعارضة حديدية وقفل كبير، حيْن هم أن يبتعد سَمِع صوت تحطّم زجاج، فتح الأبواب ثانيةً، على إضاءة نور الشارع وجد البرواز الخشبي مُحطما على الأرض بجانب الحائِط، رفعه فوق المنضدة متأملًا الحبل الذي انقطع بلا سبب قبل أن يَستخرج الصورة من بين بقايا الزجاج، صورة ملوّنة يَدويًا للرئيس في زيّه العسكري وتحتها شعار «الاتحاد. النظام. العمل».. لا إله إلا الله.. زفر بها «حنفي» حين تأمّل عيون «نجيب» التي تحمِل حزنًا وهمًّا لا نهاية له قبل أن يطوي الصورة ويضعها في ركن.. أحكم كوفيته حول رقبته وضغط الطاقية على رأسه واتّخذ

طريقه إلى «درب نُصير» حيث يقطن «ليتو» صَديق عُمره الذي وعده بسَهرةٍ دافئةٍ على أنغام السِّت.

قطع «حنفي» طريقه وسط شِتاء نُوفمبر العاصف، يُدفِئ راحتيه في جيب معطفه شاردًا في حسابات مُتعثّرة بالدكّان ومَسئولية سَبع أفواه جائعة، و«حلاوة» صَعبة التجاهُل، سيّدة أحلام يقظته، وباعثة الآمال الضائِعة، بجانب توتّر لا يعرف له سَببًا، قرض من أجله أطراف أنامِله، شيء لم يكن على ما يرام، مِزاج عَكِر لن يبدّده سوى صوت السِّت وقطعة حشيش تقلبها أنامِله في قعر جيبه.

اخترق «حنفي» حارات ضيقة لو فرد ذِراعيه فيها لأمسك ببيتين مُقابل بعضهما، تهدر الرياح بينها بصفير حَاد كصَريخ الأرامِل، ترفع المخلّفات والأوراق لتصفع الشبابيك والأبواب وتتلاعب بغسيل الأسطح كأفاعيل الجان.

على أطراف «دَرب نُصير» عبر «حنفي» بوابة حديدية تحرسها نجمة سُداسيَّة وقرن كبش كبير.. صَعد الدور الأول وقرع الباب وانتظر حتّى أضيءِ النور وفتحت.. «تونا».. عيون كحيلة ولبانة تلاك، زهرة فائِرة تضم قطًّا صغيرًا إلى صَدرها المُجتهد:

– أهلًا يا عم «حنفي»، اتفضل.

– يا بِت أنت لسه صاحية؟

جدلت خصلة حمراء من شعرها المموّج حول سبّابتها: أبويا يا سِيدي صَدّعنا باسطوانة جديدة، باين علينا هنسهر للصبح عشان خاطِر عيون «ليلى مراد».

داعب «حنفي» قِطّها خلف رقبته فبخ خخخخخخ مُستأسدًا.

- اتلم يا بابسي.. خُش يا عم «حنفي» هعملّك شاي.

شقة «الييتو» كانت متواضعة، تفضح ذوق عاشِق للموسيقي، صُورة كبيرة لـ«ليلى مراد» تتصدّر الصالون، وعُود مُعلّق على الحائط قيل إنه لـ«داود حسني»، بجانب مَكتبة تتوسطها لوحة مُستطيلة مَكتوب فيها «فليتمجد ويتقدس اسم الرب العظيم في العالم الذي خلقه حَسب مشيئته، وليلتحق ملكه خلال أيامكم وأثناء حياة كل بني إسرائيل».. في الصالون كان «الييتو» منكفئًا على «الجرامافون» مُحاولًا التفاهم مَعه بشأن صَوت «ليلى مراد» الذي بدا كصرير باب صدئ:

- ملعون أبوكي بنت هِرمة.

تبسّم «حنفي»: السّت «ليلى» لازِم مزِعّلاك؟

رد بدون أن يلتفت: الاسطوانة بخمسة وتلاتين قِرش وصوتها زي الزِّفت، هارميها في وشّهم بُكره.

- ما أنت عندك «فيليبس» تمانية لمبة!! واجع دماغك ليه؟

- عشان أسمع وقت ما أحِب يا أخي.. الله.. وبعدين دي «ليلى مراد»!!

ألقى الأسطوانة جانبًا والتقط منشفة مبللة.. مَسح عدسات نظّارته سَميكة الإطار قبل أن يضعها على أنفه الرفيع ويلتقط من فوق المِنضدة أسدًا فاغرًا فاه على جوهرة من العقيق ليودعه خنصره.

خلع «حنفي» بُلغته وجلس: شيء للّه يا سِت «ليلى».. هتعشينا إيه النهارده؟

- حتتين نيفة هتاكُل صوابعك وراهم.

دقائق ودخلت «تونا» بالشاي، وضعته وانسحبت.. عبث «الييتو» في مؤشّر الراديو حتّى أراحه المذيع: سَيداتي آنساتي سادتي الآن موعِدكم مع الفن البديع والصوت الساحِر وتسجيل لحفل كوكب الشرق «أم كلثوم» الذي أقيم يوم الخميس ١١ نوڤمبر بقاعة سينما «ريفولي» في ليلة ساهرة للإذاعة اللاسلكية المصرية، يبدأ الحفل بأغنية «جددت حبك».. «يا ظالمني»... ثم تُختم السهرة بـ«أهل الهوى».. نتمنى لكم سهرة سعيدة.

انهمك «حنفي» في خلط الحَلاوة الطحينية وجوزة الطيب مع قِطعة حشيش حرّرها من سيلوفانة في كنكة فارِغة، هَرس الخليط بسبّابته قبل أن يضعه تحت لِسانه مُمتصًا رَحيقه حين نغزه «الييتو»:

- شكللك ناوي تطلع الألعة النهارده.

ضحك «حنفي» حتّى لاحت سِنّتاه الفِضيتان:

- ده لو الألعة صاحية والسّبع عساكِر نايمين.. دوق.

- لا.. دي زي الدبشة كبست عليّا المرّة اللي فاتِت.

قالها «الييتو» وفرك قطعته بعناية مع المعسّل تحت الفحم الملتهِب وأحكم الجوزة بعدما أضاف لها ماء الورد وناول البوصة لـ«حنفي»: حرقه أرحم.. شِد.

سَحب «حنفي» نفسًا عنيفًا داعب الأم الجافية[1] وأطلق سحابة كثيفة: عالي.

(١) طبقة من الطبقات الحامية للمخ.

هُنا سألت «أم كلثوم»: جدّدت حبّك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح؟ حرام عليك خلّيه.. غافل عن اللي راح.

أرسل «لبيتو» نفسه للسّقف قبل أن يسأل «حنفي»: أخبار الألماظية إيه؟

خلع «حنفي» طاقيّته وداعب شعره مُطلقًا بعض السخونة التي اعترته حين تذكّر «الحلاوة»: مِش هتجيبها لبر، بتيجي الدكان كُل يومين، حِتّة زبده بنت الكلب، نضيفة وخدّامة سرير، أحلى من «داليدا»[1] ملكة الجمال، بس حد الله، كلّه إلا النط في الحرام.

غمزه «لبيتو»: تنّها وراك لغاية ما تنخ.

– لو بس كانت بدِرت شوية، يمين الله كُنت أخُش عليها فِي «الأوبِرج»، «صَفيّة» كُعوبها شقّقت، العِيال هدّوا حيلها، والتانية جايّة بعد الهَم وعايزة الزمن يرجع.

– و عيالك إزيّهم؟

سَحب نفسًا وتابع: العيال مش عايزة تشتغل، قصدي في الدكّان، ولا حد فيهُم عايز يقف في الأرض، كُله عايز الميري، بيستعرّوا من مِهنة أبوهم وجدّهم!! بس إن جيت للحق أنا مبسوط، مِش عاوز العيال تشوف اللي شُفته.

– الله!! ولمّا كُل الناس تِطلّع عيالها على الميري، مين يزرع بقه؟

(١) كانت المطربة الشهيرة «داليدا» ملكة جمال مصر ١٩٥٤.

– الله.. الفلاحين يا جدع!!

– بس أنت لازِم حد يساعدك في الدكّان، إحنا كبرنا يا «حنفي».

ضم «حنفي» مِرفقه مبرزًا البايسيبس من تحت الجلباب: أنت اللي كِبرت يا حبيبي، أنا لسّه عصب أهه.

في تلك اللحظة قرع الباب «يوسف».. «يوسف باخوم».

وجه بشوش مستدير رُسم ببرجل، ضحك تلقائيًا بمجرد أن ناداه «حنفي»: بيّاع اللِبسة.

خلع «يوسف» بُلغته وحشر مؤخرة تدين بالكثير للمفتّقة والمورتة بين مخدّتين: بدأتوا من غيري يا سَفلة.

نغزه «لبيتو» ببوصة الجوزة: كات السّت هتستنّاك!

حضرت النيفة فوق البقدونس بصُحبة الطحينة وتناثرت زجاجات البيرة، دارت الجوزة على المثلّث حبسًا للوجبة فتكاثفت السّحابة الزرقاء فوقهم وكادت تبرُق فاستطردت «أم كلثوم»: أطاوع في هواك قلبي.. وأنسى الكُل علشانك.. وأدوق المُر في حُبّي.. بكاس صَدّك وهجرانك.

– قريتوا الجرايد النهارده؟.. سأل «يوسف».

ضرب «حنفي» كفّيه استغرابًا: «نجيب»!! يمين بالله العظيم صورته النهارده وقعت لوحدها.

نفخ «لبيتو» نفسًا في الهواء: فال وِحش.

- والله الراجِل ده ما يستحِق.. بَس منصور.. بإذن الله منصور.

قالها «يوسف» وأخرج من جيب جلبابه قصاصة من جريدة الأهرام: اسمعوا.. مم مم مم.. بيقولك: إعفاء «نجيب».. «نجيب» كان على علاقة بالإخوان من شهر إبريل.. إبقاء منصِب رئيس الجمهورية شاغرًا.. يستمر مَجلس قيادة الثورة بقيادة السيد الرئيس البكباشي أ.ح «جمال عبد الناصر» في تولّي كافة سلطاته الحالية.

رد «حنفي» بشرود: استر يا كريم.

بلّل «ليبتو» أطراف أنامله وعدّل من وضع الفحم: الناس دي طالما كلِت الراجِل ده، مش هيبقى فيه خير.

صرّح «يوسف»: أنا ما عنتش فاهِم حاجة.

اقترب «ليبتو» منهما هامسًا: الظبّاط عايزة تفضل في السرايات، إيه اللي يخلّيهم يرجعوا القشلاق تاني؟

«يوسف»: ما كانوا هيحِلّوا المَجلِس في مارس اللي فات!

«حنفي»: آه.. والجيش بعت طلبات للحكومة إن المجلس يِفضل، يوم ما ضربوا «السنهوري»[1].

(١) رئيس مجلس الدولة من عام ١٩٤٩ حتى ١٩٥٤، شارك في مشاورات خلع الملك «فاروق» وبذل جهودًا كبيرة في مشروع الإصلاح الزراعي، كما طالب بإرساء الديمقراطية، وحل مجلس قيادة الثورة ليعود الجيش إلى الثكنات وترجع الحياة النيابية لمصر، هنا حدث الصدام بينه وبين الرئيس «جمال عبد الناصر»، وبالطبع حسم السياسي الأزمة لصالحه بإخراج «السنهوري» من الساحة القانونية، فتمّت إقالته سنة ١٩٥٤م في تصفية من جانب السلطة لرجال القضاء، ليعتزل الحياة العامة بعدما فرض عليه النظام الناصري عُزلة إجبارية حتّى وفاته.

بعثر «ليبتو» نفسًا مضطربًا: ما الجيش هو الحكومة يا سيادتنا!!

ربت «يوسِف» على كرشه بثقة: بَرضك ما يمنعش إن المجلس عارفين بيعمِلوا إيه.. الريّس «جمال» مَالي مَركزه ومدوّر الديوان زي الألِف.

«ليبتو»: يَعني فِكرك كام صَاغ على كام بكباشي يقوّموا الدنيا لوحدهم من غيره؟

«حنفي»: يقوّموها.. دي ناس قلبت البلد مِش هتِعرف تدوّرها؟

«ليبتو»: ايش عرّف الدِيب بأكل الزبيب!! العَسكر جعانة، زاحوا كُل اللي ساعدوهم، إخوان على شيوعيين.. ويهود ياما هجّوا على القدس.

«حنفي»: ما يقدرش يا عمّي.. الله!! هيمشّي «شيكوريل» والا «شملا» والا «عدس»!! أنت مجنون! البكباشي راجِل عاقل.

«ليبتو»: أنت ما سِمعتش كلمة عيد العمّال؟ موضوع العيال اللي فجّروا السيما والمكتب لمريكاني[1] مِش هيعدّي بالساهِل، هياخدوا العاطِل في الباطِل ومش بعِيد يرحّلونا.

تكلّم «يوسف» وبوصة الجوزة بين شفتيه: يرحّلوا مين يا عم الحاج، هي سايبة؟

(١) عملية إرهابية جرت في أواسط الخمسينيات في مصر وبالتحديد عام ١٩٥٤، أطلق عليها فضيحة «لافون» نسبة إلى مخطّطها «بنحاس لافون» وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق، حيث قام مجموعة من الشباب الإسرائيلي المدرب بتخريب بعض المنشآت الأمريكية الموجودة في مصر بهدف زعزعة الأمن وتوتير الأوضاع بين مصر والولايات المتحدة.

عقب «حنفي»: صحيح وأنت ما لك يا جدع، أنت مصري.

قام «ليتو» ليحضر بعض الفحم: بس يهودي.. والكليم أنا بس بيص لقُدّام، إحنا بدأنا نتكرِه.. واللي جاي ألعن.. البكباشي واللي وراه مِش عايزينها تُخرُج من إيد الجيش، وأنسى أي دكر يقول لأ.

«حنفي»: الناس دي بتحب البلد مهمن كان.

«ليتو»: وبتحب برضك الأوتومبيلات الكاديلاك.

«يوسف»: أنت مكبّر الموضوع أزيد من اللازِم.

سوّى «حنفي» قطع الفحم بالماشة: أيوه ومحامِل حبّتين على المجلس.

همس «ليتو» فيهما: كلام في سرّك أنا ليّا واحد قريبي مناسِب واحدة من عيلة «قطّاوي» عارف قال لي إيه؟ قال لي لو عايز تنفِد، أنفد من دلوقت، كُل الكُبار بيهرّبوا فلوسهُم برّه.. ده حتّى «عبد الحكم برجاس» هيصفّي شِركته.

جحظت عينا «يوسف»: يا أم النور.. «عبد الحكم برجاس» بجلالة قدره!!

أخرج «حنفي» مِنديلًا مَحلاويًّا ٦٠,٢ سم في ٤٢,٣ سم وبصق فيه: أنت مِتشائِم على طول يا ابن داود.

«ليتو»: الأيّام بيني وبينكم.

«أم كلثوم»: هو يقول يا ليل وإحنا نقول يا ليل وكلنا بنقول يا ليل.. أهل الهوى يا ليل...

أراد «يوسف» تغيير الموضوع: فضّكم بقى من السياسة والهم ده، سمعتوا البت «بيا» حصل لها إيه؟

ابتسم «حنفي» بجانب شفتيه: خِير يا وِدني.

مشى «يوسِف» بمؤخرته حتّى توسّط الجلسة: المره مرافقة «مرزوق» الساعاتي، راحِت عنده وسابِت ابنها تلات شهور في أودة ودخلت معاه أودة النوم، الواد قعد يعيّط، إتخنق «مرزوق»، الواد ماله يا بت؟ عنده برد وكحّة.. شار عليها «مرزوق» قال لها اسقيه بوء كونياك عشان يدفا، سقته البت، الواد سِكِت وهدي، نزلت تحت الراجِل تاني.

«ليتو»: وبعدين؟

أردف «يوسف»: بين الركوبة والركوبة راحِت تطل على الواد، لقيته أزرق زي صبغة اليود، قعدت تقلّبه.

- هاااااا؟.. صاح فيه «حنفي».

سكت «يوسف» لثوان تأمّل خلالها وجهيهما: مات الواد، أتاري «مرزوق» سكران ومِش واعي هو بيقول إيه، خرجت «بيا» من البيت ملط بتصرّخ وبتترجرج زي قربة الميّة، الشارع كُله عِرف إن «مرزوق» كان بينُط عليها، الصُغيّر والكِبير جريوا وراها، رمِت الواد لـ«فتحية» مرات «سعد» المزيّن ودخلت الشقة، دلقِت على روحها جاز وولّعِت.

خبط «حنفي» جبهته: يا نهار اسود.

أكمل «يوسف»: اتفحمِت، بعد شوية جه «نعيم» جوز المره، عرف اللي حصل، خد الواد وطِلع بيه على الحمّيات، الواد طِلع حي، الكونياك كان طابق على صدره، ساعتين والواد بقى زي الفُل.

قام «حنفي»: هو ده اللي فضّونا من السياسة والهم، نكّدت علينا يا ابن الكئيبة، إيه الحكاية الزِفت دي!

«يوسف»: ربّنا يستر على ولايانا.

حاول «بيتو» صرف رائحة الشياط التي غطّت المكان: الواد «حسين» عامِل إيه يا «حنفي»؟

– حلو.. ده اللي طِلعت بيه من الدنيا، بالك الواد ده أنا هدخّله الحربية، هيطلع ظابِط.

يوسف: حَربية حِتّة واحدة.

– إيه.. أقل منها؟! قيافة وقيمة كده، أصله أكتر واحِد يشبهني، هو ده اللي هيرفع راسي، بُكرة تندهوا لي «حنفي» أبو البكباشي «حسين».

ربت «بيتو» على ظهره: تعيش وتفرح بيه.

أصبحت الثانية والرُّبع حين قام «يوسف» يستند إلى «حنفي» كجرحى حرب، ودّعا بالضحكات «بيتو» وتفرّقا عند ناصية.

كان آخر ما سأله «حنفي»: هو الأهلي هيلاعب «فاروق» إمتى؟

– أنت لِسّه بتقول «فاروق» يا «حنفي»!! ما بقى الزمالك خلاص.. هيلعبوا يوم عشرين مِنّه.. السبت الجاي.

– منصور بإذن الله.. «مِكّاوي» و«توتو» هيحُطوا جوان.

– احلم.. احلم يا «حنفي».

اتّخذ «حنفي» طريقه راجعًا حيث يَسكن قرب دكانه، لم يشعُر بالبرد رغم شِدّته، تخلّل الهَواء صَدره فزاده نشوةً واسترخاءً، خليط كنكة الحلاوة الذي امتصّه يجثم على رئتيه ببطء، يصليه عَرقًا على عرق، قرب حائِطٍ مظلم توقّف ليفرغ مثانة ضاقت بحملها، رفع جلبابه وزفر في راحة قبل أن ينفضه صوت أتى من يمينه، انقطع تدفق شعيره على الحائِط وانتصب شعر يديه ورأسه، على مقربة منه كان يقف تيس قرناه عاليان، ذقنه بيضاء طويلة، وعيونه جوفاء، بهدوء أدخل «حنفي» بضاعته في السروال والتف مواجهًا: عامِل لي فيها جِدي المرّة دي! هِررر يا ابن الأبالسة.. أزكى صرخته المرتعشة بخبطة قدم على الأرض لم تحرّك من التيس شعرة، ابتلع «حنفي» ريقه وبدأ في ترديد المعوذتين في همسٍ مسموع، ظل التيس يرمقه لثوانٍ إضافية قبل أن يدور حول نفسه ويبتعد في هدوء، جاهد «حنفي» ليلتقط أنفاسه متابعًا الظل وهو يتلاشى بلا صوت، تيبّس في مكانه موليًا ظهره لحائطٍ مُصمت قبل أن يشد كوفيته ويمد خطواته سالكًا الطريق المعاكِس، يحاول صرف من يصادفهم دومًا بعد منتصف الليل، من يتجسّدون بعد كنكة الحشيش في معيز وخراف وكلاب سوداء تعوي، نفضهم عن رأسه واستدعى «حَلاوة» من ركن خاص بمخيّلته، تسلّلت رائِحتها لأنفه، وسوَس خُلخالها في أذنه، سَحله الكعب الوردي، سَبح في منبع نهدَيها واعتصرهما عَصرًا، تلوعني وتكويني، تحيرني وتضنيني ولما أشكي تخاصمني وتغضب لما أقولك يوم يااااا ظالمني... دندن مُبدّدًا بغنائِه ظلمة الحارات حتى

وصل بيته، صَعد سِتَّ عشرة درجة تفصله عن الباب وقرع، دقيقة وفتحت «صفيّة» فانقشعت كُل الخيالات مِن رأسه دفعة واحِدة:

- إيه اللي مِصحّيكي للساعة دي؟

أجابته بقلق: «حسين» بعافية عنده كُحّة.. ما لك؟

تجشأ.. نفسي كارش وصدري طابق عليّا شوية.. اعملي لي كُبّاية نِعناع وولّعي شوية بخور.

- حاضر.. بس خليك أنت جنب الواد على ما أغلي له ورقة جوافة.

خلع طاقيّته والكوفية وسلخ المِعطف واستلقى بجانب «حسين» الذي أيقظه اصطكاك أعمدة السرير: ما لك يا «حسين»؟

بعيون واهِنة أجابه: تعبان يابا.. عندي كحّة.

- عشان ما بتاكُلش عِدِل زي أبوك.. ولو طلع لك العفريت زي ما طلع لي النهارده مش هتِعرف تصرفه.

- هو طلع لك النهارده؟

- عمل لي فيها تيس.. سمّيت وحدفته بحجر.. طلع يجري.. لو ما كنتش متعشّي كويّس كنت خفت وجريت.

- أنا خايف يابا.

- ما تخافش يا «حسين».. كان ذلك حين شعر بوخزة.. مِسمار اخترق كتفه وصدره.. جزّ أسنانه وأغمض عينيه واحتضن صَغيره بعد أن قبّل جبهته.. دقائق وصَدرت شخرة.. شخرة عالية.. حشرجة

كافية لتهرول «صفيّة» من المطبخ بلمبة الجاز وتتعثّر.. دخلت الغرفة واقتربت من الفراش: «حنفي».. يا «حنفي»!!

من الغرفة المجاورة سَمع «فاروق» الصرخة، اصطدم بأمّه قرب الباب:

- فيه إيه ياامّا؟

- أبوك ما بيردّش عليا!!

-آبا.. آبا.. قفز «فاروق» فوقه بعدما أزاح «حسين»: أوعى يالا.

أمسك بذراعيه وأخذ يرفعهما ويخفضهما كما تلقّى الإسعافات الأوليّة في دورة الفتوّة العسكرية[1].. قطع أزرار الصديري الصغيرة فتناثرت تحت الأقدام.. ثانيتان وبرز «صلاح» و«زينب»، تبعهما «محمود» و«نوال» ثُم «فايقة»، والتصق «حسين» بالعمود النحاسي للسرير جاحِظ العينين عاجزًا عن استيعاب ما يحدُث.. صاح «فاروق»:

- هاتي كُباية ميّه يامّه.. قرّب اللمبة يا «صلاح».

دلّك صدره.. تأمّل عينيه التي تذبل: لأ يابا لأ.. تَساقطت دُموعه على صدر أبيه الذي رماه بنظرة أقنعته بالكفّ عن مُحاولاته، قبل أن يلتفت لـ«حسين» بعيون واهِنة ويهمس: ما تخافش.. ما تخافش..

لم يقو بعدها على كلمة.. اغرورقت عيناه.. ثوان وأسلم الروح.

مات باكيًا..

(١) دورة تمهيدية كانت تدرس في المدارس لإعداد الشباب للحياة العسكرية والمقاومة الشعبية.

وضع «فاروق» أذنه على صدر أبيه فسمع الصمت مُدويا، صَرَخ وصَرخوا: لأ يابا لأ.. قام ودخل برأسه في زجاج الشباك فتحطّم، تدفّق الدم على جبهته وانهارت الأم أرضًا، انكفأت عليها الفتيات ينحبن وتدافع الصِّبية فوق صدر أبيهم، في حين ظل «حسين» صامتًا بلا تعبير، يتابع في ذهول ما يحدث ونظره مُعلّق بالوجه الشاحِب حتّى سَحبته يد وغاص في حضنٍ عميق.

في اليوم التالي خرجت الجنازة مهيبة، مشى فيها أهل الحي يَهوديه ومَسيحييه ومُسلميه، بكاه الكُل وعلى رأسهم رفيقاه اللذان قضيا معه سهرته الأخيرة، وواروه التراب في حوش اشتراه بمقابر الإمام حين قدِم للقاهرة بعد أن صلّوا عليه بمسجِد السيدة عائِشة..

في اليوم الثالث جاء «ليتو» يَحمِل الأسف وثمانية عشر جنيهًا كان قد ادخرهم «حنفي» لديه، وواسى «صَفية» وربت على كتِف «فاروق»:

– أنت بقيت راجِل البيت.. شِد حيلك.

ثُم نادى«حسين»الذي بدا صامتًا أزيد من اللازِم، عبث في خصال شعره مُتأملًا وجهه:

– كُلّه المرحوم الخالق الناطق.

ناوله نِصف رِيال: ابقى فوت عليّا بُكرة في الدكّان يا «حسين».

هز «حسين» رأسه ولم يعقّب.

* * *

الفصل الثاني

بعد ٥٤ سنة..

السبت ١٥ نوفمبر ٢٠٠٨..

مقابر الإمام بعد منتصف الليل..

اهتزازات المصباح وسط شواهِد القبور بعثت الحياة في الظِلال النائمة فقامت تترصد شبحين يتسللان، رجل طويل أحدب يرتدي جلبابا ويحمل مِصباحا، والآخر شاب يَرتدي بنطلونا وقميصا ويحمِل عتلة حديدية، لم يوقفهم كلب يُزمجِر أو قِطة تموء حتى وَصلا لفِناء متواضِع يكثُر حوله الصبّار، مُغلق بباب صدئ وبجانبه سبيل مياه مَعطوب مكتوب عليه: اقرءوا الفاتحة لصاحب هذا السبيل.. «حنفي الزهّار».. ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.. مَدّ الرجل يده في غياهِب الجلابية التي بدت كغطاء سيارة نِصف نقل دُوبل كابينة وأخرج سِلسِلة مفاتيح كبيرة، على ضوء المِصباح فرزها بأنامله الطويلة ليصطفي منها مفتاحا عتيقا قربه من النور: اقرا مكتوب إيه كده.

رد الشاب بفتور: «الزهّار»...

التقط الرجل العتلة من الشاب النحيف: تعالى.

استوقفه: ما أستتاك هِنا؟

بعين رمادية خارجة عن نطاق الخدمة رمقه: خايف!! يا ابن الترجمان جوّه آامن من برّه ميت مرة.

نظر الشاب حوله في ريبة: ماشي يا عم «جابر» بس خف ايدك.. نَهارك أبيض.

داخِل الحوش ترك «جابر» المِصباح على الأرض، وضع يده في جيبه وأخرج منديلًا أقرب لخرقة بالية، فضّه ليلتقط مِنه فصّين من الثوم، وبملء سبّابته غرسهما في فتحتي أنفه المشعرتين، استنشق نفسًا ثم دس حافة العتلة بتمرس بين أحجار القبر بعدما كشط الرمال والجبس من بينها، حين سَمع الطقطقة ألقى العتلة وانتزع ألواح الحجر ووضعها جانبًا، عندما فاحت الرائِحة الخانقة خرج الشاب مسرعًا، فالتقط «جابر» المِصباح ونزل يتمتم سورة الناس، دقيقة وصاح صيحة نفضت الشاب في الجوار: الدايم هو الله!!

بصق الأخير في الهواء: الله يخرب بيت أمّك يا ابن المجنونة على الصبح.

ثوان وخَرج «جابر» يقبض على ذيل جلبابه بما تبقى من أسنانه السوداء من أثر مزاولة الجنس مع الجوزة، كاشفًا ساقين كثيفتي الشعر صُرصَاريتي التكوين ولباسا رحبا من الدمّور، جاهد ليعيد الأحجار مَكانها ودَس التراب بين الفتحات ثانيًا قبل أن يلتفِت للشاب ويمد يده في ظلمات الجلباب ليخرج جمجمتين: حِتّين بقه إيه، معتّقين، هتدعِيلي، أنا اخترت الحوش ده من بين لحواش عشان لِسّه مفتوح

قريّب، لمّا جابوا بنت صاحب السبيل، عَشان لو جه حد يزور وشاف الفتحة جديدة ما يستعجبش.. قالها ثم أشار بسبّابته تجاه رأسه:

– دِماااغ.. قول لأي حد بس «جابر» بتاع الإمام، أنا التوكيل.

– يعني واخد توكيل (BM)!! لخَص يابا الريحة هتموّتني.

– انشف يا ابن خالتي، فيه ناس ريحتها وهي صاحية أعفن من كده.. معاك كيس نايلو؟

ركل الشاب سِيجارة عُمرها نفسين إلى مثواها الأخير وأخرج كيس قمامة أسود من جيبه، في حين ناوله «جابر» جمجمة بعدما فحصها ثم توقّف عِند الأخرى التي بدت أكثر تهتكًا: قرّب اللمبة يا مِمّس.

على الضوء المتراقِص تفقد «جابر» الأسنان حتى عثر على ضالته.. سِتّين فِضّيتين: لا مؤاخذة، دول بقه الشاي بتاعي.. ماشي يا عسل؟

جز الشاب على أسنانه: بالهنا والشفا.

انقض «جابر» على فك الجمجمة العلوي بفكّيه وعضه في (French Kiss) عبر الزمن حتّى انتزعهما وأودعهما جيبه الواسِع، ثم وضع الجمجمة في الكيس: أكسّرهُم لك؟[1]

– أمّال يعني هنحشيهُم! كسّر يابا.

مد «جابر» يده بجانِب إحدى البوّابات والتقط مطرقة ضخمة يقال لها دؤماءة، يبدو أنها تعرِف عملها جيدًا، انحنى مثبتًا الكيس بركبته قبل

(١) تستخدم بودرة الجماجم بعد سحقها في تصنيع الهيروين.

أن ينهال على الجماجِم طرقًا حتى صارت هشيمًا، قام بعدها ينفض التراب وناول الكيس للشاب الذي أخرج من جيبه مائة جنيه ودسّها في راحة «جابر».. ختمها وجهًا وظهرًا بقُبلة رضا مُبللة: اللهم دِمها علينا نِعمة واحفظها من الزوال.. ما يلزمش حاجة تاني.. أي حاجة؟.. ثم فرد ذِراعيه مُشيرًا للمقابِر من حولهما بزهو دوق إنجليزي في ضيعته مترامية الأطراف: الخير كتير.. هعملّك خصم.

أحكم الشاب ربط الكيس الأسود: ما هو باين أهه.

مد «جابر» كفًا متشققة: طب والعشرة دول دِماغين بميت جنيه يا بلاش، يمين الله لو عِل في كلية الطِب آخُد منه تولتوميت جنيه، أنت عارِف الدورار بقى بكام؟

– أنت هتغنّي يا عم الحاج.. دول أموات.. دولار إيه!!

– الدنيا غِليت على الميت قبل الحي.. والجماجِم النضيفة شحّت.. الناس اللي هِنا مدفونة وقت ما كان لِسّه فيه بركة.. كُلّه دلوقت بيهِج على أكتوبر.. روح شوف بقى الجِتة هِناك توصل كام وحالتها إزّاي!!

– مش خايِف في يوم تقابِل عفاريت الناس ديّه.

أشار «جابر» للشاهدين المُحيطين بثلاجة البيرة خاصته: الله!! ده خالي وده عمي.. ثم شد نفسًا هائلًا: الحي أبقى من الميت، صاحِب السبيل لو قاعِد معانا دلوقتي كان شد له نفسين، سُنّة الحياة، كله عايش على كله، والا هو الدود أحسن منّا؟

هز الشاب رأسه مستغربًا المنطِق: نهارك أبيض.. تعالى طلّعني على الشارِع.

حين اقتربا من الطريق توقف «جابر» كمن لا يملك تأشيرة خروج، رفع يده العملاقة ملوّحًا: طريق السلامة يا صغيّر.. سلّم على اللي باعتينك.

تركه «جابر» و رجع إلى الحوش.. دخل غرفة تصلح مقبرة وانحنى تحت سرير حديدي صدئ ليخرج برطمان مَملوء بأسنان فضية وذهبية وبعض الخواتِم والأقراط التي لم يفلح أهل الميت في انتزاعها أو أشفقوا من إقلاق نومة فقيدهم.. رفع الغطاء وألقى بالسنتين الفضيتين، ستّين لمعتا من الضحك يومًا في بيت «ليبتو».. وضع العلبة مكانها و خرج يرص أحجار جوزته حتى أذّن الفجر.. فجر يوم جديد.. يوم نامت فيه رأس «حنفي الزهّار» لأول مرة.. بعيدًا عن جسده..

* * *

الفصل الثالث

كانت نبوءة «حنفي الزهّار» قد تحققت في أنجال رسم كُل مِنهم حلمه الخاص، صَمدوا لسنتين في مُراعاة الدكّان، تدفعهم ذِكرى والِد متوفى ورغبة في الحِفاظ على إرث غير مُحتمل، مع الوقت تراكمت الديون وأثقلت الكواهل لقلة خبرتهم بالزراعة وإدارة الدكان، تقاذفوا المسئولية بينهم كجمرة نار تحرق أيديهم حتى فاض الكيل، لم يَعد هناك مناص من البيع، تفرّق المبلغ بينهم لينال كُل منهم الفتات، واشتغل الأخوة بعدها بلا استثناء، حتى الإناث نزلن المَحلات طلبًا للرزق، قاوموا لسنة أخرى حتّى انقصم ظهر البعير بعدما لاح في الأفق زوج لأولى البنات، فبيعت الأرض، واستقر الأمر نسبيًا بالذكور في أعمالهم.. لم يتبق غير «حسين» الذي كان يبلغ وقت وفاة أبيه اثني عشر عامًا، كان عليه البحث عن عمل، مبلغ يكفيه حذاء باتا وبنطلون جبردين وربما قميص لينو بياقة منشّية.. احتضنه «ليتو» لعامين كصبي ملمع الذهب والألماس في ورشته، يحصل يوميًا على قرشين بجانب نفحات أهل الحي الكِرام وحَصيلة مَجهود ليلة السبت التي تصل

أحيانًا لجنيه أسبوعيًا[١].. حياة مستقرة حتى بداية عام ١٩٥٧ بعد حرب العدوان الثلاثي حين مَرض «ليتو» بمرض عضال أقعده، فصفّى أعماله وباع دكانه ورحل إلى فرنسا وَسط مشاعِر غضب وحنق استعرت يومًا بعد يوم ضد اليهود ووجودهم.

في عام ١٩٦٢ التحق «حسين» بالتجنيد بعدما حصل على ليسانس الآداب قسم التاريخ، لم يستطع تحقيق حِلم أبيه بدخول الكلية الحربية لعدم وجود واسطة، بعدما تكالبت جميع طبقات المجتمع على الجيش كأمل لا يضارعه أمل، تمسحًا في البذلة الميري، مثار الإعجاب والتقدير وتأشيرة الأبواب المُغلقة، أذكاها إعلام وصُحف وأفلام سينمائية مجّدت قصص ضباط جيش أصبحوا قادة وسياسيين.. قضى «حسين» بالجيش سنة، خرج بعدها ليعمل مُدرسًا للتاريخ بمدرسة إعدادية، حتى يونيو من عام ١٩٦٧، حين استيقظ على صوت انفجار زجاج العنبر في وحدته العسكرية من تفريغ الهواء الصادِر عن طائرة فانتوم تخطّت حَاجز الصوت! كان قد تم استدعاؤه قبلها بأسبوعين في تعبئة عامة حين أعلنت القيادة السياسية عن رحلة صيفية لتل أبيب، شامِلة وجبة ولعبة الكراسي الموسيقية وعرض الساحر، بعدها تم ترحيل «حسين» إلى منطقة «عريف الجمال» على طريق العريش، قضى فيها ثلاثة أسابيع يأكُل ترابًا وحصًى تذروه الرياح، قبل أن يخرج يومًا بين زميلين في مهمة استطلاع تستغرق نهارًا بليلته، وحين عادوا كان شباب الكتيبة

(١) كان اليهود يمتنعون عن أداء أي أعمال بداية من ليلة السبت المقدّس وفقًا لمعتقداتهم، لذا يَستعينون بغير اليهود لإتمام إغلاق الأبواب ومَكابس النور، ونظير ذلك يمنحون الحلوى أو بعض النقود القليلة.

يفترشون الأرض، مربوطين في صفوف ووجوههم للتراب، وفي رأس كُل مِنهم فجوة.. فجوة تصلح جحرًا لفأر.

بعد شهرين وصل «حسين» القاهرة بعدما فضّل العودة مَشيًا على انتظار أتوبيس رحلة لن يأتي، عاد بدون أن يضرب رصاصة، يَحمل زمزمية فارغة وإصابة بمفصل الركبة ستكون سببًا في خروجه من الخدمة العسكرية، وذكرى ستفشل الأيام في مَحوها، يوم بحث في السماء عن نجدة! عن شخص يصرّح بأن هناك خطأ، مَن يعتذِر، ويبدو أن الطلب الأخير كان مبالغًا فيه!

لم يستغرق الأمر وقتًا ليعود «حسين» مدرسًا في نفس المدرسه، لكن الأمر استغرق وقتًا حتى تزوّج «ناهِد»، جارته التي يكبرها بخمسة عشر عامًا، كان ذلك قبل أن يسافر السعودية في إعارة لأربع سنوات، رجع خِلالها عام ١٩٧٧ في إجازة ليرمي بذرته الوحيدة..

«طه حسين الزهّار»..

في سبتمبر عام ١٩٨٩ استيقظت مصر على صدى إعلان التحفظ على أموال شركات «الريان»، استقبل الآلاف ممن أودعوا ما جادت به الحياة ذلك الخبر بصدمة يصعب وصفها، كما استقبلت مُستشفى مِصر الدولي يومها مَريضًا أسقطته صَدمة عَصبية أدّت إلى شللٍ في نِصفه السفلي.. لم يكن ذلك سوى «حسين الزهّار»!

تقاعد مبكرًا، مَعاشه المتواضع أصبح بالكاد يكفي سَجائر رديئة ودواء، لولا الدروس الخصوصية لهلك وأسرته، ابنه وزوجته التي صَمدت معه لستة أعوام قبل أن تُعلن العِصيان، لينفصلا على أن تترك له «طه» مُكتفية بزيارته على فترات، زيارات أخذت المسافات

بينها تتباعد كضربات قلب مَريض يحتضِر، حتى انقطعت، واستقر الأمر بـ«حسين» وابنه في شقتهما بالدقي، في قلب ميدان «ڤيني»[1]، تِلك الشقة التي اشتراها فترة عَمله بالسعودية، والشيء الوحيد الذي تبقى له من أموال الغُربة، وقت هجرة الطبقة التي ملكت المال إلى المهندسين والزمالك.

* * *

التحق «طه» بعد تخرجه في كلية الصّيدلة بشركة أدوية كـ(medical rep) «مندوب دعاية طبية»، مُهمته الأساسية المرور على العيادات لتسويق أدوية شركته، يَستعرض الجديد منها ويحصر انتشارها وقوة الطلب عليها في الأسواق، يرتدي بذلة وكرافتة، ويحمِل حقيبة جلديّة مُسلّحة بمزايا توفرها شركته لاستقطاب الأطباء ناحية المنتج، عينات مجانية، دعوات للمؤتمرات، ليالي في فنادق شرم الشيخ... إلخ. يتردد على عيادات هادئة تحتل أفخم العمارات، بمُوسيقاها الناعمة وتل مَجلاتها الأجنبية وإضاءتها الخافتة وروائِحها المختلطة وتلك اللوحة التجريدية التي لا يصِل لمغزاها، تحتها المُمرضة البدينة التي لا تنزِل سماعة التليفون عن أذنها، بجانب المريضة الغامضة بارزة الصدر التي تختلِس له نظرات خاطفة.. أو هكذا يتخيّل.. فترة من الانتظار المُمِل تعوّد مِن أجلها على سَماع بعض الـ(mp3) قتلًا للوقت، يدس السمّاعة في أذنيه منعزلًا، يستند بقبضته على وجنته حتى تُحفر فيها العلامات متأملًا حذاءه وحقيبته، تِلك الجلود التي باتت عُضوًا فعالًا في جَسده، تأكل وتشرب وتنمو،

(١) ميدان السد العالي حاليًا.

تدور في رأسه أفكار لزجة أشبه بمِياه ترعة راكِدة، لا حراك ولا حياة فيها، خضراء آمنة بالتعفّن، يَحمِل بين ضلوعه الغضب الرسمي لكل من التصق بترس الحياة، يفرمه ببطء تحت شِعار «جهنم ما فيهاش مرواح يا كتكووت».. لا ينتشِله سوى صوت المُمرضة الأخنف: اتفضل يا دكتور.. يبتسِم ابتسامة صفراء ثم يقوم وسط نظرات المرضى المتفحِّصة ليرتدي قِناعًا آخر، قِناع لا يمُت لِما درسه في الكلية بصِلة، تتلبسه روح تاجِر شنطة قبل أن يطرق باب الطبيب الذي لم يظفر معه أحد من الزملاء بنجاح يُذكر لعدة عوامل أهمها.. افتقارهم للتضاريس!!

كان الأمر ليبدو مختلفًا لو كانوا زيزي أو ماهيتاب: دكتور «سامي».. مَساء الخير.

انهماكه في تسجيل المُلاحظات كان أقوى من الالتفات لذلك البرغوث الذي اقتحم الغرفة: تلات دقايق بإيجاز لو سمحت؟

دكتور «سامي عبد القادِر».. فئة (أ) من الأطباء المُستهدفين: سُمعة تسبقه، كشفه العادي يتعدّي المائتي جنيه وبالحجز المُسبق، حاد المِزاج، بارد، رذِل، أنيق، واثِق، مشمئز، تعلو جبهته لافتة (No Parking).

لن يناسبه الأسلوب التقليدي..

سيستلزم جُهدًا..

عملًا سفليًا يدفن في مؤخرة سلحفاة بحرية عانس..

مَسح «طه» شعره الأسود الذي ورثه عن جدّه وضغط نظّارته على أنفه: سؤال؟.. الصورة اللي ورا المكتب.. حضرتك اللي مصوّرها؟

خلف رأس الطبيب كانت هُناك صورة لمنظر غروب جربان، استشف «طه» أنها لهاوٍ، لوجود تاريخ صغير مكتوب بلون أصفر في أسفل اليمين، مِما دفع الطبيب لخلع نظارته الرفيعة والنظر خلفه بتناكة طاووس: أنا اللي مصورها.

وضع «طه» حقيبته على الكرسي المُقابل بعدما جلس مُتصنعًا دهشة عارمة: لأ..مِش ممكن!!

اعتدل الطبيب بابتسامة تقول إن دى أقل حاجة عندي: صوّرتها في الساحِل الشمالي.

- أنا مش مصدّق، دكتور ومُصور مُحترف.. ده كتير.. قالها «طه» وعلى وجهه آيات الانبهار.

تشقق وجه الطبيب عن ضحكة راضية فاستأنف «طه» مَسح الجوخ: ديكور العيادة كمان تحفة.. تناسق الألوان والجو العام مُريح جدًّا.. ثم لمس المكتب براحته: أمسك الخشب.

ضحك الطبيب برضا في حين قام «طه» ساحبًا حقيبته: فرصة سعيدة جدًّا يا دكتور.

استمهله الطبيب: رايح فين؟!

- يدويك.. كفاية إنّي اتعرفت بحضرتك.. أنا «طه».

- أنت جاي عشان كده؟

- لأ، الحقيقة أنا كنت جاي أكلّم حضرتك عن المنتج بتاعنا بس التلات دقايق خِلصوا و...

قاطعه د.«سامي»: اقعد يا «طه».

كانت تلك بادرة أمل من ذكر تنين منقرض.

جلس «طه»: أخبار «الهيبزولان» إيه؟

رجع د.«سامي» بظهره إلى الكرسي: فيه حد كلمني عنّه قبل كده! هو ماشي.. كويّس.

– حضرتك بتدّي جُرعة أد إيه؟

ارتبك د.«سامي» قليلًا وحك أنفه: أأأ.. قرص.. قرص يوميًا.

ابتسم «طه» ابتسامة سَمِجة: قرصين.. الجرعة قرصين يا دكتور..

قالها وفتح حقيبته مُخرجًا نشرات الدعاية وفردها أمامه: «هيبزولان».. الاسم جاي من«هيب».. اسم إغريقي للبنت اللي كانت بتسقي آلهة الإغريق الخمرة.. مرّتين في اليوم.. ده هيفكّر حضرتك بالجرعات.

ضحك الطبيب بعفوية: حِلوة.. عجبتني.. فعلًا الاسم جاي مِن...؟

قاطعه «طه»: طبعًا.. يا نهار أبيض.. «هيب» ساقية الآلهة.. أصل «هيبزولان» مش بس مُسكِّن.. ده كمان داخل فيه نفس التركيبة بتاعت الـ(Sedatives) اللي بتستخدم قبل التخدير في العمليات.. يعني بيعلّي مود المريض ويهدِّيه وده طبعًا بيأثر على الـ(BP) والسكّر... إلخ.

– مفهوم مفهوم.. بس أنت عرفت موضوع ساقية الآلهة ده منين؟

– والدي مُدرِّس تاريخ.. معيّشنا فيه طول الوقت.. بيدخّن سجاير «كيلوباترا».. عنده عربية «رمسيس».. بيشرب شاي «إيزيس».

كان ذلك كافيًا لإزالة الـ١١١ التي كانت منقوشة بين حواجب الطبيب، ضحك ضحكة صاخبة قبل أن يلقى بسبعة كومي رغبة منه في بصرة: أخبار المؤتمرات إيه؟ بقى لكم فترة كِده...!!

قاطعه «طه»: والله فيه مؤتمر الـ(CCIH) بتاع كندا، الشركة بتحضّر له دلوقت.

– امتى المؤتمر ده؟

استشعر «طه» ملمس ريالة على قلب الطبيب فأردف: بعد تلات شهور.. والتسجيل والإقامة والانتقال على حسابنا.

– طب فين الدعاوي يا أبو حميد.

ابتسم «طه» ابتسامته السمجة الثانية: «طه».. «طه الزهّار» يا دكتور.. بصراحة مِش عارف ألحق أرشّح حضرتك والا لأ.

قالها واستند بكوعه على المكتب مُقتربًا منه مُحاولًا إضفاء حالة من السكرتة على الحديث:

– بصراحة الشركة بتركِّز على الدكاترة اللي بيساعدوا المنتج، ببيان من مَسحوبات الصيدليات اللي في المنطقة، حضرتك فاهِم طبعًا، والست أشهر الجايين الشركة طالبة مني أرفع مبيعات «الهيبزولان» في الدقي والمهندسين، لو حققت النسبة المطلوبة أرشح اتنين دكاترة للمؤتمر، في المنطقة مفيش غير حضرتك والدكتور «سعيد إسكندر»، بالمناسبة هو طالع المؤتمر، واللي عرفته من الصيدليات اللي هنا إن

حضرتك بتكتب (Vicodin) في حالات الـ(Chronic Pain)، حضرتك عارف إن «هيزولان» تأثيره مباشر وأسرع.

أجابه الطبيب في دلع مرئ: هو بس «الهيزولان» خطر شوية بالذات لكبار السّن.. كمان غالي.

ابتسم «طه»: حضرتك اللي غالي.. ومفيش دوا مِن غير أعراض جانبية، أصل الدكتور «سعيد إسكندر»...

تعفرت د. «سامي» حين سمع اسم منافسه: إيه المطلوب؟

- «الهيزولان» يمشي شويّة.

- بس العينات المجانية قليلة أوي؟

- مفيش مشكلة في ده.

قالها وأخرج من حقيبته علب دواء ووضعها أمامه على المكتب:

- كده ماشي؟

- أنا عايز شوية كمان ينزِلوا الصيدلية اللي على الناصية.. قول له من طرف د. «سامي».. هو فاهِم.

ثم سحب ورقة من دفتر صغير وكتب بخط منعكِش اسم صيدلية وعنوان.

هز «طه» رأسه: مفيش مشكلة.

- طب والمؤتمر؟.. استدركه د. «سامي».

- هحاول على قد ما أقدر.. قالها «طه» ثم جذب حقيبته ومد يده مُبتسمًا: فرصة سعيدة يا دكتور.

أساسيات قواعِد العمل بالتسويق:

- لكل عميل ثغرة عليك أن تكتشفها أولًا..

- ابتسم وكن واثقًا من نفسك..

- بعض المَديح لن يضُر..

- لا تُخرج كل ما في جعبتك دفعة واحدة..

كان «طه» يعرِف عَمله جيدًا، لم تكن قاعدة لتفوته، اشتهر بين زملائه ورؤساء العمل بأنه رجل المهام الصعبة، يَستعمِلونه مع عينة الأطباء صِعاب المنال ذوي السُّمعة، يَجمع أولًا المَعلومات عن الطبيب مِن قاعدة بيانات الشركة، يدرس مَسحوباته من الصيدليات.. يُقدر حَجم الشركات المنافسة.. يقرأ لغة جسده.. ثم الثغرة.. نقطة ضعفه التي تمثل:

- ٥٠٪ مَاديات..

- ٤٥٪ ضعف تجاه النّسوان..

- ٥٪ شاذة وغير متوقعة..

يتسلل من طريق غير معهودة.. يفرد ابتسامته.. بعض التليط قبل عرض ما يَصعب رفضه.. ثم تطبيق نظرية (Pressing power).. إلحاح إصراري مزمِن أشبه برتابة نبضات القلب.. لا تتوقَف.. حتى يرضخ الطبيب للمنتج.. هكذا كانت تمر الأيام.. روتين أسبوعي مُمل أشبه بروتين «سيزيف». لا ينتهي عمله قبل الحادية عشرة إذا لم يمر على قهوة النيل- التي لا تُطل على النيل- حِرصًا منه على

جُرعة كافيين تُبقيه حيًّا ليوم آخر، وليقابل «ياسر»، صَاحِب الأقوال المأثورة: الحكم مفروض يبطل يلبس اسود.. الحزن في القلب مش في الفانلّة والشورت.

لم يكن «ياسر» سوى جارِ «طه» وصديق طفولته.. ذلك الفتى الذي لعب مَعه كَهربا.. شِد الكُوبس قديمًا ثم بادله شرائِط السِّكس لاحِقًا قبل أن يدخِّن معه أحجار التفّاح حاليًا.. التصاقه بالقهوة كان أزليًّا ومصيريًّا، أقوى من التصاق لبانة في شعر عانة، لا نقاش فيه، رَفيع كجريدة نخل إذا استثنينا كِرش ما بعد الزواج، لا يرتدي تقريبًا سوى القمصان الكاروه، يَمتلئ دُولابه بمجموعة قد تسِدّ فاترينة التوحيد والنور، حَاول المُقرّبين ثنيه عن ذلك النمط الأشبه بمَفرش منضَدة مطبخ، لكن هيهات، احتمال استِضافة الاوليمبيات في دار السّلام كان أقرب، شعره أسود عَالي المقدّمة، كثيف شعر الرسغ لا تفارقه السيجارة، يَعشق بلبعة المُكيفات كمَكنسة كَهربية نهمة خاصة المنمّية للقدرة الجنسية، يَتردّد على طريق بلبيس تردّد النحل على الوردة لجلب مزاجه الأسبوعي، خرِّيج كلية الحقوق ويَعمل مُحاميًا بمكتب له شهرته، رجل شدائِد يظهر كعفريت مِصباح يلتحف الكاروه، يَدعمه في الكرب ثم يختفي في عالمه، يغيب أيّام ثم يظهر ليبعثر الدخّان متناولًا نتائج مباريات الأهلي وبعض السياسة قبل أن يتطرّق حديثه تلقائيًا إلى النسوان: الباب التاسع مادة ٦٠.. أحكام قانون العقوبات لا تسرى على كل فعل ارتكب بنية سليمة.. ورحمة أبويا لمّا اتجوّزت كانت نيّتي سليمة.. قالها مُمتعضًا.

– قلت لك من الأوّل يا ابن العبيطة.. عِرفت ليه كنت مَاشي وراك بدلِّك لك البروستاتا في الزفّة؟

– يا ريتك استأصلتها خالِص.. يا ابني بقولّك وزنها بقى ١١٠.. فنطاس عمارة.. محتاجة ميزان قبّاني.. ونِش شوكة يرفعها مش بني آدم.

– تريلّا تريلّا تريليلة.. طب ما تسرّبها! خُدها في حِتّة بعيدة ونزّلها.. مِش هتِعرف ترجع.

– أقول لك على سِر ما يطرطش برّه.. فيه حِتّة مَعايا على (Face book).. باجور.. عود مَعمول عند المالكي بتاع الرز بلبن.. عارِف «جينيفر لوبيز» بعودها بصدرها بهنشها.. ولا تيجي جنبها حاجة.

– هنِنخع بقى.. يالا أنت آخرك قمر أوربي.

اعتدل «ياسر» في جلسته وخبط على فخذه: ورحمة أبويا ما بنخع.. اسمها «ياسمين».. ويوماتي رسايل ملهلبة لمّا خيلت أمّي.. وصورها إيه!! رجلين خرط وشعر ناعِم وشفايف ملظلظة.. مهلبية.

– أنت عاوز تقنعني إن واحدة بالمواصفات دي وما شافتش غيرك أنت!!

– يا ابني دي بتقول كلام!! يا لهووووي.. لسّه امبارح بتقول لي أنت فيك شيء مُختلف.

– أكيد تقصد مُتخلِّف!

– بلاغيها جس نبض ما صَدّقت.. بعبعت بكل اللي عندها.. وحيدة وجوزها داير طول الوقت على النسوان.. وهي حرنانة وهتموت.. ربنا ينولها الطلاق.

– ولمّا تتطلّق؟

– هارشق طبعًا.

– وعاملِي فيها من أحفاد «رفاعة الطهطاوي» والزهرية الصالحة.

–الراجِل ما يتفعهوش واحدة.. بالذات التقفيل المصري.. همّتك معايا بقى ما تبقاش عيّل.

– عاوز إيه.. أتجوزها لك أنا؟

– ليه! شايفني كنكة.. كل الموضوع إن أنا ما أقدرش على البطل ده بالمجهود الذاتي.

– هات من الآخِر.

– ظبّط لي حاجة تصحّي الميّتين.

– أنت هتشتغل من على الفيس بوك.

– يا ابني أنا عدّيت معاها الكلام ده.. البت بايظة.. فاضل لي تكّة.

– وقايل لها بقى أنّك متجوّز وزينة ومحامي وكِده؟

– هي عارفة إنّي متجوّز.. وعارفة إنّي مش طايق مراتي أنا كمان.. بس مفهّمها إنّي وكيل نيابة.

– ناقص.. وشكلك هيبقى كلوت لمّا تعرف.

– يومها يحلّها ألف حلال، ها آخُد إيه؟

– «ترامادول».. «ڤايركتا» ولا أحسن خُد «إرِك».. حبّاية حمرا بس اكسرها اتنين.

– لا.. الحاجات دي خلّصتها على الدولاب اللي في البيت.. أنا عاوز حاجة (F16).. بقول لك وَحش.. وَحش.

– وحش! خُد لها بندقية خرطوش.. سمعت الخبر اللي في الجرايد؟

– خير!

– فيه مركب فياجرا غرقت في النيل.. إلحق عبّي لك چركنين قبل ما يتشفطوا.

– يله بطّل تهريج.. اخلص.

– فيه لبوس جديد حِكاية.

تلهّف ياسِر: اسمه إيه.

– أبو فاس.

– يا وِسِخ.

ضحك «طه» حتّى دمعت عيناه: يا نهار أسود.. أنت على استعداد تلبس لبوس عشان يدّيك طولة العُمر وتشوفه عريس!! أنا مش مصدّق إن من بين عشرتلاف حيوان منوي أنت كنت أزكى واحِد.

– هتزِل أمّي... أنا عارِف.

– لمّا يتخرب بيتها أبقى عَدّي عليّا في الصيدلية.. هاشكّك حقنة سِم.. هتخلّيك (4x4). سُبحان الله.. اللي يشوفك كِده ما

يشوفكش وأنت أيّام الخطوبة ملزّق شعرك وتعبااااان.. ودباديب وتليفونات طول الليل وتشتري أعداد طبيبك الخاص عشان باب العلاقة الزوجية.

- أهه باب العلاقة الزوجية ده اللي دخّلني في الحيطة.. بإيّنه كان بيتكلّم عن نسوان استيراد.

- و«داليا» طلعت تقفيل مصري!

- بُص.. «داليا» مفيش زيّها.. نظريًّا.. بس عَمليًّا وأنت فاهِمني ما نتكلّمش في الموضوع ده تاني.. الغريب إن أنا وهي الأيّام دي سَمن على عسل.. الحِتّة الجديدة ظبطت الأداء.

- عشان حاسِس بذنب.

- لا ذنب ولا نيلة.. الصح كل واحِد يبقى له اتنين.. واحدة حكومي والتانية عقد بمكافأة شاملة يتجدّد كل ست أشهر.. بُكرة تشوف.

- أشوف إيه.. وأبقى زيّك كِده؟!! عامِل زي ما تروح مطعم وتطلب أكل.. وبعد ما يجيلك تفضل تبص على أطباق اللي حواليك.. وليه الذُل!

- بدأت أشُك في قدراتك.

سَحب «طه» نفسًا عظيمًا وأطلقه في دوائِر ثُم أردف: شُك على روحك.. أنا كِده مَلك.

- مِسيرك تقابل واحدة تشقلب حياتك.

ابتسم «طه»: هو أنا عندي حياة عشان تتقلب!

* * *

تستغرِق جلسته مع «ياسر» حَجر تفّاح بولعتين مِن «حَمدي» راعي الماشة وحامي الفحم قبل أن يبدأ عبق الكربون في الظهور، عِندها ينظر «طه» في ساعته قبل أن يَرحل.. يَدلِف إلى بنايته بعدما يُحيي «مَنصور» البوّاب بتحية ترد بطلاسِم صَعيدية: سِلامور حمتاليستازطا!.. لم يهتم يومًا بمُحاولة فكها أو ترجمتها، يَدخل مِصعدًا عتيقًا ويضغط رقمًا مَمسوحًا كان يشير يَومًا للدور الثاني، يضغط بابه الصدئ بيده ليَصعَد ببطء دودة قز وَسط سِيمفونية من الإيسيي.. إيسيي.. إيسي تُصاحِبه حتى يخرج أمام شقة بلا هوية، مُلصَق على بابها وَرقة صَغيرة فيها آية الكرسي، يفتح الباب ويَرمي حقيبته ثم ينتزِع حذاءه ويَسلَخ شرابه ويلقي بجسده على أقرب الكراسي لمدة قد تمتد ساعة قبل أن يستجمع قواه ليقوم مِن مكانه.

الشقة كانت متواضِعة، تنم عن جو ذكوري مكثف لم ينكشف على أنثى منذ أمد بعيد، ثلاث غرف تنبثق من طرقة صغيرة وصالة مُهملة وحمام مطموس بارِد ومَطبخ ضامِر، جو كئيب تُسعره لمبات نيون ٦٠ تزرع في النفس التشوهات.

الصالة كانت تتوسط الشقة، في منتصفها مِنضَدة تحمِل تليفزيون صغير، فوقه هوائي مُتعرج كقرون الاستِشعار، أمامه كنبة خضراء مائِلة كانت تتسع لثلاثة ولم تعُد، وكرسيان بلاستيك فوق سِجادة هربت ألوانها، مدّ يده لريموت عتيق مَخسوف الأزرار ووجّهه للتليفزيون، كانت حلقة من حلقات ستار ٢٠٠٨، لقطة متوسطة لمذيع وسيم: النهارده هنودّع شخص واحِد بس.. القرار في إيد جمهورنا.. همس.. «رانيا».. «أحمد» و«أمير».. مُستعدّين؟ انتقلت الكاميرا إلى المسرح المتلألئ في كادر متوسِط على الأربعة الواقفين في انتظار نطق

الحُكم.. استبعاد أحدهم.. نفيه.. سَلخ فروة رأسه قبل إعدامه.. فتاة رقيقة ترتدي فستان سهرة أبيض، والأخرى متفجّرة الأنوثة ترتدي فستانًا أحمر، استحوذ صدرها على أغلب لقطات البرنامج، وشابين أحدهما عريض الصدر مُشعِر يفتح أزرار قميصه حتّى سرّته ويدلي بسلاسِل تحمِل رموز غير مفهومة وخرزات زُرق.. والآخر باهت يرتدي (T-shirt) وردي ويرفع شعره (Spikey).. انتقلت اللقطة إلى المُحكّمين.. رجلين وامرأة.. بدت في وجوههم جديّة وزراء خارجية عرب.. ثم كادر على المُذيع ثانيًا: لجنة التحكيم قالت إن الاختيار صعب جِدًّا عشان مستوى المنافسين متقارِب، فاصِل وهنرجع لكم تاني.. خلّيكم معانا.. بعد ثلاثة دقائق من إعلانات المحمول والمُدن الجديدة والحديد عادت الكاميرا للأستوديو: مُشاهدينا النهارده أرجع أفكّركم تاني إن بعد حلقتين بس هنِعرف مين نِجم أو نِجمة ستار ٢٠٠٨.. فتح ظرف وسَحب ورقة مطوية ثم وجه نظره للمتسابقين الذين حاولوا إضفاء بسمة مُصطنعة تخفي انهيار عَصبي فادح: اللي هيودّعنا النهارده.. مُوسيقى مُوتّرة ثُم بصوت استعراضي: «أمير سعد».

أحنى صَاحب شعر الصدر رأسه وارتعشت ذقنه واختلج مُحاولًا كبح جِماح ملامحه.. أثنى المذيع عليه واحتوته الفتاة ذات الصدر وعبّط فيه زَميله مُواسيًا قبل أن يختفي من المَسرح في عُجالة مَاسِحًا «برابيره» بكفّه.. ترك «طه» الريموت كنترول وقام إلى الطرقة حيث حُجرته مُتمتمًا: طردوا آدم من الجنّة!!

الغرفة كانت متواضعة، على اليمين سَرير صَغير يرجع لعصر ما قبل الثانوية، يَضطر «طه» مَعه لإخراج أمشاط قدميه إذا أراد فردها، بجانبه

مَكتب يَحتفِظ بندوب ورسُومات حفرها على مَرّ تاريخه الدراسي، اسمه بأكثر من ثلاثين طريقة، جماجم وعيون وبعض أسماء الفرق الموسيقية، وعلى الحائط مُلصقين لفريق (Metallica) و(Queen) بجانب صورة كبيرة لساحِر الدرامز «مايك بورتنوي» يهوي بعصيه على الطبول، باعث الحلم الذي أفرد «طه» من أجله نِصف مساحة الغرفة ليشتري آلة درامز متواضعة من شارع «محمد علي» ادّخر ثمنها من مَصروفه، تلك الهواية التي بدأت مع انتشار (Stickers) الفرق بين الطلبة في الفصول، نزل «طه» من أجلها شارع «الشواربي» باحثًا عن شرائطهم، في البداية لم يتعد الأمر حيّز الموضة (Walkman) وسَمّاعة أذن وحذاء (Nike Air Pump)، و(T-shirt cut) عليه صُورة الهيكل العظمي الذي يأكُل طفلًا وهو يعزف!! كان ذلك كافيًا أمام زميلاته مُزز أولى ثانوي المبتدئات ليبدو بمظهر الشاب المطرأع، حتّى بدأ الإيقاع ينساب إلى عقله، لم يعد الأمر مظهرًا، سَماع ذلك الصخب الهادر كان يهز شيئًا بداخِله، زار داخلي يُخرج عفاريت مَخبوءة، يجعل العالم مكانًا مختلفًا، فيلمًا سينمائيًا، حياة بالموسيقى التصويرية، لا يتخذ قرارًا قبل أن يقرع طبوله، يسألها، يغلق غرفته ويضع (Bandana) وقفازًا بدون أصابع فيبدو ساحِرًا أفريقيًا، ويبدأ في الرقع حتّى تشتكي «تانت ميرفت اللي في التالت» فيكف غارقًا في عرقه وقد أخرج عِفريته وألقاه جانبًا.. تلك كانت الغرفة الأولى.

أكمل «طه» خلع ملابسه قبل أن يدخل الغرفة الثانية.. حُجرة نوم أبيه وأمّه، كانت غنية بأثاثها يومًا، سَرير طراز الثمانينيات مُزوّد بمرايا عاكِسة لم تعُد كذلك، ومِنضَدة مُكدّسة بعدد كبير من عِلب الأدوية، وراديو فِضي عَريض مُوديل ٧٧، ومكان خال لنجفة استبدلت بلمبة

نيون باهِتة أضفت برودة على المكان.. لم يكُن أبوه هناك فخرج في اتجاه الغرفة الثالثة.. مرّ بالحمّام وأمام باب الغرفة الثالثة وقف يُنصت.. مَدّ يده إلى المقبض ثم تردّد فتركه وقصد المطبخ.. على ضوء الثلاجة المُتهالِكة عثر على نِصف علبة تونة وبقايا بسلّة قاربت الحموضة.. نحّاها وأخرج رغيف سَخنه على البوتاجاز قبل أن يُطليه بالجبن ويضعه في طبقٍ ثم أخرج سيجارة من جيبه واقترب بوجهه من اللهب الأزرق يقتبس نارًا.. وضع براد الشاي واستند على رُخامة الحوض ينتظر فقاقيع الغليان.. على إيقاع خبط منتظِم آتي من شقة في الجوار قرر صَاحِبها دق كُل مُسمار فيها. أخذت ذاكِرته تتداعى.. لاحت أيام طفولته.. ما قبل الإعدادية.. وقت مَلَكَ روح العصر.. كمبيوتر «صَخر» حلم الحياة.. وأتاري (Jr 2600).. متفوق في الدراسة وبخاصَّة مَادة التاريخ التي رضعها رضعًا من أبيه.. هادئ الطِباع نظريًا وإن كان معفرت كما تصفه أمّه.. تلك كانت الحقبة الأولى طبقًا لتصنيفه.. بدأت الحقبة الثانية بعد خبر الريّان.. حين فقد أبوه الاتصال بشِقّه السُفلي.. تِلك الرائحة الكريهة التي تسلّلت إلى البيت.. بالتدريج لاحت الشروخ في الدعائِم.. شهد أطوار التحوّل.. استياء.. نقد وصَريخ لأتفه الأسباب.. وصَمت مطبق.. انطوى في تِلك الفترة على نفسه.. لم يعد ذلك الفتى المضيء وحيد أبويه.. بهت حتّى صار لونه أقرب للون الجدران.. بلا لون!.. بالكاد تميزه عن الأثاث.. تمُر الأيّام فوقه في توتّر بُركاني تغطّي أبخرته الخانِقة سَقف البيت.. وبين يوم وليلة انتهى كُل شيء.. غادرت أمّه في هدوء! صَاحبة نصيب «زوجة» الأسد في الذِكريات.. رغم حُبّه الغريزي كان مُجرّد

تذكُّرها كفيل بأن يَجز أسنانه حتّى يكسر مِنها شظية، جاءت النهاية في غرفة مغلقة لم يصِل لأذنيه مِنها سوى: إذا كنتي هتِمشي إنسي «طه». خرجت بعدها.. لملمت ملابسها في حقيبة ونوت الرحيل.. استجداها «طه».. نفت قدرتها بدموع غزيرة وكلمات مُبهمة.. رحلت في صمت بعدما طبعت على جبينه قبلة.. لم ينس نظرتها يومًا.. كان فيها شيء لم يعهده.. كسر ما.. لم تكن تِلك التي نفد صبرها ولم تعد تتحمّل.. باتت شخصًا آخر.. لم ينس أول ليلة ينام في بيت بلا أم.. كان في السابِعة عشرة.. وقت امتحانات الثانوية العامة التي اجتهد فيها مُحاولًا رأب صَدع صَار هوة لم تلتئم.. تحلّلت حياته سريعًا.. سَنتان فقط كانتا كافيتين ليتحوّل البيت إلى خربة يَسكنها عاجِزان.. الأوّل على كرسيه والثاني تجمَّد بالوراثة.

في السنة الثالثة عِلم أنّها تزوّجت من صديق كان لوالِده.. وأنّها سافرت الخليج! انقطعت أخبارها إلا من مكالمات هزيلة لا رائِحة لها.. ليال كامِلة قضاها مُستلقيًا في سَريره يرى في السقف خيالات ملوثة.. يتصوّرها كنسوة شرائِط الجنس المتداولة بين أصدقائه بالمدرسة.. يَصرفها من رأسه مُشمئزًا فتأتيه عارية تمشي على أيديها وركبتيها.. تطارده.. تلح عليه إلحاح نِقاط المياه المتسرِّبة من صُنبور خرب.

لم ينتشله من تجرّع تلك المشاهِد غير سكين الجبن حين أزاحها بظهره المُستند على طاولة المطبخ فسقطت على الأرض مُحدثة دويًا أخرجه من شروده.. سَحب آخِر نفس من السيجارة ثم أطفأها في الحوض وخرج يحمِل شطيرة الجبن إلى الغرفة الأخيرة.

الغرفة كانت مُظلِمة إلا من انعكاسات أضواء السيارات على السقف، مَكتب صغير أمام دولاب متوسّط الحجم بجانبه حقيبة سفر عتيقة، وعلى اليسار مَكتبة ضَخمة تنوء رفوفها بحمل من الكتب المكدّسة بلا عناية، وفي الأرض لا مكان لقدم! الغرفة مركومة.. بالأوراق.. عدد مهول يغطّي الأرض والحوائط، أوراق مكتوبة بخط منمّق، سَوداء من تشابك الخطوط وتعقيدها، مَعرض تجريدي ثقله حبرًا!!

بجانب النافذة كان ساكنًا كصخرة، جالسًا على كرسيٍّ متحركٍ، يَرتدي بيجَاما باهتة فوقها روب كان زيتي اللون ولم يعد، ووجهه مطموس في نظارة روسية مقربة ينظر بها إلى الشارع، بَدا مُستغرقًا حتّى الثمالة، وقف «طه» دقيقة أمام الباب يتأمله قبل أن يَمد يَده إلى مفتاح النور في حركة سَمِجة ويفتحه، انتفض «حسين» وخفض رأسه: تؤ تؤ تؤ تؤ.. اطفي يا «طه».. ثم وضع النظّارة على عينيه لثوان قبل أن يبتعِد بالكرسي إلى الوراء، فإضاءة نور الغرفة تكشِفه من الخارجِ كذبابة في كوب لبن: مش هتبطّل حركاتك دي؟

- لمّا تبطّل فرجة على النسوان؟ لازِم أجوّزك.

لم يبدُ على «حسين» أثر للدعابة، اقترب بكرسيه من الحائط حيث نتيجة مُعلّقة، انتزع ورقة تَحمِل تاريخ اليوم ودسّها في جيبه، لم يكن «حسين الزهّار» سوى كهلٍ في السادسة والستين، من ذلك الطِراز الذي لا توحي ملامِحه بأنّه كان يومًا ما طِفلًا، لم يعد يحمِل شيئًا من آخر عنقود بيت أبيه، سِمنة غير مُنظمة اعترته من أثر الجلوس لسِنين طويلة بلا حراك، لا مكان للشعر الأسود في رأسه أو حواجِبه، يرتدي

نظّارة عتيقة «بُعد نظر» تضفي على عينيه جحوظ عيون السمك، فمه جاف متشقّق الشفاه وشعيرات بيضاء قصيرة تغطّي ذقنه كعشب حديقة غير مشذَّب، يتعايش مع وضعه المزري منذ زمنٍ، راضيًا أو هكذا بدا، قليل الكلام شاردًا أغلب الأوقات، استهلاكه الشهري كان الأوراق والأقلام وبعض الوجبات المتواضِعة، بجانب قضبان الكليوباترا السوبر التي يدخّنها كقطار بُخاري عتيق، بدأت تلك الحالة تدريجيًا مع انحصار الطلب عليه من طلاب المدارس، بعدما ظهر جيل جديد من المُعلمين يتنقّل بين البيوت كالنحل، خفيف الحركة يبث المعلومات الضرورية للامتحانات، أو كما يسمّيهم الطلاب «بيجيب من الآخِر».. مع خفوت اسمه وقلة الطلب عليه بدأ يتقوقع شاغلًا نفسه بالكتابة، لا يقابِل ضيوفًا أو أقرباء إلا نادِرًا، يكتب عن كل شيء يُصادِفه، شَيء أشبه بمُذكّرات، إفرازات لا إراديّة، ومُتعته الوحيدة كانت استراقَ النظر بنظّارته المُقرّبة، نافذته على الحياة وسِلوان وحدته، اعتاد على مراقبة حياة الآخرين، حفِظ عاداتهم وتقاليدهم، عِلاقاتهم وعَدد أبنائهم، مَواعيد خروجهم وأعياد ميلادِهم، يَعيش مَعهم كواحد منهم، يتابع الكبيرة والصغيرة بنهم شديد، أدمنها وباتت شغله الشاغِل، يَحكي بشغف عن حوادِث مُتفرقة يراها في الجوار وأحيانًا يصمت لأيام وربّما لأسبوع كامِل، توقّف «طه» عن محاولة إخراجه من تلك الحالة كي لا يصطدِم بحوارات لا رجاء من ورائها، يُعيد ويزيد ويَسخط ويغضب مُجترًّا ذِكرياته ثم يَهدأ ويَصمت، قرر تركه يفعل ما يشاء، لا يمنعه حتّى عن التدخين مُحاوِلًا الحِفاظ على هدوء كيمياء مُخه.

- إيه الجديد؟.. سأله «طه».

- واحد مصاحب كرسي زي ده، كُل حاجة بالنسبة له جديدة.

اقترب «طه» ووضع الطبق على رجل أبيه: طب اضرب يا باشا، بالهنا والشفا.. ثم مدّ يده إلى جيبه فأخرج علبة بسكويت صغيرة: وآدي البسكوت.

دس «حسين» البسكويت في جيب الروب وبنهم تناول الشطيرة والفتافيت تتساقط عن ذقنه حين تمتم: ديل الكلب عمره ما يتعِدِل.. ديل الكلب «سليمان»!!

لم ينتظِر «طه» تفسيرًا.. كان معتادًا على الكلمات التي تبزغ فجأة بلا مقدمات..

ركّز «طه» العدسة حيث أشار أبيه: تاني «سليمان»!! إيه الحكاية؟ أنا لغاية دلوقتي حتّى مِش فاهِم ليه عدّينا عليه الأسبوع اللي فات.. الراجِل ده أنت مش كنت حالف ما عينك تيجي في عينيه تاني أبدًا! قاطعته سنين، وفجأة عاوز أزور «سليمان»!!

- الأيام معدودة.

دكان «سليمان» كان على ناصية، مَحل تعلوه يافِطة خشبية داكنة مَكتوب عليها بخط صغير (Lord). يَجلِس تحتها «سليمان» بخَواتِم ثلاث في يمينه وشعر أبيض ناعم وبشرة حمراء ملأته وقارًا يتعالى به على الزبائن، شأنه شأن ذلك الكومبارس الذي يمثّل دور وزير في فيلم وبعد التصوير يتقاضى الثلاثين جنيهًا والوجبة ليحكي للناس بعدها أنه صرخ في «عادِل إمام».. أمام الكاميرا!!

قبل أن يصبح «لورد» من أشهر المَحال في مجاله، وقبل أن يصبح قبلة لنجوم المجتمع وروّاده، كان سوبر ماركت متواضعًا، اشتراه «سليمان» أواخِر السبعينيات بعدما اقترض نصف نقوده من «حسين الزهّار»، صديقه وجار حارة اليهود. كُل شيء سار على ما يرام حتّى منتصف الثمانينيات، وبالتحديد حين بدأت سلاسل المحلات الكبرى في الظهور، حوصِر دكّانه وسط حيتان الأغذية حتّى ضاق به الحال، كان عليه أن يتّخذ قرارًا، إما غلق المحل، أو تغيير النشاط، لم يحسم الأمر سوى صديق يعمل موظّفًا في سِفارة أفريقية، عرض عليه شراء منحة الخمور السنوية التي تتسلّمها السفارة، والتي فضّل السفير «المسلول» جني ربحها على استهلاكها في حفلات تعزيز العلاقات العامة.. اشتراها «سليمان».. واشترى غيرها.. تدريجيًا بدأت بضاعته تتبدّل، وكذلك حجم محفظته ونوعية زبائنه، أزكته براعته في قراءة الزبون، لم يكن يبيع المستورد - طبقًا لقانون (رقم ٦٣ لسنة ١٩٧٦) - إلا حين يطمئِن إن كان مِن الشُّرطة أو زبونًا عاديًّا، عيناه كافيتان لفرز الواقف أمامه، إمّا سيجد طلبه «مُشبَّرًا» على جوانِبه الثلج أو: يا باشا إحنا بنبيع ستلا.. سقّارة.. مالناش في المستورد.

في البداية نهره «حسين»، عنّفه بشدّة أسمعت الشارع، بصمت كان «سليمان» يهز رأسه تنفيضًا ويعده بالانتهاء، حتّى جاء يوم لم يتحمّل الأخير الوصاية، انفجر فيه ملوّحًا بزجاجةٍ في يده وستين من العِشرة، سكبهما أرضًا وداس بقدميه.. كان ذلك لقاءهما الأخير.. قاطعه بعدها «حسين» مكتفيًا بمراقبته من النافذة.. يشاهده ولا يكاد يصدِّق يومًا أن ذلك كان رفيق الطفولة.. مرّت الأيام عليهما في جفاء

يزداد اتساعًا.. «سليمان» نسى.. لكن «حسين» لم ينس. وامتدادًا لتجارته الرائِجة واتساع دائرة معارفه طرق مجال المُخدّرات وأصبح بسم الله ما شاء الله علمًا من أعلام الكيف في منطقة الجيزة والدقّي والمهندسين، تترَبص به الشُّرطة شفويًا، إلا أن كرمه وعطاياه ونوعية المترددين عليه دائمًا ما كانت تبقيه في الظِّل، لكن ليس بالنسبة لـ«حسين الزهّار».

تأمّل «طه» محل «لورد» لدقائق.. لم يجِد تغييرًا عما عهده من قبل، «سليمان» كان جالِسًا على مكتبه يحادِث زبونًا.. نظر لأبيه:

– مِش فاهِم!!

– ركّز..

بعد دقيقة رحل الزبون، انحنى «سليمان» تحت مَكتبه مُختفيًا لثوان ثُم اعتدل مُمسكًا بشيء لم يظهر من تلك الزاوية.

– خدت بالك؟.. سأله «حسين».

– خدت بالي من إيه بالظبط؟

تفادى «طه» قِطعة خبز تطايرت مع حرف السين من فم والده وهو يتكلّم: «سِليمان» بيخزّن المستورد تحت المكتب.

– تحت المكتب!!

– تلاجة مدفونة، أصله ما يقدرش يطلّع المستورد في العرض، شوية لمّا الجو يهدا هيبعت صَبي من صبيانه عند المرسيدس القديمة.. هي دي مخزن المخدّرات.

قالها وهو يأكُل الشطيرة ويقلِب في أوراق بجانبه كأنه يحكي قصّة لطفل.. بدا واثِقًا مما جعل «طه» يضيق عينيه في استغراب: وأنت عرفت كل ده وأنت قاعِد هِنا؟

هز «حسين» رأسه: اللي ما يعرفش يقول عدس.

– يرحمكم الله.

شرد «حسين» في الشبّاك فتشمم «طه» العاصفة القادمة، كان يعرف تلك البداية فحاول تغيير الموضوع: خدت الدوا؟

لم يجبه، استمر ينظر من النافذة متجاهلًا، فعض «طه» شفتيه: يا بابا...!!

قاطعه «حسين»: أخبارك إيه يا دكتور؟

– ماشية الحمد لله.. عايزين نتجوز.. أنا وأنت.

فلتت من «حسين» ابتسامة فأردف «طه»: عندي حتة في الشغل ترجعك عشرين سنة ورا، مدام «منال» بتاعت الحسابات، تِسعة وتلاتين سنة بس أنوثة وتتمنّى.. هتخليك زي الحصان.

– قصدك الحمار.. بلاش شغل التسويق ده عليًا.

– اسمعني بس يا حجّوج.. إحنا نبيع الشقّة للولية «ميرڤت اللي في التالت».. هتموت عليها من زمان.. ونشتري شقتين صغيرين وعفش جديد.. وبعدين أنا متأكد إنك عفريت.. الدهن في العتاقي.. وهجيبلك شوية فيتامينات بقى إيه.. نار.

قاطعه «حسين»: الست الحلوة زي البطيخة.. يا حمرا.. يا قرعة زي اللفت.

- طب والله حمرا وزي العسل.

- ولو حمرا.. مفيش بطيخة ما خبّطش عليها فكهاني.. نِسوان الأيام دي لمّا تتكسف شفايفها هي اللي بتحمر.

- ده كلام كبير أوي.. مش عايز تِفرح بيّا؟

- طوبى لمن سمع النداء ولم يلبّي.. فيه حاجة قدّامك؟

- كتير.. بس النِفس يا حجيج.

- زميلتك بتاعت الكلية؟

- لا دي خلاص بِخ.. اتجوّزِت.

- خدت الشر وراحِت.. كانت حلوة؟

- مُزّة.

- أوعى تبص للشكل.. المُهِم أخلاقها.

- يعني أتجوّز مِعزة جبلي عشان طاهرة وعفيفة.

- الراجِل ربنا خالقه ملول يا «طه»، قبل الجواز تِحلم بصوابعها، وبعد كام شهر، هتقلع ملط قدّامك وأنت بتقرا الجرنال، يمكن ما تاخدش بالك. الغربال الجديد له شدّة، بَعد كِده يرهرط، شَطارتك بعد الجواز تفضل تشوف الغربال مشدود، لأ ومُغري كمان.

- حتّى لو اتجوّزت «هيفاء وهبي»؟

- مين «هيفاء وهبي» دي؟

انتفض «طه»: شكرًا!!

أردف «حسين»: مَحدّش يقدر يعيش كُل عمره بيمثل.

دعك «طه» عينيه من تحت النظّارة: الله يطمّنك يا أبو «طه».

- الرجّالة في البلد دي دماغها خفّت، الهيافة ضاربة فيهم زي السرطان، الحياة بالنسبة لهم بقت أربع حاجات، كورة ومحمول وملي بطن والبيه اللي مخليهم عميان (أشار لما بين رجليه)، ما بالك النسوان.

- منطقي.. حساس.. وهادِف.. ثم قام وقبّل رأس أبيه: ربنا يديك الصحّة يا حجيج.

- «طه»..عايزك تاخُدني بُكرة مشوار.. فضّي لي نفسك ساعة.

- فين؟

- بُكرة أقولك.

- ماشي يا كبير.

أمسك بالقلم وبدأ يَخُط على الورق، فحمل «طه» الطبق وخرج في هدوء، في اتجاهه للمطبخ نادته نظرة شك فيما سمِع عن «سليمان»، بدون أن يترك الطبق اقترب من الشباك وأزاح الستارة برأسه وتأمل المحل، كل شيء كان كما هو قبل أن يخرج صبي «سليمان» ليعبر الشارع ماسحًا الميدان بنظره، اقترب مِن سيارة مرسيدس صفراء متهالكة موديل الشمّامة، مَركونة مُنذ وعي «طه» على الدنيا، رفع الغِطاء البالي عن قِفلِ عتيقٍ يغلق الحقيبة الخلفية!! وضع المفتاح ودس يده ثم أخرجها بشيء قبل أن يتراجع سريعًا، وضع «طه» الطبق الذي يحمله على المنضدة ورجع للشبّاك في نفس اللحظة

التي ظهرت فيها سيّارة فضيّة داكنة الزجاج، نزل منها نفس الشاب الذي جاء منذ قليل، دخل المحل، ناوله «سليمان» الكيس الأسود وصافحه بشيء كان في حقيبة المرسيدس.

خبط «طه» جبينه: يا ابن الأروبة يا حسين يا زهّار!!

غسل «طه» الأطباق وارتدى ملابس كاجوال ثقيلة تناسِب سهرة ستمتد للصباح، بطرف عين اطمأن على أبيه من فرجة الباب، كانت قد ندهته النّداهة، حُمّى الكتابة، سيظل منكفئًا لساعات طويلة يخفي ما يكتبه كتلميذ مجتهد، وقد يتنابه الهَياج ليبدأ في تمزيق أوراقه كالمجنون، قبل أن يهدأ ويعود لكتابته ونظّارته.. عالم محدود لا يخترقه سوى «طه»، صديقه الذي لا يُخفي عنه سِرًّا، حتّى أحجار التفاح على القهوة وحكايات بنات الكليّة، عدا ذلك لا تأتيه على فترات منتظِمة سوى أخته «فايقة»، فهي بمثابة أم له ولابنه، زوّجت بناتها وتعيش أرملة في حي الحسين، الوحيدة التي آثرت السّكن بجوار بيت أبيها «حنفي الزهّار»، تأتي أسبوعيًّا مُحمّلة بحلة المحشي والفرخه العتقيّة ودقيّة البامية بالليمون، تلك العجوز البشوش ذات الإيشارب الملفوف «لفّة البوّجة» تحت الذقن، بضحكتها النقية في طقم أسنانها الناصِع ونفسها الطاغي في الملوخية، كانت ساعة وجودها هي أسعد ساعات «حسين»، حين تُناديه بـ«سِحس»، يرجع طِفلًا صغيرًا يَضحك بملء فمه حتى تدمع عيناه، عدا ذلك يرتد لحالته، مُكتفيًا بنزلة شهرية لقبض المعاش أو زيارة مُملة لطبيب لن يقدّم جديدًا، حاول «طه» بشتى الطرق إخراجه من تِلك الدائرة المغلقة، إلا أنه كان مُحاصرًا مِثله، مطعونًا بنفس السكين، تجثم على رئتيه الذكريات بثقل مكواة حديدية، أفكار أشبه بأقلام رصاص

مَسنونة تطعن مُؤخرة رأسه لتنكسر بداخِلها، صَوت رتيب مُمل لا يتوقف ككيس نايلون التصق بعجلة سيارة، يثير جنونه وهو على وشك النوم يشخص ببصره في الظلام، أو يداهِمه وهو مُستند بكيعانه على ركبتيه فوق المِرحاض يتأمّل تلك الشعرة التي تتّخذ شكل وجه أو كلمة لا يفهمها، طالما ظنها رسالة من عفريت يسكُن الحمّام، أو نبوءة مِن عالم آخر، يتابع النملة التي تحاول المرور بين قدميه، تلك النملة الغلسة التي لا تعي أنه يحاول قضاء حاجته بهدوء، تضغط على مثانته الخجولة فيضطرِب نداء الطبيعة، ينتظرها تبتعد ليكمِل ما بدأ، ينفخ الهواء تجاهها ويخبط بقدميه ليرهبها، ثم ما يلبث أن يمل إصرارها فيهرِسها بطرف شبشبه الزيكو المقطوع (Made in China).. كل يوم كانت تلك الأفكار تتنازعه، يصرخ فيها فتزداد إصرارًا كذُبابة صَيف مُمِلّة، تبتعِد ثم تُهاجِم أذنيه بصوت ززززززز عنيد لا يهدأ، فيدفن نفسه في جدول عمل مزدحِم لتلهيه الحياة وتحصيل لقمة العيش عن التفكير.

* * *

الفصل الرابع

كانت الصيدلية قريبة من البيت، انتقل «طه» للعمل فيها تحسينًا لدخله، في الأيام التي يعمل فيها نهارًا فقط بالشركة، اخترق الشوارع الهادئة حتى وصل.. صيدلية د. «سامح»: إزيك يا «وائل».

ذلك كان صبي الدبلوم الرفيع ذا الشعر البانك الذي يرتدي نظارة كعب كوباية مع البلوفر غريب الأطوار والخاتم الفضي ذي الفص الأسود في خنصره.. يحفظ في العادة أسماء وأماكن الأدوية أكثر من خريج الكلية.

الصيدلية كانت من الصيدليات القليلة التي لا تزال تصنع التركيبات، فمع تطوّر الدواء وقلّة خبرة الصيادلة أصبح التركيب وجع دماغ، لذا كانت مقصدًا للباحثين عن الوصفات الخاصة، مُلحق بها غرفة صَغيرة تستعمل كمعمل. يجلس «طه» على مكتب صغير بجانب التليفون، من خلفه مُلصقات دعاية شركات الأدوية التي تصوّر أشخاصًا مصدّعين يتأوّهون من الألم، أو رجلًا سعيدًا وبجانبه حبة زرقاء وامرأة منتشية، يتلقى اتصالات طالبي الأدوية من المنزل طوال

الليل: مُسكّن «ڤولتارين»، «بنادول» للصداع، «املوديبين» للضغط، و«دايميكرون» للسكر، و«ڤياجرا» لليالي المِلاح، و«سيالبس» لإطالة الليالي الملاح إلى ست وثلاثين ساعة.. تلك كانت أكثر الطلبات مبيعًا.. ذلك بخلاف التركيبات.

مضت عشر دقائق قبل أن يرن جرس التليفون بطلب تركيبة لبخة بواسير لسيدة مُسنّة: يا حاجة فيه لبوس اسمه «بروكتوسيديل»، مفعوله سريع، وأحسن من التركيبة.

في تلك اللحظة دلفت الباب «سارة».. أبطأ الزمن قليلًا وخفتت الأصوات قبل أن تتلاشى جدران الأجزخانة.. تردّدت في رأسه أغنية «عَجبًا لغزال قتّال عجبا.. كَم بالأفكار وبقلوب لَعبا.. يَخطو بدلال فيثير»...!! مِش عارِف إيه... مُوسيقى تصويرية ألَحّت بلا استئذان لتصنع جوًّا إجباريًّا من النشوة.. لا يعرِف ما استدعى تلك الأغنية مِن الثمانينيات كجني المصباح.. برنامج الموسيقى العربية.. «رتيبة الحِفني».. أغنية «فيك عشرة كوتشينة في البلكونة».. برنامج «جولة الكاميرا».. «حديث الروح»...

لم تكن «سارة» سوى جارة عمارته وسَهلها المُمتنع، الفتاة التي تُحيط حدودها بحقل مكهرب وعلى مؤخّرتها الجذّابة جدًّا جدًّا عبارة مَمنوع الاقتراب أو التصوير، رشيقة، برونزية اللون، شفتاها مكتنزتان وعنقها طويل، عيناها واسِعتان يتواضع بجانبها بحر، وذقنها مختومة بطابع حسن رقيق.. تلك التي تختلس مَلامِحها بطرف عينيك في المصعد إعجابًا قبل أن تفتعِل حديثًا لا معنى له، صَاحبة دور البطولة في حِلم الغرق، أشهر أحلام «طه»، يبدأ الحِلم دائمًا بأحداث سريعة

أشبه بنهاية فيلم «تيتانيك»، تغرق السفينة بمن فيها جميعًا ولا يبقى إلا «طه» على لوحه الخشبي، يَسمع صوت استغاثة فيلتفِت ليجدها بالملابس الداخلية تصارع الموت - كانت قد تمزّقت ملابسها في مَشهد سَابِق أثناء الغرق - ينتشلها لتبدأ رحلة المَجهول التي تستغرق في الحلم حوالي ٥ ثوان حتّى يجِدا جزيرة.. كرتونات من الفاكِهة، ثلاجة مملوءة بعلب العصير، سَرير كبير، (I pod) مُحمّل بالأغاني، ماكينة حِلاقة و(laptop) يعملان بأشعّة الشمس، وبعض المقويات والفيتامينات.. ذلك كان كُل ما تبقّي مِن حطام السفينة، لتبدأ قِصّة الحُب في مشهد الاستحمام حين تلمح «طه» قادِمًا بعضلاته المفتولة فتقول:

-يا ابني أنا مش متعوّدة غير على التركيبة!! تلك كانت سيدة البواسير.. عاد المشهد بغتة لسرعته الطبيعية.

طلبت «سارة» صابونة دوف.. لم تطلب غيرها في كُل مرّة.. حتّى أطلق عليها «طه» دوڤي دوف.

حاول إنهاء المُكالمة مع سَيدة البواسير لكن هيهات، كانت قد بدأت تتحدّث عن الزمن الذي لم يعد زمنا، والبواسير التي لم تعد بواسير، والشرج الذي لم يعُد شرجا، وكيف أن التركيب هو أصل الطب يا جيل هفتان مخستِك لم تعيشوا الحياة كما ينبغي، لم تشربوا السمنة البلدي بالكوز، ولم تعرفوا سندوتشات المورتة ولا المفتقة، ولم تشتروا يومًا رطل اللحم بقرشين، في حين هبّ «وائِل» واقفًا كعفريت علبة حين رأى «سارة»، بربش بعينيه أكثر من مائتي مرة في الدقيقة كنوع من التسبيل قبل أن يُلقي بمِزحتين رديئتين على سبيل

الروشنة قوبلا مِنها بنفخة ملل مِن الشفاه السفلية إلى الجبهة، رفعت خصلة شعر متسللة من تحت حجابها الـ(Spanish) إلى أعلى قاصدة أن رفقًا.. انظر لنفسك في المرآة، تركت ورقة فئة العشرة جُنيهات بأصابع رقيقة، في حين أخذ «وائِل» ينتقي لها النقود الجديدة مُبتسمًا ابتسامة تِمساح أهتم قبل أن يَصرُخ «طه»: استنى يا «وائِل»! قالها ثم كتم السمّاعة بكفيه وأردف: الحاجة في البيت عاوزاك.

- الحاجّة مين؟

أرخى «طه» عينيه وبيقين داخلي أجاب: أمّك.. ثم همس: صُوتها تعبان مِش عاجبني.. التقط «وائِل» السمّاعة بقلق حين اقترب «طه» من «سارة»: أستأذنك أشوف إنتي خدتي إيه؟

باستغراب أخرجت الصابونة وناولتها له: فيه حاجة!!

لم يجبها.. قلّبها في يديه ثم ابتسم: الحمد لله.

سألته: فيه إيه؟

اقترب مِنها مخفضًا صوته: مِش كُل الناس بتاخُد بالها.. الصابونة دي مَعمولة بدهن الخنزير.

ضيقت حواجبها: دِهن الخنزير..!!

طبعًا.. قالها وغاب في الداخِل ثم عاد يحمِل علبة أخرى: اتفضّلي.

قلّبتها في يديها: بس أنا مِش شايفة فرق.

بثقة: دي حاجات يعرفها الصيادلة اللي زيّنا بس.

في تِلك اللحظة أنهى «وائِل» المكالمة: يا دكتور دي مِش الحاجَة!!

جز «طه» على أسنانه: هي الحاجة يا «وائِل» بس أنت مِش واخِد بالك.

استشفّت ما يحدث فابتسمت نِصف ابتسامة وهمّت بالرحيل حين استوقفها: ثانية واحدة.. التف حول المكتب وناولها ورقة دعاية: ده عرض جديد على الشامبوهات.. رمقته بحدّة ثم أخذت الورقة حين أردف: فيه كمان كريمات...

قاطعته: أنت ساكِن في الدور التاني؟

- إيه ده.. إنتي ساكنة في نفس العمارة.. وأنا بشبّه!!

- أنت اللي بتعزِف «درامز» طول الليل؟

هرش رأسه: يعني.. ساعات.

اقتربت هامِسة: على فِكرة.. عزفك وِحش.

ألقتها ورحلت.. بدا لباسا مقطوعا ماركة الإمبراطور.. وقف ثوان يتأملها قبل أن يلتفت لـ«وائِل» الذي استرَق السمع: مِش لمّا ييجي زبون تبقى تسألني يا «وائِل»؟

- يا دكتور دي كانت عايزة صابونة!!

- برضه.. يمكن بشرتها ما تمشيش مع الصابونة دي.. والا تكون مش فاهمة في الصابون أصلًا.

- يا دكتور..!!

قاطعه «طه»: هتاخُد لبوس والا أعمِلّك لبخة البواسير؟

- أنا!!

- يا ابني مِش أنت.. الحاجَة اللي كانت على التليفون.

- لبخة.

ترك «وائِل» ودخل المعمل، أخذت نبضات قلبه تهدأ تدريجيًا بعد ارتفاع، في كُل مرّة كان يُحاول فتح ثغرة في جدران قلعتها، لكنّها سرعان ما ترحل كما تجيء، تِلك المرّة ردّت بصفعة وتركت رائِحة عِطر سيظل في أنفه حتّى صدفة أخرى.

مَضت الساعات ثقيلة حتى قاربت الثالثة إلا الربع حين دخل شيء: زامو عليكو.

ذلك كان «السيرفيس».

يعرِف «طه» تِلك الأشكال، تأتي كالحشرات حول الضوء طلبًا للدفء، أوصّاه صاحب الصيدلية على تطهيرها من تلك الآفات أثناء نوبته: سلام ورحمة الله.

بجسد مكدّس بالعضلات ووجه تملؤه حُفر كثقوب النيازِك: شِريت «تِرامَادول» وشِريت «أبيتريل».. هو فين غالِد؟

تشمم «طه» الرائحة التي يعرفها جيدًا فقام من مَكانه مواجهًا ذلك الديناصور الذي فاته الانقراض: «خالد» مِش هِنا.

- هييجي أمتى؟

- مِش جاي تاني.. سَاب الصيدلية.. مِشي خالِص.

هرش «السيرفيس» أنفه التي تقطعها ضربة مطواة بالعرض واقترب يهمس: طب هو مش مِرسّيك على الليلة؟ التركيبة؟

– معاك روشتّة؟

ابتسم «السيرفيس» في استخفاف: روشتّة إيه يا زميلي؟ أنت جديد هنا؟

في تلك اللحظة غمز «وائل» عينيه بإشارة أقرب لالتهاب في حدقة العين أو شلل رعاش في بداية مراحل المرض قاصِدًا أن يقول: مشّيها.. ده مُدمن..!!

رجع «طه» إلى كرسيه: اتكل على الله.

– ما تجيب يا عم الشريت والتركيبة، هو أنا مش هدفع فلوس؟

– تعال بكرة الصبح لصاحب الأجزخانة.

– بُكرة إيه يا عم الريِّس؟ أنا عايز الحاجة وقتي.. الله.. والتفت لـ«وائِل»: فين خالد يا جدع أنت؟

اضطرب «وَائِل» وقام من مَكانه فصاح «طه»: أقعد يا «وائِل».

– هي جابت كِده.

– ما اقدرش أطلعلك حاجة، شوف صيدلية تانية.

– أنا مش رايِح في حتة، وتصدّق بقه كده مش حلو، أنت كده طيّرت الدماغ على فكرة.

قالها وأخذ يعبث في محتويات حامِل صغير يحمِل عُبوات دَواء، حاول «طه» سَحبه من بين يديه فقبض «السيرفيس» على معصمه بكف ينقص سبابته عقلتين: أنت مش عايز تاكل عيش؟

حاول «طه» أن يفلت يده: لو ما مشيتش من هنا هحبسك.

– تِحبس مين يا برنز، أنت ما تعرفش أنا مين؟

أفلت «طه» معصَمه بَعد عناء: لأ ما اعرفش، ومش عايز أعرف.. ثم استجمع ما تبقّى من شجاعة: يلله يالا من هنا.

– يالا؟ يا نهار إسود.

في تلك اللحظة قفز «وائِل» أمام «طه»: صلّوا على النبي يا جماعة.

طقطق «السيرفيس» فقرات رقبته العريضة: ماشي.. بَس على فكرة يا باچمهندِس أنت كده اتعلّم عليك.. «السيرفيس» ما بيتعملش معاه كده.

– دايمًا فيه أول مرّة.. وعلى فكرة أنا مش باشمهندس.

رَماه «السيرفيس» بنظرة لا حياة فيها ثم خرج بعد ما أسقط الميزان برفسة عدائية.

التفت «طه» لـ«وائِل»: إيه الحيوان ده؟

صحح «وائِل» وضع الميزان: سيبك منه يا دكتور.

– الواد ده متعوّد يجي هنا على طول؟

– «خالد» كان بيبيع له الأدوية الجدول بالضِعف، لغاية ما الحكاية اتشمّت ودكتور «سامح» عرِف ومشّاه.

– وإيه حكاية التركيبة دي؟

- دي تركيبة مخصوص كان بيعملها له «خالِد»، حاجة تعمل دماغ.

- فيه عيانين ما بيلاقوش الدوا عشان ولاد الحرام دول.. مين بقه الجزمة اللي جه ده؟!!

- الواد ده اسمه «عادل».. مَحدّش يعرف جه مِنين.. بيقولوا قتل عشر تنفار قبل كده والتهمة ما لبستهوش، قعدته عند «سليمان اللورد»، وبيقولوا إن هو اللي بيسلّك له البضاعة.

- أنت كمان عارِف موضوع «سليمان»؟!

- طبعًا يا دكتور.. بثقة أجاب «وائِل».

- طب ولمّا هو شغّال مع «سليمان».. محتاج التركيبة في إيه؟

- لزوم السرير.. أصل المُخدّر والخمرة يعمِلوا دماغ.. بس بيتيموا كُل حاجة.. الكيميا هي اللي بتصحّي.

- وإيه كمان؟! ده أنت طلعت مصيبة.

- بلاش.. تعرف «محروس برجاس» بجلالة قدره، ندهه لمّا كان داخل الانتخابات، عشان كِده بيسمّوه «السيرفيس»، يسلّك القرد، وبيعتبر نفسه فتوة المنطقة.. والظبّاط يعملوا له ألف حساب، يسلّمهم ظبطية، يجيب لهم عيل قلق، آه والله بيحصل بحق وحقيق، زي فيلم «الجزيرة» بتاع «السقّا». الواد ده حملة لوحده، بصراحة د.«خالد» كان معذور، الراجِل هيعمِل إيه وسط عالم زي دي؟ ما تآخذنيش يا دكتور أنتو يا دكاترة عالم (Streeeeet) مالكمش في اللف والدوران.. وبعدين...

في تلك اللحظة ارتجت الصيدلية بدوي شديد حين تحطّم زجاجها وتناثر في شظايا صغيرة بعدما اخترقته طوبة من الشارِع لتستقِر تحت مكتب «طه» الذي انحنى في ردّة فِعل لا إرادية.

صرخ «وائِل»: شُفت يا دكتور.. شُفت.. والكعبة الشريفة لسّه هقولك.

هرع «طه» خارِج الصيدلية مُحاولًا رؤية الفاعل، على ناصية قريبة كان «السيرفيس» يُدخن سيجارته في هدوء، رفع يده في تحية وهز رأسه مُبتسمًا قبل أن ينحرف إلى احدى الشوارِع، دلّك «طه» جبهته كمن يستخرج عفريتًا من قمقم ثم مدّ يده إلى النوكيا الراقد في جيبه وطلب صَاحِب الصيدلية شارحًا له ما حدث ثم وجّه كلامه لـ«وائِل»: سِيب كُل حاجة زي ما هي، أنا رايح القسم، هعمِل مَحضر للحيوان ده.. ترك «وائل» ما في يده واستوقف «طه»: محضر إيه يا دكتور مفيش داعي، «السيرفيس» فتح مطوة على «خالِد» قدّامي.. المثل بيقول إن جالك الطوفان..

أفاق «طه» من شُخوصه في الزجاج المتناثر فقاطعه: الكلام اللي أنت بتقوله ده ما ينفعش.

- دكتور.. يا دكتور.

أسرِع «طه» إلى قسم الدقّي، وحرّر محضرًا بالحادث، صاحبه بعدها أمين شرطة وملازِم يكرهان أنفسهم والحياة ومن فيها، وعلى رأسها «طه» الذي أجبرهما على النزول في تلك الليلة الباردة للإبلاغ عن طوبة كسرت زجاج.. فتحا المحضر بسؤال «طه»: وأنت إيش عرّفك إن «السيرفيس» هو اللي حدفها؟ ما يمكِن عيّل ابن (...) بيهزّر،

وبعدين احمد ربنا إنه ما شرطكش، إيه يعني شاط الميزان؟ عامة هنسأله.. شُكرًا على الشاي استكملوا إغلاق المحضر بفتور «مَدام عفاف موظفة شهر عقاري القصر العيني» قبل أن يرحلا في عُجالة.

في البيت لم يتسلل النوم لـ«طه».. ظل مُستلقيًا في سريره يتراقص أمامه ذلك الوجه المحفور.. يتعارك معه.. خلع نظّارته ورماها جانبًا.. سَدد له اللكمات وكسّر الصيدلية على رأسه المبعجرة.. ثم أخرج حقنة ورشقها في مؤخّرته.. انتقم منه شر انتقام قبل أن يَهزمه النوم.

في الثالثة من بعد الظهر استيقظ، أربعة ساعات كانت كافية للحصول على تكسير عظام المثالي، التقط في طريقه للحمام كتابا، تِلك الهواية التي لم يفلح في اعتزالها أبدًا من «المغامرين الخمسة» مُرورًا بالراكِل لأربعة في آن واحِد «رجل المستحيل» وحتى «ما وراء الطبيعة»، جلس على قاعدة التواليت لنصف ساعة ثم قام ليحتضن سطل النِسكافيه المُعتاد مُدفئًا به راحته أمام الشباك شاخصًا ببصره في الميدان، كانت تلك طريقته المعتادة في هضم الأحداث، اعتادها منذ بدأت مشاكِل والديه، يبات ليلته في تذكُّر ما حدث، باكيًا شاكيًا مبربرًا على مخدّته لينام بعدها نومًا عميقًا لا قرار له، يتخلله حلم مُعقد التفاصيل لا يحاول تفسيره قبل أن يقوم غارقًا في عرقه، متناسيًا ما حدث كأن لم يكن، فرغم أن المُشادة مع «السيرفيس» كانت عنيفة، إلا أنه بشكل ما شعر بانتصار حين منع عنه طلبه وقال له «يلله يالا».. يا لها من كلمة قاسية.. لأ جامِد جامِد الصراحة.

هكذا قال لنفسه في المرآة قبل أن يفرغ ما تبقى من همّه في غسل بعض الأطباق ثم جمّع مَلابسه ومَلابس والده وقذفها في الغسالة الأوتوماتيكية المتهالكة حين: طاههههههه..

ذلك كان نداء الشاي: حااااااضِرررررر.

فتح «طه» الباب، كان أبيه في ركن من الغرفة لا تصِله تلك الشفرة الشمسية المارة من الشباك، يتحاشاها كمصّاص دِماء أصيل: صَباح الفل يا أبو «طه».. أنزل أشوف فِطار؟

- إيه اللي أخّرك النهارده؟

- اسكت يا حجيج، دي كانت ليلة سودة، جالي في الصيدلية واد سوابق هِلف، عايز برشام فاكرني ببيع، أصل «خالد» اللي كان ماسِك قبلي كان فاتحها على البحري، وإحنا اللي بنلِم الخره وراه دلوقت، واد اسمه «السيرفيس»، إنّما إيه، هزّأت أمّه وطردته، تخيّل عمل إيه؟ حدف طوبة دغدغ الإزاز، بس عملت له محضر و...

قاطعه «حسين»: ليه يا «طه»؟ ليييه؟

- كنت عايزني أعمِل إيه؟ أتخانِق أحسن؟

اقترب من «طه» بكرسيه: هيحطّك في دماغه.. يا «طه» في البلد دي المحضر مش هينفعك.. القانون ما بيحميش حد.. ما بيحميش غير الكبير.. اللي ليه ضهر وبس.. الظابط موظف زي أي موظّف.. كُل همُّه يرضي اللي فوقيه.. لو واحد زي «السيرفيس» قطّعك مش هيعمِلوا له حاجة.. كانوا عملوا لغيرك من زمان.

- أنت تعرفه؟

- أيوه أعرفه.. مش لاقي غير ده تتخانِق معاه، لو جِه تاني هاوده، عشان خاطر أبوك، علامة في وشك هتضيع عُمرك، مَحدش هَيرضى

يشغَلك، أديك شايفني أهه ومن غير خِناق، الدنيا مظاهر يا «طه»، اوعدني يا ابني، ما تخلينيش قاعد على أعصابي.

أراد «طه» تغيير الموضوع: هتاكُل إيه؟

- اوعدني الأول.

- خلاص.. حاضر.. أجيبلك إيه؟

- لأ، خلاص أنا مش جعان، خدني المشوار اللي قلت لك عليه امبارح.

- أوعى يكون «سليمان» بتاع البيرة تاني؟

- لأ.. عايز أتمشّى شوية.. وأعدّي على «مَحروس برجاس».

رفع «طه» حاجبه في دهشة: «مَحروس برجاس»؟!!

* * *

الفصل الخامس

من لا يعرف «برجاس»!!

لم تكن البداية في السبعينيات ببورسعيد وقت خبأ المصريون فيديوهاتهم بين البطاطين ولبسوا ثلاثة بنطلونات فوق بعضها هربًا من الجمارك.. كانت قبل ذلك بثلاثة عقود.

سنة ١٩٤٧ ظهر ذلك الخبر في الجرائد: أنعم أمس حَضرة صاحِب الجلالة الملك «فاروق» الأول برتبة الباشوية على صاحب العزّة «عبد الحكم بك بِرجَاس» عين أعيان بورسعيد وألبسه تشريفًا يليق بما قدّمه لدولة جلالته من خدمات، وقد حَضر التكريم كل مِن الفريق «حيدر باشا» وزير الدفاع الوطني و«إبراهيم باشا عبد الهادي» رئيس الديوان الملكي...

١٤ مايو١٩٤٨ - أقيم أمس حفل سَاهِر بالسفارة الإنجليزية حضره لفيف من أصحاب المعالي والسعادة والسمو على شرف سير «رونالد كامبل» سفير المملكة المتحدة بمناسبة إنهاء الانتداب البريطاني أمس على فلسطين.. وكان على رأس المدعوين سعادة «حمدي باشا أبو العلا» وسعادة «عبد الحكم باشا برجاس» و...

٦ مايو ١٩٥١ – وصلت التهاني من جميع دول العالم وقدّم الملوك والرؤساء وأصحاب السعادة والمعالي الهدايا في يوم زفاف جلالته.. ومن أهم الهدايا التي اشترك فيها أبناء الأسرة المالكة صينية وكوبين من الذهب الخالص.. وقد طُرزت أطراف الصينية بالألماس ونُقش في وسطها التاج الملكي واسم الملك.. أيضًا من الهدايا القيمة صندوق من الأبنوس مرصع بالذهب أهداه سعادة «عبد الحكم باشا برجاس» بمناسبة الزفاف السعيد.

أغسطس ١٩٥٢ – مقال إعلاني مدفوع: حررتنا من الخنوع والذل وآمنا بك مُصلحًا لمصر ونذيرًا لأعدائها.. «عبد الحكم برجاس» وشُركاه يُهنئون اللّواء أ.ح «محمّد نجيب» قائد الحَركة المباركة، داعين له الله بثبات الإرادة وقوة العزيمة، ومن خلفهم أبناء الوطن تناصره للقضاء على قوات الاحتلال في كل البقاع.

٢٠ يوليو ١٩٦١ – صُدور قانون التأميم.

٢٨ يوليو ١٩٦١ – ومن الشركات التي لن يطبق عليها قانون التأميم رقم ١١٧ لعدم استيفاء الشروط: شركة «موبيل أويل».. شركة «إسّو».. شركات «عبد الحكم برجاس»...

٦ ديسمبر ١٩٦٣ – نعي بجريدة الأهرام: ... وقد أوفد الرئيس «جمال عبد الناصر» السيد «حسين الشافعي» لتقديم واجِب العزاء في وفاة المغفور له «عبد الحكم برجاس»... وكان في الاستقبال «مَحروس عبد الحكم» نجل المرحوم.

أغسطس ١٩٦٧ – رصد السيد «محروس عبد الحكم برجاس» مبلغ ١٠٠ ألف جنيه مساعدة منه في بناء القوات المسلحة...

أكتوبر ١٩٦٨ – اجتمعت أمس اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي، برئاسة السيد الرئيس «جمال عبد الناصر»، تناولت اللجنة السياسة الداخلية والخارجية وناقشت خطة التنمية و... كان في الحضور السيد «سيد مرعى» والسيد «شعراوي محمد جمعة» والسيد «محروس عبد الحكم برجاس» والسيد...

٢١ مايو ١٩٧١ – ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾... بإحساسكم التلقائي المُستمد من إحساس شعبنا الذي لا يمكن أن يخطئ أبدًا، صححتم ما كان الزعيم الراحِل مُصرًّا أن يصححه وأزلتم بؤر الفساد.. مجموعة «برجاس» للمقاولات تهنيء الرئيس المؤمن «محمد أنور السادات» بثورة مايو.. ثورة الإصلاح والعدل والتنوير...

فبراير ١٩٧٩ – فوز مَجموعة «برجاس» بمناقصة وزارة التموين لتوريد بعض السلع الأساسية وذلك بمواصفات قياسية.

أغسطس ١٩٨٢ – بَراءة شركة «محروس بِرجَاس» من تهمة توريد الأغذية الفاسدة لوزارة التموين.

يونيو ١٩٨٩: شركة (MHB) «محروس برجاس» للإنشاء والتعمير تعلن عن البدء في تشييد مجموعة مساكن للشباب محدود الدخل بمنطقة (...).

نوفمبر ١٩٩٢: عيوب فنية خطيرة وراء انهيار مساكن الشباب محدود الدخل التابعة للدولة أمام زلزال الشهر الماضي.

نوفمبر ٢٠٠٢: أقيم أمس حفل افتتاح شركة (HB FILM) للإنتاج السينمائي بفندق «فور سيزونس» وقد حضر الحفل الذي أقامه «هاني محروس برجاس» رئيس الشركة جمع من الفنّانين والفنّانات على رأسهم الفنانة اللبنانية...

مايو ٢٠٠٤ – وفاة غامضة في منزل «هاني مَحروس برجاس».. الشاب صديق شخصي لـ«هاني برجاس»، سقط من شرفة المنزل في ظروف غامِضة...

أغسطس ٢٠٠٥ – براءة «هاني مَحروس برجاس» في قضية القتل...

أغسطس ٢٠٠٧ – جريدة مستقلّة: مَجموعة «برجاس» تغرق الأسواق بسبعة عشر طنًّا من اللانشون غير الصَّالح للاستخدام الآدمي... الشحنة دخلت على أنّها علف للدجاج ورفضها المَعمل المركزي لتحليل متبقيات المبيدات بوزارة الزراعة بتاريخ ١٩ يوليو لأنها تحتوي على «دايوكسينات» ثم تم الإفراج عنها في ١٣ أغسطس بلا سبب واضح!!

٨ سبتمبر ٢٠٠٧ – على لسان أحد المسئولين: قرار مثل قرار منع سفر «محروس برجاس» يأخُذ وقتًا ليصدر...

١١ سبتمبر ٢٠٠٧ – «مَحروس برجاس» من لندن: للقضاء الكلمة الأخيرة وحسبي الله ونعم الوكيل...

أكتوبر ٢٠٠٧ – مقال بجريدة الجيل الحُر للصَّحفي «علاء جمعة»: «محروس برجاس» كان ينهي أوراق سِلعه المستوردة بيد سخية

قد تقنع رجال التفتيش والحجر الصحّي بالموافقة على إدخال غوّاصة نووية تسرّب مادة فسفورية خضراء بلا أوراق!! حتّى أوائل الثمانينيات حين تبخّر بعد فضائح السّلع الفاسدة كبقايا كحول في زجاجة مَكشوفة بَعد أن زالت رائِحة القضية من الأنوف ليبدأ نشاطه في القاهِرة... كما أفاد المصدر عن وجود شخصية سياسية رفيعة المستوى شريكة في صفقات الاستيراد...

نوفمبر ٢٠٠٧ – خبر بجريدة الجيل الحُر: وفاة الصحفي «علاء جمعة» صاحب قضية «برجاس» وقضية «بار فيرتيجو» في شقته بحدائِق حِلوان إثر انفجار أنبوبة بوتاجاز...

مايو ٢٠٠٨ – أعلنت محكمة الجيزة الابتدائية براءة «مَحروس برجاس»!!

نوفمبر ٢٠٠٨ – وعن دائرة الدقّي فاز السيد «مَحروس برجاس» وعن دائرة مصر الجديدة فاز...!!!

* * *

حين بدأت أيدي الترميم تمتد للڤيلا المهجورة بدأت الناس تتساءل، عن ذلك البناء الذي نسوا متى بُني، لم يتذكّر تاريخه سوى بواب تخطّاه الزمن، قال أنه كان ملكًا لأحد الباشوات حتّى منتصف الخمسينيات، قبل أن ينتحر! وأغلق من بعده..

بعد أسبوعين علت الأسوار والتحم الشجر قهرًا لأعينهم، تطل من بين أغصانه كاميرات مراقبة حديثة تعبث برأسها في كُل اتجاه، لم يفلح أحد في تجاوز الباب حتى بالنظر، ولا حتّى «حسين» بنظّارته

الكاشفة. تردّدت الأقاويل حول صاحب الفيلا، هُناك من قال إنها لحوتٍ يكره الأضواء، ومِنهُم من قال إنها لسياسي سيكون ذو شأن في المستقبل، وقال البعض بصوت خافِت مُخابراااااات، وتولى «منصور» البوّاب نشر تصريح مفاده: عليّا الطلاج الساكِن إهنه ده «بن لادن»، هرّبوه من أفزغنستان عشان لمريكان وِلاد الـ(...) مايطولوهوش.

وبعدها بأيام صرّح: يِحرم عليّا أم العيال «صدّام إحسين» ما اتشنجش، لمحته وهو خارج، ورِكب التومبيل جودّامي.

لم تستمِر التكهنات كثيرًا فمع اقتراب الانتخابات أفصح الساكِن الجديد عن هويته، لم يكن سوى «مَحروس برجاس»، غزت صوره الشوارِع والميادين حشوًا لوسادة مِقعد المجلس، أطلق يد حملته الانتخابية مستعينًا بـ«السيرفيس» ليسحق بلطجية منافسه في معركة بالسّنج حتّى أصبح «ابنًا للدايرة» برصيد ثمانية عشر ألف صوت.. مع أن الأصوات المسجّلة في الدائِرة الانتخابية كانت خمسة عشر ألفًا!!

مثّل نجاح «مَحروس برجاس» تضافر وتآلف رأس المال مع قوة الشعب الحر المتمثلة في «السيرفيس»، على أساس إننا في المكان ده كلنا.. أخوات وأهل في بعضنا.. عشرة وبقالنا كام سنة.. وهدفنا نعلي باسمنا..أاااااا...

كان ذلك كله يمثل مادة خصبة لمن أقعدته الصدمات وأتت على العفشة والموتور فأصبح التطلّع إلى النوافذ عُنصر جذب أخرج من أجله نظّارته المعظّمة التي اشتراها شأن كُل من سافر بلاد برّه مع المروحة والتسجيل، وأخذ يسترِق النظر، يتحيّن، يَسمع

الهسيس فيرفعها لعينيه، يتلصص من بين أفرع الأشجار التي لا تُضفي خصوصية كامِلة، تتسلل إليه الأخبار من بين الأغصان المفتوحة تسلّل المياه مِن اليد، تلك كانت أفيونته بعد السقوط، عدا ذلك يجتر ذكريات الحرب، يصبّ في أذن «طه» الحكايات تكرارًا حتّى يلهث، يحكي عن زمن كان فيه مدرسًا، حين سقط في المستشفى، حين شهد تحوّل الأجيال إلى شياطين، حين سخروا منه وصنعوا القراطيس والطائِرات من أوراقه وماطلوه في الأجر، حين عبثوا بضعفه وبتاريخه، حين رحلت «ناهِد»، حين تناثر الشعر الأبيض في رأسه كالطاعون وبدأت يداه ترتعِشان وخطّه ينزِل ليشرب من البحر، يصرخ ويهتز، يكاد يقوم من كرسيه غضبًا، يلعن استحمامه الذي بات أرقًا، وتلك القسطرة البلاستيكية اللزِجة الملاصقة له كتوءم سيامي التي لا يدرك تبوّله إلا حين يشعر بسخونتها، يلعن نفسه وتصنّعه الحياة رغم موته تقسيطًا منذ ثمانية عشر عامًا، ثم يصمت، يصمت كأنما الكهرباء قطعت عنه، يلملم أوراقه ويدفنها تحت كرسيه كمن يدفن عارًا لحِق به، وأحيانًا يلصِقها على الحائط بزهو شاعِر في سوق «عكاظ»، يَحرص «طه» يوميًّا على تمويله بالجرائِد التي يُقبل عليها إقبال تائِه في صحراء، سبعة جرائِد بالتمام، لا يقبل نقصان واحدة، يقرؤها ثم يُمسك بمقص ليستأصل مقاطِع ويضعها في كشاكيل، يكدّسها بعد ذلك في الدولاب بين ملابسه، وأحيانًا في الجيوب! بات يخفي أكثر ممّا يفصِح، ينام وهو جالِس وكأن عليه ذنب لم يُكفّره، يلين مع «طه» أحيانًا وينهره أحيانًا أخرى، قالت له عمّته «فايقة» يومًا: اللي شافه كتير يا ابني محدِّش يستحمله، أمّك الله يكحِمها مطرح ما راحت جريت على نفسها، «الريان» كمان والنكسة، أبوك ده جمل يا «طه»، والجمل لمّا بيقع بيقع مرّة واحدة.

كان كُل همّ «حسين» أن يواصل «طه» النجاح، سقاه تاريخًا كما لم يسق أحدًا من قبل، دفعه في الكلية دفعًا حتى تخرّج، وسَعِد سعادةَ لا توصف حين عمِل في شركة الأدوية، إلا أنه ينتكس حين يتذكّر أن «طه» لن يظل ذلك الولد الصغير، سيكبر ويطلب الكمال، شريكةً لحياته، وستنتزعه كما انتزعت «ناهِد» أعمدة البيت، لماذا يكبر هؤلاء الشياطين؟ كلما مر به ذلك الخاطِر ارتعدت أطرافه العامِلة وانحنى فوق أوراقه وقلمه.

كانت الساعة قد تعدّت السادسة مَساءً حين كرّر «حسين» نداءه، نشر «طه» الملابس وكوى لأبيه بذلة عتيقة ألح على ارتدائها، حين دلف الغرفة كان أبيه قرب شباكه في مواجهة ذلك الكيان الأسود الرابض على الإطار بمخلبيه القاسيين ومنقاره الحاد، يلتقط شيئًا من كف أبيه المبسوطة وحدقتاه المعتمتان تمسح المكان حوله في حركات رأس قافزة، حين شعر بحركة «طه» قرب الباب انزعج ففرد جناحيه العريضين وأصدر غواقًا عاليًا قبل أن يطير مبتعدًا، التفت «حسين» فوجد «طه» قرب الباب: أنا أعرف الناس تربّي سمك، عصافير، زعلِفة كِده صغنّونة، لبلابة، لكن غراب!! صعبة شوية.

نفض «حسين» بقايا بسكويت كانت في كفه: تعرف إن الغراب هو الكائِن الوحيد اللي بيدفن الموتى.

– وده يخليه في مقام الكناريا مثلًا!! يا حجيج ده شكله يرعب الفيل.. وسواد ابن كلب.. لأ وبيخاف منّي!!

– لولاه كان البشر عفّنوا أكتر ما همّا معفّنين.

– ليه يا ريّس.. فين مزيل العرق! وبعدين ما الهِند أهم عايشين زي الفل.. مات.. ولّع.. احرق.

ابتسم «حسين» نصف ابتسامة: طب يلله عشان ننزل.

ثبّت «طه» القسطرة أسفل الكرسي مُواريًا إياها بعباءة، رفع أبيه للمصعد ونزلا إلى الشارِع حين سأله: ما قولتليش عايز إيه من «برجاس»؟ أنت تِعرفه أصلًا؟

– أعرفه من زمان.

– أزاي يعني؟

– أعرفه من الجرايد، مِتابعه يوم بيوم، لغاية فضيحته الأخرانيّة.

– أنت متخيل أنك هتِعرف تقابله؟

– هقابله.

– عاوز مِنّه إيه؟

– بعدين هتِعرف.

– هو صحيح ابنه...؟

– أيوه.

كالعادة توقّف «طه» عن مجادلته، قال قريب له مرّة: أبوك عنده رُبع ضارِب يا «طه».

لم يسامِحه على الكلمة، فرغم الحالة الصحية كان يسمع نبضًا في ذِهن أبيه.. فقط يقلقه تلك الزيارات المبهمة التي بدأ يطلبها.. منذ شهر «سليمان اللورد» صديق العمر الذي قاطعه سنين.. ومن قَبله «موسى عطية» المحامي الذي رحل عن الدنيا منذ شهرين... والآن «مَحروس برجاس»..!!

بالقرب من ناصية الميدان مرّت بجانبهما سيّارة دورية راكبة تصحبها سلامات منبعها حنجرة خربة: نوّرتوا يا بهوات.. ما شربتوش شاي.

ميّز «طه» الصوت، صوت «السيرفيس»، لم يكن أمامه فرصة للتراجع، دفع الكرسي المتحرّك ليقابله وجهًا لوجه، خفق قلبه لثوان واضطربت أنفاسه فمدّ خطوته متجنبًا لقاء الأعين، حتّى خانه الفضول، كان «السيرفيس» بالفعل يثقبه بعينيه، يحكّ ذقنه بطرف إبهامه مواربًا فاه ضاغطًا بلسانه كُرة من التوعّد في خدّه الأيسر، ونظرة كافية ليدرك «طه» فداحة شكواه الشُرطة، وقبل أن يبتعِد ضم «السيرفيس» قبضته وهزّ رسغه أفقيًا في إشارة إباحية يعرِفها معظم الشباب، إشارة معناها أن المحادثة لم تنته بعد.

لم يرد لفت انتباه أبيه فمدّ خطواته حثيثًا في اتجاه الفيلا.. أمام الباب الكبير ضغط «طه» بدالًا أسفل الكرسي المتحرك لتثبيت العجلات، بوابة هائلة من الحديد المشغول مُطعمة بزجاج أخفى ما وراءها، يُحيطها كشافين على شكل أيدي نحاسية تمسك بشعلة، مثبتان في سُور أبيض عالي من الحجر تطل مِن فوقه الأشجار، تحركت كاميرا مُراقبة أفقيًا في اتجاههما:

- بابا.. مش ناوي تفهّمني الليلة الأول.

- بعدين يا «طه».

ثوان بطيئة مرّت والكاميرا ترمقهما قبل أن ينفتح الباب في فرجة صغيرة كافية لخروج ما بَدا خادمًا في بذلته ذات الزر الواحِد، اقترب

منهما بصلعة سمراء: خير يا بهوات.. همّ «طه» بارتجال رد حين أخرج أبوه ظرف صَغير من جيب البذلة وناوله إيّاه: من فضلك.. «مَحروس بيه برجاس»...

بدون أن يلتقط الخادم الظرف: الطلبات بتروح المكتب في ٣٣ شارع...

أجابه «حسين» في حدة: حد قال لك إن ده طلب؟ خُش اديله ده، وقول له «حسين الزهّار» برّه.. إحنا معرفة قديمة.

بدا وكيل أوّل وزارة المالية حين نهره.. وللغرابة انسحب الأخير بعين جاحظة كمن نُوّم مغناطيسيًا: لحظة واحدة.

انحنى «طه» على أبيه: إيه يا معلّم دخلة «استيفان روستي» دي؟ مش تفطّمني بقى الليلة إيه!

خمس دقائِق مرّت حاول «طه» خلالها نيل معلومة لكنه لم يفلح قبل أن ينفتح الباب ثانيًا عن نفس الرجُل: اتفضلوا.

تقدّمهم الرجل حتّى عبرا البوّابة، مَشيا خطوات قليلة في الحديقة الوارفة قبل أن يدلفا من باب خشبي كبير إلى بهو واسِع مَكسو بالرخام الأسود، تدلّت فيه نجفة عظيمة متشعبة أنارت جُدران مَصقولة ولوحات كبيرة وكراس تستحِق متحفًا باريسيًا: دقيقة واحدة.. تركهما خلفه واختفى.

انحنى «طه» على أبيه: تحب الغموض أنت يا حجيج!!

لم يجبه «حسين».. كان يبدو جادًا إلى أقصى حد.

صاح «طه» فجأة: أوعى تكون عايز تشتكي له عشان موضوع لبارح، الطوبة و«السيرفيس» وكِده؟

- لأ يا «طه».

- إيه؟ موضوع الريّان تاني؟

قبل أن يرد أبوه برزت لهم فتاة تكفي ساقاها لفض نزاع دارفور: «محروس» بيه هيقابل حَضرتك دلوقتي يا حاج.. حضرتك معرفة شخصية؟

- أيوه

مشيا وراء شذا عِطرها حتّى المِصعد الذي حملهم للدور الثاني حيث حُجرة بابها جرّار، مَدّت يدها وفرجت الباب، بالداخِل كان «محروس برجاس» على مكتبه يُجري مُكالمة، وَسيمًا رغم سنّه المتقدّمة وتلك الأكياس التي نبتت تحت عينيه من أثر سهر متواصِل، يلبس بذلة وقميصا بدون كرافتة ويدخّن سيجارًا قارب الانتهاء، كان مكتبه فخمًا: تلفزيون كبير معلّق قرب السقف، وكراسي جلد مريحة، صورة كبيرة يخطب أمام ميكروفون رفيع وخلفه نسر ينظر يمنًا، وصورة أخرى مع ابنه «هاني»، وصورة ثالثة منحنيًا يُسلِّم على شخصية سياسية شهيرة، كانت الإضاءة خافتة، وبَصيص متقطِّع يأتي من بين الستائِر فوق الشبّاك الذي يطل على شقّة «حسين الزهّار»، حين دخلا وضع السمّاعة، رمقهما بنظرة متفحصة قبل أن يشير: اتفضل.

قالها متكاسِلًا مادًّا طرف يده مبتسمًا بود مصطنع: ما اتعرّفتش.

- «حسين الزهّار».. جارك في العمارة اللي قُدّامك.. قالها «حسين» ثم التفت لـ«طه»: ما تستنّاني برّه يا «طه».

هم «طه» بالخروج مُستنكرًا: أأ ماشي.. بس ما تتأخرش.. ثم همس في أذنه: عندي أجزخانة بالليل.

خرج «طه» وراء ما بدت سكرتيرة، سَحبته لغرفة قريبة غاص فيها بداخل كنبة مريحة أمام مكتب فوقه زهرية ورد، يدعو الله في سرّه أن يكون لأبيه سبب مقنع فيما يفعل، لم يعُد قادِرًا على التنبؤ بتصرّفاته الأخيرة، نظرًا للحالة المادية الضنك بجانب حديث العزّاب حول الزواج والبطيخة التي لا بد وأن أحدًا قد طبّل عليها وخلافه، دار بخلد «طه» أربعة احتمالات لتلك الزيارة: طلب شقّة، واسطة، ومساعدة مالية، وأداة نفي!! لا .. ليس «حسين الزهار».. لم يكن ليفعلها! كما أنّه يعلم أن أباه يستنكر كيان «محروس برجاس» من الأصل! ويرفض فكرة الوساطة، بل يرفعها إلى مرتبة الكبائِر!!

السكرتيرة كانت تعبث بتليفونها حين رفعت عيناها نحو «طه» الذي رسم على وجهه آيات التبجيل لذلك الجمال الصارِخ وذلك الصندل السيور الملفوف حول تلك القدم الشمعية المضيئة التي يستنِد عليها جسد أقرب للمهلبية قليلة النشا، فاتحًا أي موضوع، متبعًا نظرية الرشق في أي خُرم: جميل أوي الـ آآآ.. الديكور بتاع الفيلا.. ده لازِم ذوقك؟

ببرود الثلج ابتسمت لكسر من الثانية وهي تهز رأسها قاطعة كُل العلاقات الدبلوماسية قبل أن تبدأ، مُغلقة للسّفارة بالضبّة والمفتاح، ابتسم «طه» ابتسامته السمجة مواريًا خجله وتزحلق في كرسيه واضعًا يده في جيب سترته: زي الفُل.

في الداخِل لم يكُن الوضع يختلِف كثيرًا، «مَحروس برجاس» يتصنع الانشغال في أوراق على مكتبه، تتخطفه علامات الاستفهام حول الكيان الثقيل الرابض أمامه، مُحاولًا العثور على رد مناسب لذلك الذي أجبره على مقابلته، مُوحيًا بلا مبالاة مُصطنعة لم تزعِج «حسين» الذي لم يمهله وقتًا للتفكير: من زمان وأنا نفسي أقابلك..

صمت «محروس» للحظات فض فيها الورقة التي كان «حسين» قد أرسلها: أنت كاتب في الورقة إن الموضوع خطير ويمسّني.. أؤمُر.

– نشرب شاي الأول، عشان يبقي عيش وملح.

ضغط «محروس» زِر بجانبه فأردف «حسين»: تقيل مِن غير سكّر.

– هات شاي تقيل مِن غير سكّر يا «مدبولي» والقهوة بتاعتي.. عمّ الصمت ثانيًا حتّى قطعه «مَحروس»: خُش في الموضوع يا حاج.

قاطعه «حسين»: الحقيقة هما موضوعين مش موضوع واحد.. الأوّل يخصني واسمح لي أبدأ بيه على ما تيجي قهوتك.

رمقه «محروس» بنظرة لا تعبير فيها حين أردف «حسين»: أستأذنك نقعد جنب الكنبة عشان الكرسي أنت عارف...

بصبر نفد قام «مَحروس» ليجلس على الكنبة الجلدية في حين اقترب «حسين» بكرسيه ليصبح بجانبه: كِده أريح.. أصل القسطرة...

قاطعه «مَحروس» اشمئزازًا: ماشي.. ماشي يا حاج. قالها متأففًا قبل أن يدخل الخادِم بصينية، وضعها قرب «حسين» مع المياه ورحل حين اعتدل «محروس» في جلسته صانِعًا كُل اللغات الجسدية الموحِية بالملل، هرش ذقنه، تأمّل أظافره، نظر للسقف وزفر، كان قد تعدّي مَرحلة المُقابلات الشخصية منذ أمد، لا بد القعيد آت في طلب، هؤلاء الذين لا يدركون مَغزى أن تكون نائبًا، ينتظِرون منك أن تترك مكتبك لتهرع خَلف وزير بعد جلسة مَجلس الشعب لتصغّر نفسك وتطلب طلبًا سخيفًا، مثل نقل طالب من مدرسة أو علاج على نفقة الدولة أو الأكثر شهرة طلب الوظيفة، إلا أن شيء ما في وجه ذلك الزائِر ورسالته المبهمة جعله ينتظِر الضربة الأولى.

– زِي ما أنت شايف يا «محروس» بيه أنا ساكِن قدّامك، جارك، الشبّاك اللي في وشّك على طول، الشقة اللي فوقي ساكنها واحد اسمه «عزّت»، أجارك الله في قلّة الأدب، دِيك النهار بص على سقف الحمّام لقيته شُربة، بعت «طه» يكلمه، قال له إن الشقة إيجار جديد ومش هيدِب فيها مُسمار، يهديك يرضيك مفيش فايدة، والأدهى من كده راح جاب مُهندس من الحي كتب تقرير إن الأضرار دي مش من عنده، والمشكلة في سقف حمّامي!! ده غير بقه الغسيل اللي بينقط علينا طول الوقت، مراته أصلها حطّتنا في دماغها من ساعة ما زعّقنا معاه، شوف الناس بقت عاملة أزاي، وأنا عايش لوحدي أنا وابني، المدام متوفيّة، والضرر واقع على العمارة كُلّها، هتعبك معايا تقوم بس تبص بصّة.

استعجله «محروس» بحنق: أيوه أيوه ما أنا واخِد بالي.

– معلش بصّة بس عشان تشوف بنفسك.

قام «مَحروس» متثاقلًا يطفح مللًا بعد أن عرف مَغزى الزيارة.. يلعن اليوم الذي اضطر فيه لاستقبال هؤلاء الذين يظنّونه سَباكًا صحيًّا.. كان الشبّاك يبعُد عن الكنبة حوالي أربعة أمتار.. وصل للشبّاك ومد يده ليرفع الستائر.. كانت تلك المُدّة كافية تمامًا لـ«حسين الزهّار».. كافية ليمد يده في جيب قميصه الباهت ليُخرج كيس بلاستيك صغير به كمية من مَسحوق.. لا تتعدّى النصف جرام.. اتّكأ على مَسند كرسيه مُتحاملًا ومد يده إلى قهوة «مَحروس».. أفرغ مُحتويات الكيس في دائِرة ليضمن توزيع النسبة بالتساوي: شُفت شبّاكه.

– مم..

تابع «حسين» الحبيبات الصغيرة وهي تخترق وجه القهوة لتغطس بداخلها: فوق الشبّاك بتاعي بالظبط.

«محروس»: مم..

وضع «حسين» الكيس الصغير في جيبه قبل أن يَرجع «مَحروس» وهو ينظر لساعته: هو ده الموضوع الخطير؟!!

– مِش بالظبط.

احتد صوت «محروس»: أنت جاي هِنا تهرّج.

– صدّقني لمّا تسمع باقي الموضوع هتِعرف قد إيه الموضوع خطير ويمسّك.. روّق أعصابك واشرب القهوة.. أوعِدك مِش هتِندم.

كان «حسين» في حاجة للوقت، أخذ ينظر في وجه «محروس» حتّى استسلم لإيقاعه البطيء وشرب القهوة، كان الكوب صغيرًا كُستبان، لم يتطلّب من «مَحروس» سوى ثلاث رشفات سريعة لينهيه حاثًّا ضيفه الذي ازداد وزنه فوق القلب على الرحيل.

مع الرشفة الأخيرة تطلّع «حسين» لكوب «مَحروس» الفارغ ثم ابتسم: يدوم يا بيه.. بالك.. الحاج «عزّت» من أسبوعين عِرف إن عنده سرطان في مرحلة متأخّرة، الله يشفيه، رجل جوّه ورجل برّه، لمّا حَسّ إن الدنيا خلاص، نزل قعد معايا، صالحني ورضاني وبدأ يصلّح عفشه الميّه عنده.

رجع «محروس» بظهره إلى الوراء مشبّكًا يديه، مبديًا أقصى آيات الدهشة بين حواجبه: مش فاهم، أنت جاي هنا تِشتكي من إيه؟ أنا ماعنديش وقت...

قاطعه «حسين»: أنا جاي عشانك أنت.. أنت اللي محتاج تسمع، مش أنا.

– عشاني أنا؟

– أصل أنا امبارح حلمت بيك.. ألقاها «حسين» مبتسمًا.

كان ذلك كافيًا لاستنفاد صَبر «مَحروس» الذي قام مُنهيًا اللقاء:

– أنا مش فايق للدجل، وقتي ما يسمحش، لولا إنّك صاحب عاهة كان هيبقى لي تصرّف تاني...

– أنا ما قلتش أني بفتح مندل.. بقولك حِلمت بيك.

اتّجه «محروس» إلى مكتبه وضغط زِر الهاتِف: «شاهيناز» تعالي لو سمحت.

– صدّقني مش هتستفيد حاجة لو مشيت من هنا.

دخلت السكرتيرة تترجرج حين صاح «مَحروس»: قبل ما حد يخش لي ابقي اعرفي عايز مِني إيه بالظبط أنا مِش مكتب شكاوي المحافظة هِنا. ثم تبادل «مَحروس» النظر بين سكرتيرته و«حسين» الذي بدا جادًّا لأقصى درجة، قبل أن ينفرِج وجه الأخير عن ابتسامة غريبة: أنت حُر.. ما تقولش إن محدِّش حذّرك.

انتاب «محروس» نفس الشعور الذي ينتاب من يتلقّى اتّصال من شخص غائِب ليسأله: أنت كويّس؟ أصلي حلمت بيك حلم غريب!! ذلك الإحساس الذي انتاب يومًا زوجة «يوليوس قيصر» قبل ذهابه لمجلس الشيوخ، حين قالت له بعد حِلم مزعج: لا تذهب، ستقتل.. لم يسمع نصيحتها وتحققت النبوءة.. لن يُضار من دقائِق إضافية يستمِع فيها لذلك القعيد غريب الأطوار، لم يَستطع مقاومة تلك الرغبة المحمومة في المعرفة: خلاص يا «شاهيناز».. شُكرًا.

خرجت السكرتيرة وأغلقت الباب، في حين اقترب «مَحروس» من «حسين» منحنيًا لمستوى رأسه: لو عايز فلوس صدّقني دي مش طريقة عِدلة عشان تطلبها، أنا ما يضّحكش عليّا.

– أنا مش عايز منّك حاجة.. مستورة والحمد لله.

– حلم إيه اللي بتتكلّم عنّه.

انتظر «حسين» لحظات مستمتعًا بجنون الترقّب في وجه «محروس» قبل أن يتكلّم: قبل ما أقولك، أوعدني وعد.

– وعد إيه؟

– وعد إن اللي هقولهولك ده ما تستهترش بيه.

بنفاد صبر: أوعدك.

–أنت هتموت بعد تلات أشهر.. ألقاها بثِقل غريب، ابتسم «مَحروس» ابتسامة مبتورة منكمشة وهو يستند على مسند كرسيه:

– ده كلام فارغ.. العُمر سِر من أسرار ربنا.

– سيدنا «يوسف» كانت معجزته يشوف الرؤيا.

– ده نبي.. مكشوف عنّه.

– والملك الكافر كمان حِلِم بالسبع بقرات.

– بتتكلّم بثقة!! ده مجرّد حِلم.

– مش مهتم إني أقنعك.

– احكي.

– شفتك لابس سِلسِلة دهب وقاعِد على كرسي في مكان ضيّق، حاجة زي بدروم، وفجأة دخل أخويا الكبير، خدك من إيدك وقال هيروح معاك مشوار بعيد ياخُد قد تلات ساعات، وطلب تاكسي لأن رجلك وجعاك مش قادر تمشي.. بس.

– طب وإيه المشكلة إن أنا وأخوك نتقابل في الحِلم.

ببرود من يخبرك أن سِعر الزيت ارتفع جوز جنيهات أجابه «حسين»: ولا حاجة.. المشكلة إن أخويا اللي أنت رايح معاه ده مات من سنتين.

نَسى «مَحروس» إغلاق فمه لدقيقة.. أخذت موروثات الأجداد من تفاسير وحكايات تتقافز في رأسه كفئران أصيبت بالطاعون.. تذكّر تلك العمّة أو الجدّة التي لا بد موجودة في كُل عائِلة.. تحكي عن حلمها بمن يذهب في مشوار مع أحد الموتى.. وعن إحساس الألم في الفخذ.. والذهب.. ذلك الحلم الذي يتبعه موت مُفجع وسَواد طويل الأجل.. مَسح «مَحروس» قطرات عَرق صَغيرة علت جبهته.. داهمته الهواجس كالذباب حول السكر: لكن أنا ما أعرفكش.

– ولا أنا! مش لازِم أحلم بيك بس عشان أعرفك، أنا جاي أحذّرك، أنذرك إن أيامك في الدنيا دي بقت مَعدودة، ويمكن النهاية تيجي بمَرض صعب، ظبّط حالك وبُص في دفاترك القديمة، دَوّر على حاجة منسية، حَاجة مش عاوز تفتكرها، أنا أحلامي عُمرها ما خيّبت.. أحلامي حقيقة.

ابتلع «مَحروس» ريقه بصعوبة مُتصنعًا ثباتًا ظاهريًا حين وضع «حسين» يديه على عجل الكرسي المتحرّك والتف نصف دورة ناحية الباب: سلامو عليكو.

بُهِت «محروس»، تابع «حسين» بنظره إلى الباب قبل أن يرتمي على كُرسيه الجلد العريض بملامح عبثت بها الشياطين، فتح «حسين» الباب حيث وجد «طه» في انتظاره، دفع أباه إلى الخارج وهو يتأمل «مَحروس برجاس».. لم يكن ذلك الوجه الذي رآه قبل دقائق..

كان كمن قابل للتو حتفه..

* * *

الفصل السادِس

في الطريق حَاول «طه» استدراج أبيه كي يَبوح بفحوى اللقاء، إلا أن ما حصل عليه كانت إجابات غير مُقنعة: كلمته على ابن عمّك عشان يشوف له واسطة شغل.

– يا بابا «مُعتز» لسه ما خلّصش كلية.

«حسين» مُغيرًا دفّة الموضوع: ما تمشيني شوية.. عايز أشِم هوا.

نظر «طه» في ساعته وهز رأسه!! خرج بأبيه إلى ميدان الدقّي ثم إلى كوبري الجلاء حيث توقّفا في مواجهة نوادي التجديف.

دقائِق قليلة مرّت في صمت حتّى قطعها قارب يقوده شاب رياضي في اتجاه كوبري ٦ أكتوبر، بدا الأمر مُرهقًا وهو يحاول جذب ثقل القارب ضد التيار.

– عارف.. ليّا واحِد صَاحبي اسمه «زينهم».. كان مدرّب تجديف النادي اليوناني.. تعرف «عبد الحليم حافِظ» لمّا وِقع في النيل وهو بيغني «أنا لك على طول..» في فيلم «أيام وليالي»، أهه اللي وِقع بداله ده كان «زينهم»، اختاروه عشان شُفيِّف زيّه، كُل مصر افتكرت

إن «عبد الحليم» هو اللي وِقِع، خَد يومها خمسين قِرش، ودخلت الفيلم عشان خاطره سبع مرّات، كان يحبّني أوي، يومها عزمنا على سندوتشات وحاجة ساقعة.. فِضل في النادي سنين لغاية ما بقي رقم واحِد.. خد بطولات وميداليات قد كده للبلد.

– وهو فين دلوقت؟

– مات.. خبطه عيل بعربية من يمين أتوبيس وهو خارِج من النادي..

– لا إله إلا الله.

– سنة ٨٧ الكلام ده.. الواد كان ماشي من غير رُخص، كان هيجري لولا أمين شرطة مِسكه.

– اتحبس؟

– ٢٤ ساعة وبعدين طلع بكفالة ودفع غرامة رُبعومية وعشرين جنيه للمرور عشان السير بدون رخص.

– يا نهار أسود!!

– «زينهُم» كان عياله صغيرين، مين اللي يجري بقى ورا المحاكم عشان ياخُد حقّه.. أهي دي عايزة عُمر تاني واثبت بقى.. أبو الواد رمى لهم ٣ تلاف جنيه.. عارِف يعني إيه (تلاتلاف)؟

– ما يجيبوش (N97) دلوقتي.

– جبت عنوان الواد اللي خبطه ورحت كلّمت أبوه.. قلت له الناس دي غلابة.. بيحسبنوا عليك.. تلاتلاف دول كلام فاضي.. يمين شمال قال لي ما معناه اخبط دماغك في الحيط.. نزلت شايط.. ماكنتش عارِف أعمِل إيه.. مِشيت زي المجنون يا «طه».. مِش

عارِف إيه اللي خلاني اشتري إزازة زيت فرامِل من محل قِطع غيار.. الميكانيكي كان قال لي إنها بتاكُل البويا.. ورجعت أرُش نُصّها على عربيته اللي كانت راكنة تحت البيت.. مَرسيدِس.

– معلّم.. بصراحة يستاهِل.. بس عيلة «زينهُم» ما استفادتش أي حاجة كِده!

– بعد يومين أبو الواد بعت شيك بخمستاشر ألف جنيه.

– أوباا يبقى خاف من اللي حصل.

– فيه مقولة بتقول: «العبد يقرع بالعصا والحرّ تكفيه الإشارة».. العبد مِش الفقير.. العبد هو اللي ما يفهمش الإشارة مِن أوّل مرّة.. المُهِم إن الرسالة وصلت.. والأهم إن الناس وصلتها الفلوس.. سَاعات بنضطر نعمِل غلطات صغيرة نصلّح بيها غلطات أكبر.

– مش كُل الناس تقدر تعمِل زيّك.. ولا القانون.

قاطعه: القانون ما بيحميش الضعيف.. اللي كتب القانون فوق القانون.. فوق أوي.. بيكتبه من وجهة نظره، لو كان «زينهُم» ده رقّاصة كانت الدنيا اتقلبت.. بس مَفيش رقاصة بتعدّي الشارع على رجليها في البلد المُحترمة دي يا سي «طه»!!

– قول لي يا حجيج، بمناسبة الرقّاصة، أنت مالكش مُغامرات، مُزز من الزمن الجميل؟

شرد للحظات ثم عاد: زمااان كانت فيه بت اسمها «تونا»؟

– «تونا» قطعة واحدة؟

- كنت عيّل ودي كانت أوّل حُب.. يهودية من حارة جِدّك الله يرحمه.

- بتهزّر؟ يهودية يهودية يعني؟

- لغاية حرب ٥٦، بعدها كُل حاجة اتغيّرت.

- شكلها إيه؟

- جميلة.. زي الفرس.

- فرس النهر؟

- يا غلباوي، الفرس أجمل مخلوقات ربّنا، كُل حاجة فيها كانت تشبهه.. رقبتها.. وسطها.. عينيها.. شعرها.. شايف المركب دي؟

تحت الكوبري كانت تعبر مَركِب مُضاءة بلمبات حمراء.. شايف ضي النور الأحمر على النيل، شعرها كان ده لونه.

غمزه «طه»: يا ريتني كنت معاكم.. يا حجيج يا جامِد.. اتشاقيت؟

- كنت صغيّر.. هجّت في أول ٥٧ على فرنسا وبعدين على إسرائيل بعد أبوها ما مات.

- زمانها كركوبة في مستوطنة.. بس وماله.. أهرّبك في نفق على غزّة.

- وفي ٦٧ عدّت على الحارة تاني.

- أوبّاااا.. سنة النكسة!! دي جريئة موت.

- ما عدّتش على الأرض.. عدّت سايقة طيّارة.. أصلها لمّا سافرت إسرائيل دخلت سلاح الجو.. وعملت غارات على القاهرة.

- يا بنت الواطية.. طب وأنت عرفت منين؟

- بعد ٧٨ كان فيه وفود من إسرائيل بتيجي الحارة تزور.. ليهم مَعبد قديم وشوية معارف.. يومها قابلتها هي والخواجة نسيم بتاع «جروبّي» اللي كان ساكِن فوقينا.. سألت عليّا بالاسم.. قعدت معاها تلات ساعات.. بعدها مشيت.. وما سمعتش عنها تاني.

- ما مسكتش فيها تقعد ليه؟ مش كنت حسنت لنا النسل شوية.

- يمكن أكون أنا سبب بُعدها.. بس ده موضوع تاني عايز يوم بحاله.

كانا قد وصلا قرب مدخل الأوبرا بميدان سَعد زغلول، انحرف «طه» إلى اليسار حيث حديقة المحافظة، نزل بأبيه قرب النيل وسط باعة البيبسي المُلحّين والحبّيبة الملتصقين، استقبلهما النهر بنسمات ندية ورائحة لا زال فيها ما يؤثر في الأنوف.

- شفت أنت أيام يا حجيج!!.. يعني «حرب عالمية».. و«نابلسي شاهين» و«الملّيم لحمر» والملك «فاروق» والثورة و«جمال عبد الناصِر» والحركات الجامدة...

- و«محمد نجيب».

- و«محمد نجيب».

- بتنسوه عشان اسمه اترفع من مناهج التعليم.. وما افتكروش يرجّعوه غير بعد ما مات.. جيلك ما يعرفش حاجة عنّه.. جريمة مات كُل اللي اشتركوا فيها.

- أكيد كان فيه سبب لكُل ده.

- مشكلة إنّك تعيش زمن مش زمنك، كان عاوز الظبّاط يرجعوا الجيش، ويبقى فيه برلمان وأحزاب، آل وكانوا بيتّريقوا على الملكية، فيه ناس يا «طه» ما ينفعش معاها الشرف، لازِم كان يبقى أخبث من كِده عشان يعيش، قتلوه بالبطيء، تسعة وعشرين سنة سجن انفرادي مع القطط والكلاب، والباقي في المستشفى لغاية ما مات، «نيلسون مانديلا» قعد سبعة وعشرين سنة ولمّا خرج، بقى رئيس جمهورية!!

- لو مكانه كنت عملت إيه؟

- كنت اتغدّيت بيهم قبل ما يتعشّوا بيا.

- كنت تفكّر تِهرب لو سجنوك؟

- المنفى مصدر قوته، زي ما الموت ساعات بيبقى ولادة بطل، فيه تمن دايمًا لازِم يندفِع، الثورة قلعت ألف باشا، وزرعت مطرحهم مليون، دول وعيالهم هُمّا اللي مطينين عيشتنا دلوقت وملموم عليهُم كدّابين الزفّة. واللي معاهُم الفلوس فرخة.. فرخة بتبيض لهم الدهب.. يحموها ويسفلتوا لها الأرض وهي تبيض.. ما أنت شايف الكوسة اللي من غير دِمعة.. واحِد زي «برجاس» اللي مِن التمانينات ما سابش حاجة وسخة ما دخلش فيها شوف بقه فين! تعظيم سلام، حد قادِر يوقّفوا!!

تضاعفت تدريجيًا نبرة صوته فتحوّلت الرؤوس نحوهم: ضهره جامِد، مَسنود، «محروس»، اسم على مُسمّى! لأ وابنه بسم الله ما شاء الله، شاااااذ، وبيبني لنا الكباري والعماير، يطلع لك واحِد ويقول

لك ومال ده ومال الشُّغل؟ ما كُل واحِد حُر في اسمها إيه!!! ده غير الأفلام الوِسخة اللي بيِنتجها، طب أنت بزمّتك ما كنتش بتتفرّج وتخش الحمّام تضرب...

نظر «طه» حوله في هلع قبل أن ينتفِض مقاطِعًا: إيييه يا حجيج ما تصلّي على النبي أمّال..!!!

- صَدّقني يا «طه» جيلكم ما يعرفش حاجة.. ما يعرفش حاجة.

دفع «طه» الكرسي برفق مبتعدًا عن الناس: تمِيل أنت لنظريات المؤامرة!!

- نظرية المؤامرة في البلد دي مِش نظرية.. ده عِلم.. الاستثناء فيه هو القاعدة.

- أمام تمثال «سعد زغلول» بالميدان توقف «طه» وواجه أباه: والله يا حجيج أنت مكانك مش هنا.. مكانك في الميدان.. تمثال نحاس شديد زي بتاع «سعد باشا» ده، وأشار بيده مقلدًا وضع التمثال المواجِه لكوبري قصر النيل.

- تمثال في ميدان لواحِد بكُرسي عجل!! الشغلانة بتاعتك دي علّمتك البكش.

- شلّوت سيادتك دفعة للأمام.. يلله عشان أروّحك وأطلع على الأجزخانة أحسن أتأخر.

بعد نِصف الساعة وصل «طه» بأبيه إلى الشقّة، أدخله غُرفته وأعدّ له وجبة قبل أن يرحل إلى الصيدلية، في تمام الحادية عشرة والربع كان هناك، استغرق في أدويته ومكالمات الطلبات المنزلية حتّى

الخامسة صباحًا حين دخل مريض يَطلب حقنة في العضل، ترك «طه» المكتب ودخل المَعمل، دقيقتان كانتا كافيتين ليمر «السيرفيس» من أمام الصيدلية بوجه متجهّم وعيون كالدم، أبطأ أمام الصيدلية وألقى نظرة خاطفة قبل أن ينطلِق في الاتجاه الذي جاء منه.

أنهى «طه» عمله في الثامنة صباحًا، لبس سترته ودس فيها يديه الباردتين راجِعًا لبيته، كان المِصعد مُعطّلًا، حالته كتبها البوّاب على ورقة: «الأصانسير عتلان». صعد للشقة مارًّا ببسطة صغيرة مُعتمة رغم النهار، كان زجاج نافذة السلّم مَكسورًا مُنذ زمن، مَسدودًا بِقطعة خشب رقيقة حولت النهار إلى ليل بما تحجبه من نور، لولا بَصيص الشمس المتسلّل من ثقب صغير فيها ضاربًا الأرض لاضطر البوّاب أن يضيء لمبة السلّم نهارًا، أخذ «طه» يَتحسّس شكل مفتاح المنزل من بين سلسلة المفاتيح ليميّزه حتّى عثر عليه وأولجه في ثقب الباب: بابا..

لم يتلقّ رد، ألقى بسترته على كرسي وأغلق الباب بقدمه: بابا!!

بداخل الشقّة لم يكن الجو مُختلفًا عن خارجها، كانت الستائِر قد تحوّلت إلى اللون البنّي بفعل كثبان الأتربة المتراكِمة التي حجبت الشمس كحائِط خرساني مُسلح منذ رحلت سيدة الدار، فأبوه يفضل الغرف مُظلمة ليل نهار، يرفض حتّى تهويتها وهو فيها، يخرج إلى غرفة أخرى إذا طلب «طه» تنظيفها ثم يعود بعدما تُغلق الستائِر، ولا يفتح شباكها إلا بعد زوال الشمس..

خلع «طه» حذاءه قبل أن يتوجّه إلى غرفة أبيه: إيه يا حجيج.. أنت صاحي؟

لم يتلق إجابة، حين اقترب من غرفة أبيه لمح طرف عجلات الكرسي المتحرك، لم تكن على الأرض، كانت مرفوعة على جانبها الأيسر وبجانبها قدم أبيه، كان ذلك آخر ما شاهده «طه» قبل أن تُظلم الدنيا فجأة وتهدأ جميع الأصوات، بعدما تلقّى ضربة على مؤخرة رأسه من الشخص الذي كان قابعًا في انتظاره منذ ساعات.

* * *

الفصل السابع

فجر اليوم التالي.. الساعة ٤:٢٠ صباحًا..
شقّة بالدور الرابع في عمارة فَخمة قريبة من الميدان، مَكتوب على لوحة نحاسية صَغيرة بجانب بابها مقدّم/ «وليد سلطان»..

خرج من باب المصعد شاب رفيع حليق الرأس يرتدي ملابس رثّة بالنسبة لهذا الوقت من السنة، تفوح منه رائِحة عرق مكتوم، يحمِل حقيبة سمسونايت سوداء وثمانية أكياس بيضاء عليها شعار سوبر ماركِت «مترو» مُلئت بفواكه الموسم، اقترب من الباب وضرب الجرس بأنفه ووقف ثواني يعتصر الحمل الثقيل كفوفه المعروقة حتى فتحت الباب خادمة مُراهِقة تحمِل طفلًا جميلًا في عُمر السنتين، ما أن رأت الشاب حتى أفسحت ليلقي بحِمله في المطبخ، خلع حذاءه في الخارج ودخل بشراب مهتوك عرضه: ما تدوسش على السجاجيد.

لم يجبها، كان قد تمّ استئصال كرامته بنجاح بعد عملية لم تدم أكثر من دقيقتين حين تطاول وتخطّى حدوده ودخل مَرّة بالحذاء إلى الشقّة، قامت بالعملية «نورا» زوجة المقدّم، بفاصل من الوعيد والإهانة أنساه اسم أمّه في الصعيد، مشى على أطراف أصابعه حتى

أفرغ يديه المحصورتين وغادر بعد ما سألته الخادمة: البيه جَه معاك؟ فأجابها: طالع دلوقت.

انسحب إلى المصعد الذي نزل به للدور الأرضي، فتح الباب حيث كان سيّده يسحب نفسًا من سيجارته ويزفره في دائرة مرتعشة وهو يتحدّث مع جاره: دي عالم بنت وسخة ما تجيش غير بقلّة الأدب، الإنتركم الألماني أغلى تومنوميت جنيه، بس أنضف ميت مرّة من الصيني، هو كُل واحد بيبص على المِيت جنيه الزيادة!! عملوا نفس النقص ده لمّا جينا نجيب الرخام الجديد، طلعت لي «هناء أمّو ضب بتاعت الخامس»، تقول لي ده تبذير، إشحال يا بنت المره جايب لكم الرخام بنص التمن ومتحمّل جميلة، رُحت شايطها هي وجوزها، دخلوا الشقة زي الكلاب، بُص، قول للسكّان: «وليد سلطان» هيجيب الألماني، واللي مش عاجبه مفيش مفاتيح للعمارة لغاية ما يدفع، يِيجي كلب يتكلّم.

أجابه الجار: هو ده الكلام، فكّرتني صحيح عايز أجدد رخصة، أعدّي عليك إمتى عشان كشفت على المخالفات من على النت امبارح طلعت أربع تلاف جنيه.

- عَدّي عليّا بُكرة بالليل بعد عشرة، هدّيك كارت لواحد حبيبي في المرور، هيخلّصك وأنت قاعد على ما تشرب الشاي، بس خُد معاك طقم مكتب وكام نتيجة عشان تظبطوا.

- حبيب ألبي.

رحل الجار وضغط «وليد» زِر استدعاء المصعد وهو ينظر في شاشة الموبايل باحثًا عن رقم، وبدون أن يلتفت للكائِن المنسي

الذي التصق بالحائط التصاق الإستيكر في محاولة لعدم شغل أي فراغ يؤثر على نفسية الباشا: طلّعت الفاكهة؟

- تمام معاليك.

- مين خِدمة الليلة؟

- أنا و«فتحي» معاليك.

- ما تنساش بكرة تِدفع فاتورة الموبايل الصُّبح بعد ما تودّي «سَلمى» المَدرسة وبعدين تعدّي عليّا.

رفع العسكري يده في تحية: أوامر مَعاليك.

دلف «وليد» المصعد، كان يرتدي بذلة كحليّة وقميص أبيض وكرافتة نِصف مفكوكة، متوسط الطول، عريض الصدر مِن أثر مُلاكمة مَارسها سنوات الكلية، حتّى أثقلته الحياة العملية فتركها لتندثر، وتركت له كرشًا صَغيرًا وبعض الأجناب لتذكّره برشاقة بائدة، عَيناه حَادتان ذكيتان تستشعران الكذب كماكينة السوبر ماركت حين تقرأ علبة الكورن فليكس «بيب ٩٩ ,١٧ جنيه»، وذلك الشارب المهذّب الذي يضفي مع شعره المفروق من الجنب وسَامة ظاهرة رغم جوع صادق للنوم العميق يطل من عينيه التي يسحقها السهر يوميًّا في مَكتبه بقسم الدقّي حيث يشغل منصب رئيس المباحث.

تخرج «وليد» في كلية الشرطة عام ٨٩، وتدرّج في المناصب حتى وصل لمنصبه الحالي منذ أربعة أعوام، متزوّج من «نورا» زميلة أخته في الدِّراسة، أنجب منها «سَلمى» وبعدها بثلاث سنوات شرّف «زياد بيه» كما يُطلق عليه العسكر العاملون تحت إمرته، ذلك الصغير

الذي ركض حافيًا حين سمع مفاتيح والده تولج في الباب قبل أن يرتمي ليحتضن ركبته: بابيبي.. مامي.. أوده. حمل صغيره ليقبّله ثم ناوله للخادمة وهو يخلع سترته: «نورا» فين؟

حملت أمل الطفل وأجابته: في أودة النوم.. معاها تليفون.. حضرتك هتتعشّى؟

لأ.. قالها واتّجه لغرفة النوم مارًّا بالأثاث الكلاسيكي التي طلبته زوجته من مهندس الديكور، بالداخل كانت «نورا» جالسة على فوتيه، ترتدي قميص نوم كريمي وتسند سَمّاعة تليفون بين كتفها وأذنها لتتفرّغ يداها لطلاء أصابع قدميها بالأحمر القاني، بيضاء كستنائية الشعر، مُمتلئة، يزيّن خصرها طبقات من الميشلان[1] لم يفلح معها مشد خصر تميمة تليسين تسوّق عبر شاشة التليفزيون.. راحة مزمنة أصابتها منذ عشّش النسر بجانب النجوم فوق كتف زوجها وافتتح كافيه بالزمالك.. عطرها فوّاح نافذ يجذب من مَسافة شهر، خواتمها عريضة في أصابع مسترخية مكلبظة، وفتحة صدرها واسِعة تضم حضارة ما بين النهدين التي يختلسها عسكري المراسلة حين تنحني لتركب السيّارة، يتمثل مَجهودها اليومي في صَحوتها من النوم بعد الواحدة ظهرًا، اتصالها بصديقاتها لتنسيق مقابلة بنادي الصيد تستغرق ثلاث ساعات من النميمة المكثّفة، متناولة حكايات الفراش كقضية مِحورية، تنبثق منها لجنة فرعية تتناول الوضع في «كارفور» وباقي مناطق الشوبينج، تتفرّع منها مُحاورات جانبية عن شباب النادي العزّاب الخارجين من صالة الحديد.

(١) مع الاعتذار لماركة الكاوتشوك الشهيرة ميشلان..

لم تكترث «نورا» كثيرًا بدخوله، لوّحت بـ(Hi) فاترة فخلع ملابسه ودخل ليستحِم، بعد عشر دقائق خرج عاريًا تتساقط منه قطرات الماء، وقف في المرآة يُهذّب شَعره وشاربه ثم ارتدى البوكسر حين وصلت لنهاية المكالمة: أوكيه يا نانه، سي يو تومورو.. باي..

أغلقت الخط: اتعشيت؟

جلس على طرف السرير وأشعل سيجارة وهو يعبث في الموبايل: كلت في المكتب.

نامت على بَطنها تحرّك أرجلها ليجف طلاء أظافرها: بكرة عايزة بقيت الفلوس، «آرام» خلّص الخاتِم، طِلع قيراط إلا رُبع تقريبًا.

- فاضلّه كام؟

- تمانية سُبعومية.

هز رأسه مُستنكرًا: عدّي على الكافيه بكرة خدي الفلوس.

- كلّموني النهارده مدرسة «سلمى»، عايزين تبرّع عشان المبنى الجديد.

- أحّه.. همّا مش لِسّه واخدين عكمة من سِت شهور.. مِش هدفع حاجة تاني.. هي اشتغالات؟

- مش عايزين منظرنا ومنظر البنت يبقى أقل من زمايلها.

- حرامية ولاد كلب.

- أنت حر، بس خُد بالك كُل صحباتي ولادهم في نفس المدرسة، وفي وشّي طول النهار في النادي.

لم يجبها، أخذ يعبث بتليفونه هربًا ثم تذكّر: بكرة فرح «كريمة» بنت عمّي.

لم يشاهدها وهي تلوي فمها امتعاضًا: مم.. بكرة عندي دكتور الدايت، هو الفرح الساعة كام؟

- ساعتين بالليل عشان محدّش يزعل.. هنورّيهم نفسنا ونرقع صورة معاهم ونمشي.

مدّت أظافِرها إلى ظهره تمشطه، تخربش برفق، ثم اقتربت وأخذت تلثِم رقبته، استعاد سَريعًا ميعاد آخِر معاشرة، منذ أسبوعين، كان عليه ألا يطيل المدّة بين اللقاءين تجنبًا للشك في قدراته – ليس للرغبة دخل هنا – أطفأ سيجارته والتف ناحيتها، جذبها عُنفًا ينزع الهراء الحريري الذي ترتديه، جرّدها ثم ألقاها على وجهها قبل أن يعتليها، اختلط مواؤها بصرير أخشاب السرير التي اصطكّت في جلبة، أرادت أن يلطمها، فانهال بكفّه على ظهرها ومؤخرتها وعض شحمة أذنها علّها تعترِف، علّها تنتهي قبله، تهمد وتخمد وتختفي، تأجّجت بشرتها برسومات ملتهبة لأصابعه، خلف الباب تسابقت شغّالتان تتنصّتان بعدما أغلقتا غُرفة الأطفال، أربع دقائق من الصخب قبل أن يتهاوى.. ليس للرغبة دخل هنا أيضًا.. استلقى بجانبها يلهث تاركًا رأسها مدفونة بين المخدّات، انقضت ثوان خفتت فيها سرعة ضربات قلبها قبل أن ترفع رأسها وتمدّ يدها للمنضَدة ساحبة سيجارة: عملت إيه النهارده؟ سألته..

اندس تحت الغطاء: كنت جنبك طول اليوم في الميدان.

بدا ذراعاها باهظتي التكاليف حين اهتزّتا كأكياس هُلام وهي تلتف ناحيته: اشمعنى؟

– جريمة قتل..

«نورا»: يا ساتر.. فين؟ حد نعرفه؟

– لأ.. راجِل كبير مشلول، حد دخل عليه ضربه، بالصدفة ابنه جه، طس فيه...

– موّته؟

– لأ.. بس فشخُه.. بوّظه.. دخل في غيبوبة.. هيموت.

– يا قلبي.. طب وأبوه؟

– ما استحملش، خِلِص في ساعتها.

قالها وأعطاها ظهره مُحاولًا الاستغراق في النوم حين سألت:

– طب وعرفت مين اللي عمل كده؟

– بتوع الطب الشرعي والبصمة شغّالين، لغاية دلوقت مفيش حاجة.

مدّت يدها للعدسات اللاصقة الزرقاء، خلعتها ووضعتها في علبتها: سرق حاجة؟

حاول إسكات أسئلتها: العمارة موقعها حلو، تخدع، السوابق يفتكر اللي ساكنين فيها مبسوطين، بس الناس دي كانت على أد حالها، مُدير الأمن قالب الدنيا، أصلها في مكان حسّاس، قدّام ڤيلا «برجاس»، أنام بس عشان هصحى بكرة بدري.

دقيقة وعشرون ثانية حتّى تعالى شخيره المنتظِم.. كان الفتور ثالثهما.. تسلّل كحية جَرس بدون أن تقرع الجرس.. سبعة أعوام كانت كافية ليرتفع بينهما حائط خرساني.. يومًا ما أخبره متّهم حكيم قتل زوجته: يا باشا بعد سبع سنين جواز فيه محطّة.. دورة كده زي فصول السنة.. يا تكمّل.. يا تطلّق.. يا تعمِل زيّي.. لو سكت هتيجي تاني في السنة الأربعتاشر.. وبعدين في الواحِد وعشرين.. وبعدين في التمانية وعشرين.. وربنا يدّيك طولة العمر..!!

أدركَ المقدّم متأخرًا أنه اختار مقاييس خاطئة، يتذكّر حين كان يختلس النظرات إليها وهي تتلقى الدروس مع أخته في المنزل، خصرها وساقيها، حين تخلع الحذاء لتريح قدميها، لم يعبأ بالترف الذي تعيشه والهيافة التي تمارسها بحرفة، ولا بعقلها الذي انصب همّه في قوامها وبشرتها، كانَ تخيّلها في الفراش مغامرة أحلام يقظته، يتعمّد مقابلتها ببذلته العسكرية، يخلع مسدّسه ويفكّه أمامها أجزاء مُستعرضًا، يحتضنها من الخلف ويجعلها تصوّب على زجاجات البيبسي الفارغة في نزلة السمّان، يَسعد حين يلمس الانبهار في عينيها، تعدّدت المقابلات بينهما، باتت ساخنة، خاصة في الحِتت الضلمة، أدمنها حتّى طلب يدها، لم تتردّد في إجابة صاحب البذلة البيضاء صيفًا السوداء شتاءً، فقط كانت على عدم وفاق مع عائلته، غلّت مهرها وشبكتها وحفِي وراءها، أكلها في شهر العسل ولسنتين بعده، قبل أن تبدأ العلاقة في التحلّل ويميل لونها للاخضرار، جف حَديثهما وباتت المضاجعة عابرة سَريعة كتبادل مخدرات في الصحراوي، يفرغان طاقتهما ثم ينصرفان وكأن شيئًا لم يكن، يُحافظان على البيت لأجل الطفلين ومظهر أمام المعارف، مع الوقت بدأت مَقاطع العُري تحتل

مِساحات من تليفونه المحمول، اكتشف ميله للون البشرة الأسمر وزهد البياض الذي طارده دومًا، يكاد يَهرب حين يشتم منها رائحة ليلة حمراء، يَراها تتجمل وتتقصّع فيتصنّع نوما أو مغصا أو صداعا، وإذا فعلها ظل مغمض العينين يشاهد في ظلمة جفونه ذروات أفلام جنسية هو فيها البطل، أو لحظة مع رفيقة فتنته باختلافها، حتّى ينتهي الصراع وتنطفئ نارها الباردة، يحرص على عدم انقطاع اللقاء «الحكومي» درءًا للشبهات حول فحولته، الخبر الذي لن يحفظه لسانها في جلسات نميمة النادي، كان يشمئز منها رغم عِنايتها بجسمها، تقزّز يراوده حين ينتهي منها ويتأمّلها، ربّما الشعيرات المنسية من جلسة حلاوة غير متقنة، ميشلاناتها المتهدّلة، عدم لياقتها في الأداء، مرونتها الضائعة، ربّما تلك الندوب الباقية من عملية شفط الدهون التي كعّ فيها ٢٢ ألف جنيه ولم تفلح في بسط منحنياتها، رائحتها، برودها الذي جعل مِنه مُدمنًا للفياجرا وأمثالها سدًّا لمُتعتها التي تأتي بصعوبة، وقد لا تأتي..
لم يعد يعرف، فقط هو ملّها وملّ نمطها الاستهلاكي، وملّ البيت بمن فيه، لم يعد لديه القدرة على التراجع، هو نفسه أصبح يصرف في الترف بكثرة.. منظرنا قدّام الناس يا «وليد».. البرستيج بتاعنا يا «وليد»، أنت رئيس مباحث يا «وليد»، أمّك في العِش والا طارت يا «وليد»، لم يكن يفكّر من قبل في جلسات النوادي والمجاملات المصطنعة، أصدقاء وشِلل غريبة الأطوار اقتحمت حياته على يديها، نِسوان فافي ورجّالة كِيلوتات هكذا يسميهم في نفسه، يزدري أبراجهم العاجية ويتخيّل نساءهم في أحضانه..

كم يتمنّى لو أن هناك زِرًّا أحمر كزر التفجير، يضغطه ليرجِع بالزمن لحظة اختلاسه نظرة لساقيها في الدرس، حين كانت فقط

زميلة لأخته، يتأكّد يوميًا من تلك الأحاسيس، يتمّم عليها كمن يتمّم على محفظته كل دقيقة في أتوبيس نقل عام، ثلاث حقائق كان يدركها..

أنه أخطأ..

أنه تسرّع وتورّط..

وأنّه لا يملك ذلك الزِر الأحمر..

* * *

الفصل الثامن

بعد ثلاثة أسابيع.. ١١:٤٤ صباحًا..
مُستشفى القصر العيني.. العناية المركّزة..

بَدأ جهاز رسم القلب يضطرب بجانب سَرير متواضع مُحاط بستائِر زرقاء باهتة.. تحركت أنامله بصعوبة بين الأسلاك وفتح عينيه في بطء.. من بين شكائِر العُماص التي سدّت جفونه تأمّل اللمبة النيون المعلّقة فوقه.. بدت كشمس صغيرة في شدّتها.. طرقات صداع تدوي في رأسه بإيقاع منتظم.. أغمض عينيه على الحرق الذي يأكلهما وأعاد فتحهما ثانيًا.. لم يعرف سببًا للرؤية بالعين اليسرى فقط.. رفع يده التي بدت ثقيلة كمكواة إلى رأسه ليتحسّس ذلك الورم القابع فوقها كقنديل بحر.. شعر بلسعة حين لامسه فترك يده تنزِل ثانيًا.. استغرق الأمر منه أربع دقائِق أخرى ليفتح عينيه.. في تلك المرّة كانت أمامه مُمرضة بدينة وطبيبة شابة تُصوّب كشّاف ساطع لحدقة عينه: «طه».. «طه».. سامِعني يا «طه».. تقدر تتكلِم؟

بدا صوتها مكتومًا وكأنه آتٍ من مَسافة شهر، حاول «طه» فتح فمه الملتصق كتابوت فرعوني، رائِحة أنفاسه كريهة كرماد ولعابه جاف كشجرة مُحترقة..

- حمد لله على السلامة.

أخذ «طه» نفسه وفتح فمه ليخرج كلامه لزِجًا كشريط كاسيت قديم: أنا فين؟

- القصر العيني.

ابتلع ريقه بصعوبة: بابا؟ فين؟

غمزت الطبيبة للممرضة التي تسانده ليجلس نِصف جِلسة:

- موجود يا «طه»

- عايز أشوفه، كان واقع من على الكرسي! هو متعوّر؟

قاست الطبيبة ضغطه ثم وجّهت كلامها للممرضة: هنكمّل المضاد الحيوي زي ما إحنا.

كرّر «طه» سؤاله: دكتورة.. إيه اللي حصل؟

أشارت الطبيبة بعلامة النصر: دول كام؟

بعد ثوان: اتنين.. إيه اللي حصل؟

أردفت: حادثة، حد اتهجّم عليك وضربك على راسك، الكلام ده من حوالي عشرين يوم تقريبًا، تقدر تقولي أنت ساكِن فين؟ فاكِر أي حاجة؟

- في الدقّي، الكرسي بتاع بابا كان مقلوب، مش فاكر حاجة تاني!!

- نام على ضهرك، حاول تسترخي وبعدين نتكلّم.

استلقى «طه» مُحاولًا تحمّل ألم شديد اعترى فقراته: إيه اللي حصل؟

– أنا عرفت إنّك دكتور، يعني ممكن تفهم كلامي مش كده؟

هز «طه» رأسه في حين أكملت فحص نبضه وهي تتكلّم: الضربة جت في الفص الصدغي، منطقة صعبة، دخلت في غيبوبة، بس حظّك كان كويس، فيه جارة ليك كانت طالعة وسمعتك، لولاها بعد ربّنا يمكن ما كناش قعدنا القعدة دي.. أنت اتكتبلك عُمر جديد.

– طب بابا إيه الـ...؟

قاطعته: «طه» أنا معنديش معلومات تانية غير كده، دلوقت أنت لازِم تستريّح وبعدين نتكلّم لمّا حالتك تستقِر. قالتها وتركته يُصارِع تساؤلاته بين الستائِر الزرقاء.

بعد ساعتين من الفحص جاءت ممرّضة وخلعت عنه ثوبه المشقوق من الظهر، لم يقو على الخجل، استسلم لنظراتها تتخلّله، أفرغت قسطرته قبل أن تمسح جسده بإسفنجه مبلّلة ثم أتته بمرآة بعدما أصر، حين تأمّل وجهه تصلّب كمن قابل «فرنكنشتاين»، نقص وزنه أكثر من خمس عشرة كيلو جراما، أصبح نحيلًا كورقة، رأسه مَحلوقة ككرة تنس مستعملة، وكمية لا بأس بها من الكدمات والقروح احتلّت مساحة كبيرة من الجانب الأيمن لرأسه وكتفه ونِصف ظهره، وتلك الغرز المتقاطعة تقاطع خطوط السكك الحديدية تحاول رأب جروح متخاصمة، علاوة على ورم أغلق عينه كملاكم مهزوم، لعشر دقائِق ظل يتأمل نفسه قبل أن ينتزعه صوت من شروده: حمد لله على السلامة.

رجل وثلاثة آخرون بدوا مُساعديه: أنا «وليد سلطان» رئيس مباحث قسم الدقّي.

هزّ «طه» رأسه في حين أخرج «وليد» علبة السجائر وألقى بسيجارة منها إلى فمه غير مُكترث بالممرضة التي استنكرت بشفاه ملوية: التدخين هِنا ممنوع.. دي عناية مركّزة.

زجرها بعينيه فلملمت بعض الشاش والقطن بعصبية: والدكتورة قالت يرتاح.

نظر «وليد» لـ«طه»: مِرتاح يا «طه» في القعدة؟ وبدون أن ينتظِر ردّه: أهه قال لك مرتاح.

هز «طه» رأسه: بابا عامِل إيه؟

لم تتمالك الممرضة نفسها من الغيظ فانصرفت بعد أن صفقت الباب بقوة.. تجوّل «وليد» في وجوه مُعاونيه مُحاولًا إيجاد إجابة مناسبة قبل أن يعثر على واحِدة: الوالد قعيد يا «طه»، مش عايزين نتعبه، أنت تقوم بالسلامة وتخرج له إن شاء الله، احكي لي بقى إيه اللي حصل يومها؟

أملى «وليد» مساعده: فتح المحضر بتاريخ: ٨-١٢-٢٠٠٨م.. الساعة: ٢:١٥ مساءً..

بمعرفتنا: مقدّم/ «وليد إبراهيم سلطان».. رئيس مباحث قسم الدقّي..

أثبت الآتي: إلحاقًا بالمحضر رقم ٣٠٦٥ جنايات لسنة ٢٠٠٨، تلقينا اتصالًا في تمام الساعة الواحدة والربع ظهرًا من مستشفى

القصر العيني يُفيد بتحسّن حالة وإفاقة/ «طه حسين حنفي عبد الكريم الزهّار»، بِطاقة رقم ١٠٠٥٧٠ الدقّي، الغائِب عن الوعي من تاريخ ١٧-١١-٢٠٠٨، توجّهنا للمستشفى وبسؤاله تبيّن الآتي: تقدر تِحكيلنا إيه اللي حصل يوم الاتنين ١٧-١١؟

استغرق الأمر نصف ساعة.. أنهى «طه» روايته شحيحة التفاصيل وانتظر بدوره سَماع ما فاته في الأسابيع الماضية، حكى «وليد» القصّة من وجهة نظره: من تلات أسابيع جالنا بلاغ من النجدة بيقول إن جارة ليك وهي طالعة السلّم سِمعت صوت مكتوم من شقّتكم، فندهِت البوّاب وكسروا الباب، ونقلوك المستشفى...

- بابا حصل له حاجة؟

تردّد «وليد» لحظة أطفأ خِلالها سيجارة ثامنة أضافت سحابة جديدة للغرفة قبل أن يشير إلى معاونيه أن انتظروني بالخارج: «طه».. أنت شاب محترم وموحد بالله.. الوالِد...

لم يسمع «طه» العبارة التالية، تلك الديباجة القاتلة، شعر كأن هواء رئتيه فر من صدره دفعة واحدة وانسحب الدم إلى مكان غير مسجّل في خريطة جسمه، فهوى كطائِر طنّان أصيب بطلق خرطوش، قام «وليد» يتحسسه حين هرولت الطبيبة تصيح: لو حصل حاجة أنت هتبقى المسئول، التحقيق كان ممكن يتأجّل لغاية ما يقف على رجله.. ده تهريج ده.

قالتها واقتربت من «طه» تفتح عينيه وتبعثر بعض المصطلحات الطبية على مُمرّضتين في محاولة لإنعاشه بعدما طلبت من «وليد» الخروج من الغرفة، استجاب في تباطؤ مُخرجًا سيجارة بدون أن

يشعلها حين زحفت عينيه على ساقيها وهي تنحني، قبل أن ينسحِب في هدوء.

في المساء كان «طه» قد فقد طاقته المتبقية بين بكاء ونهيج ومُحاولات استجداء فاشلة للخروج من المستشفى بَعدما رحل «وليد سلطان» بدون أن يفصح عن معلومة إضافية مكتفيًا بشد حيلك وخلّيك راجِل.. لمّا تروق هنتقابل ونتكلّم.

لم يتصوّر أن أبيه قد رحل هكذا ببساطة منذ أكثر من عشرين يومًا، لم يتخيّل فقدانه بلا وداع، تتداعى في رأسه التصورات حول مدى الألم الذي لحقه، دعا أن تكون الميتة سَريعة، انخفض ضغطه من الحزن حتّى قارب السقوط ثانيًا، حضرت عمّته تلبس السواد وتبكي، اعتصرته في حضنها فازداد نحيبه، اضطرت الطبيبة لحقنه بمخدّر للإبقاء عليه هادئًا لعدة ساعات حتّى تطمئن إلى حالته الصحية، باتت معه عمّته ونام هو حتّى ظهر اليوم الثاني، كان عليه المكوث في المستشفى لأيّام أخرى، يتابع ساعة حائِط فقد عقربها ذَنَبه، تدريجيًا شهدت حالته تحسنًا نسبيًا، وإن كانت نفسيته تسير في اتجاه معاكِس، أخبروه أنّه يُعاني خللًا في الأعصاب سيشعر معه بصعوبة في الإمساك بشيء، وبعض الرعشة قد تزوره مِن حين لآخر في شِقّه الأيسر، بِجانِب فقدان ذاكِرة مؤقت للأحداث القريبة زمنيًا، كان عليه التعايش مع العِلاج الطبيعي، والتعوّد على الأعراض، أغلب الأوقات كان صامِتًا كشجرة، في اليوم العاشِر صُرّح له بالخروج، وفيه تلقّى اتصالًا من القسم، كان رئيس المباحث يرغب في مقابلته،

لملم ملابسه التي حوّلتها عمّته للمستشفى وأنهى الإجراءات، كان عليه أن يستمع لبعض النصائح قبل أن يرحل ويعد بمباشرة حالته حتّى تستقِر، في الطريق ترجّته العمّة ليبيت معها، لكنّه أصر على الذهاب للشقّة، كان هناك أمين شرطة وعسكريان رابضان في مدخل البناية، يَستكملون بعض التحريات ويُحافظون على شكل القضية غير المحلولة، صَعد «طه» وسط عزاء الجيران: «شِد حيلك.. البقاء لله!» لم يعرف يومًا ردًا على تلك الكلمات، يهز رأسه مُتجنبًا الخوض في الوجوه، أمام باب الشقّة تردّد لثوان حين استعادت عيناه مشهد دخوله يوم الحادث، فتقدمت عمّته وفتحت الباب ودخلت تتلو آية الكرسي، صوت الشيخ عبد الباسِط كان يصدح في أنحاء الشقّة، تركت عمّته إذاعة القرآن تعمل طوال الأيام الماضية، وضع حقيبة الملابس وتصلّب أمام باب الغرفة الثالثة المغلق قبل أن يدخُل الحمّام ليغسل وجهه ويدلف غرفته، اضطجع لدقائِق قبل أن تدخل عمّته بفرخة محمّرة:

- لازِم تاكُل عشان ترم عضمك، أنت خاسس يا حبة عيني من الكولوكوز اللي عمّال على بطّال.

-مش دلوقتي يا عمّتي.. مش قادر.

دبّت العمّة إبهاميها في صدر الفرخة ففسخته نصفين: بطّل دلع يا «طه».. لازِم تاكل.. الحزن يا ابني ما يرجّعش اللي فات.. الدكاترة قالوا لو ما كلتِش النومة دي هتجيلك تاني.

لم يملك القدرة على مُجادلتها: طيب يا عمّتي.

استطردت: ليلة امبارح حِلمت بالمرحوم، كان لابس أبيض في أبيض، ووشه منوّر بدر، وماسِك في إيده سعفة نخل، السعفة في المنام نصرة ورزق وذرية صالحة، كان بيضحك وقال لي يا «فيوقة»، زي ما كان بيدلّعني، خلّي بالك من الواد «طه».. هيييييه.. يسكِنه جنّاته.

كان «طه» يدرك أحلام عمّته المحلّقة التي لا تنزِل أرضًا، إلا أن شعورًا خفيًا كان يراوده تلك المرّة بأنّها تحاول تخفيف ألم لا أكثر:

- آه بقول لك إيه، لمّا تروق كده عايزاك تطلع عند الجيران، تشكر البِت بنتهم، واجِب، لولاها...

- يا عمّتي الأعمار بيد الله.

- ونعم بالله، بس البنت تُشكر، دي سبب ربّنا بعته، لولا الأسانسير كان عطلان ما كانتش طلعت السلِم.

هز «طه» رأسه: هبقى أطلع.

- خد معاك صينية بسبوسة.

اتّجهت «فايقة» إلى المطبخ في حين قام «طه» للغرفة المغلقة، فتح الباب، كانت عمّته قد أضفت عليها لمساتها، أفرغت زجاجتين «فينيك» وأزالت الستائِر وغسلتها ورفعت السجّادة الذائِبة فظهر كنالتِكس الأرضية المتهتّك صيحة الثمانينيات، غطت المكتبة بملاءة بيضاء ووضعت حاملًا صغيرًا عليه مُصحف في مكان جلوس

«حسين» المفضّل بجانب الشبّاك بعدما طبّقت الكرسي المتحرّك ووضعته في ركن، منذ سنين لم ير جدران الغرفة بلا أوراق، زمن تعوّدت عيناه على مُلصقات والده الأشبه بورق الحائط: تعالى اشرب شايك يا «طه».

– فين الورق يا عمّتي، ورق بابا.

– بزيادة يا ابني.

– رميتيه؟

– لأ.. ده من ريحة أبوك، وكان فيه ورق عليه قرآن، وكتب قديمة كده شكلها أدعية، استحرمت، لمّيت كُل اللي على الأرض في كيس كبير وحطّيته في الصندرة.

– أمّي عرفت؟

بضيق أجابته: عرفت؟! هتِعرف منين.. هي دريانة بحاجة.. كُل واحِد في ملكوته.

اقترب «طه» من ركن الغرفة يتأمّل كرسي أبيه: أنا نازل.. هاروح القِسم.

– يا ابني الدكتورة قالت مفيش حركة، مش كفاية خرجت بدري؟ بص وشّك مخطوف إزّاي، أصفر كركم، كُل عشان تتقوّت وبعدين يحلّها ربّنا.

– مش هتأخّر.

اقتربت وأحاطت وجهه بكفيها: «طه» يا ابني.. اللي فات مات.. اللي بيروح ما بيرجعش مهمن حصل.. ادعي له بالرحمة.

ترقرقت عيناه قبل أن يقبل يدها ويرحل..

* * *

الفصل التاسع

قسم الدقّي..

ثلث ساعة في الانتظار حتّى دخل لـ«وليد سلطان»: مساء الخير يا «وليد» بيه.

- أهلًا يا «طه».. تعالى.

ضغط زر بجانب المكتب فقرع الباب عسكري.. دخل منكمشًا كمن فعل فِعلة: أؤمر معاليك.

التفت «وليد» لـ«طه»: شاي والا قهوة؟ والا أقولك فيه ينسون.. قرفة.. شاي أخضر.. كركديه.. ها؟

- ولا حاجة.. متشكر.

- ما ينفعش.

صرف العسكري بأطراف أصابعه: هات يا ابني واحد شاي أخضر وواحد كركديه.

كانت غرفته متوسطة الأبعاد أميل للطول، مَكتب عريض عليه أكثر من عشرين نوعًا من الأقلام وعدد من الدوسيهات ولافِتة نحاسيّة محفور عليها اسم ورتبة، بجانب مُصحف كبير وثلاجة صغيرة، وتليفزيون يعرض حلقة من المصارعة الحُرّة.

- وشّك أحسن النهارده.. سيجارة؟

سحب «طه» واحدة ولم يشعلها: كنت عايز أعرف إيه الإجراءات اللي تمّت؟ اشتبهتم في حد؟

في تلك اللحظة قرع الباب أحد أمناء الشرطة.. ضخم كضلفة باب بلا مقبض: «أبو ربيع» معايا برّه سيادتك.. أبو الواد اللي تعدّى علينا.

- هاته.. واستنى أنت برّه.. ما تقعدش تتنطط لي.

- يا باشا هيفتي ويحلف ويقول أي كلام.

صرخ «وليد»: أحه.. أنت هتعلّمني شغلي!

هرول أمين الشرطة سَريعًا إلى الخارج بعدما رفع يَده طلبًا للسماح والرضا..

دخل من الباب رجل هزيل مُتهالك تخطّى منتصف السبعينيات، يَرتدي بنطلونا بنيًّا خفيفا وقميصا أبيض: إيه يا «أبو ربيع»؟ وبعدين؟ «ربيع» مش عايز ييجي يزورنا والا إيه؟

بنظرات مرتعشة أجابه الرجل: يا باشا والله العظيم تلاتة...

- لا تقول لي تلاتة بالله ولا والنبي، الكلام ده برّه القسم؟

– همّا والله اللي أذوه، يرضيك يا باشا أمين الشرطة يقلب له الفرشة؟!

قاطعه «وليد»: ابنك واقف في مكان غلط، وبعدين يعني إيه يطيح في الأمنا؟ عامِل فيها أبو الرجّالة وبيضرب الحكومة، بـ(...) أمّه فاكرها سايبة؟

ابتلع الرجل السبّة: يَعني يا باشا فرشة «ربيع» هي اللي معطّلة الشارع! أمين الشرطة هو اللي بدأ، كان عايز ياخُد منّه نضّارة وشريطين كاسيت، «ربيع» ما قالش لأ، طلب كمان تلات نضّارات وشرايط للبهوات اللي معاه، لمّا «ربيع» قال له ده كتير، شاط الفرشة برجله، كسر له بضاعة أكتر من اللي كان عايز ياخدها، وقال له مش هتقف هِنا تاني، «ربيع» قعد يلم الحاجة من الأرض، الواد كان متغاظ، برطم بصوت واطي، راح الأمين شاتمه، قال له بتبرطم بإيه يا (...) أمّك، الواد سِمع الشتيمة دمّه غلي، أصله يتيم، قام زقّ الأمين، إتلمّوا عليه التلاتة ضربوه، ساب حاجته وجري، لمّوا الفرشة كُلّها تحت في القسم عند سعادتك، نصّها اتقلّب والنص دغدغوه، يمين بالله العظيم ده اللي حصل، أنا كنت واقِف.

خبط «وليد» المكتب براحته فانتفض الرجل: ما يخصّنيش أنت واقف والا مش واقف، الواد ييجي قبل النهار ما يخلص، لو ما جاش لوحده هجيبه بمعرفتي وهطلّع دين أمّه.. يلله.. اتكل على الله.

سَكت الرجل ولم يعقّب، سَحبه المُخبر في دخلة عَسكري وضع الأكواب وانصرف بعد إشارة من «وليد» الذي التفت لـ«طه»: تخيّل.. واد سارِح بفرشة يطيح ضرب في تلات أمناء شرطة.

– لو حد شتمني بأمّي هعمِل أكتر من كِده!!

– الأمنا اتعوّدوا على الوساخة من معاملة المسجّلين، أنا طبعًا شدّيتهم، ولاد وِسخة جعانين ما بيشبعوش، أصل مرتباتهم كلام فاضي برضه، هيعملوا إيه، كُل واحد في رقبته كوم لحم.

– بس دي نضّارات وشرايط، يعني كماليات، مش زيت ولا سمنة.

– ولو.. ما يتنطّطش.. الهيبة بتاعت القسم هتبقى في الأرض لمّا عيّل يفرّج عليهم الشارِع.. هيفتكروا الشرطة هفأ وكُل واحد يرفع راسه.. لو ما اتشدّوش كُل شوية يعمِلوا لنا مشاكِل.. واد زي ده لمّا يتأدّب يسمّع في بقيت زمايله.. المهم.. نِرجع لمرجوعنا..

قالها وبحث بين الملفات الموضوعة على مكتبه حتّى أخرج واحدًا مكتوبا عليه ٣٠٦٥ جنايات ففتحه: والله موضوعك ده يا «طه» قالب لنا المديرية كلّها، مدير الأمن بنفسه بيسأل عليه، الطب الشرعي فحصوا الشقّة، مفيش بصمة غير بصماتك أنت وأبوك، اللي دخل خبط، مفيش أي اقتحام، الباب سليم، واضح إن أبوك كان يعرفه.

– بابا كان بيفتح الباب لأي حد.. ما يقدرش يشوف العين السحرية.

– المهم إن الوالد خد خبطة أوّل ما فتح، فيه دم على حَلق الباب، ضربه بحاجة زي عتلة، الشخص اللي دخل كان لابس جوانتي طبّي، لقينا أثار بودرة على إيد الكرسي، يعني فيه سبق إصرار، زقّ الوالد لغاية الأودة بتاعته ودار على الشقّة كلّها ومالقاش حاجة فخد شوية

رفايع مالهاش لازمة، ده اللي عرفته من عمّتك لمّا سألناها، في الآخر رجع واستنّى يمكن ساعتين، مش عارفين الوالِد في الفترة دي كان فاقِد الوعي والا لأ، شرب سجاير ولمّ الفلاتر قبل ما يمشي، كان فيه طافية على الأرض.

لمعت الدموع في عين «طه»: يعني بابا كان عايش طول الوقت ده؟

- أعتقد.. يمكن يكون دار بينهم كلام كمان، بعد وقت، في حدود سَاعتين ضربه ضربة تانية جت من الناحية اليمين للوالِد.

- اللي ضرب أشول.

ابتسم «وليد»: براڤو عليك.. عرفت إزّاي؟

- بتفرّج على أفلام أجنبي.

أردف «وليد»: الضربة دي هي اللي أدّت للوفاة، أنت فاهم طبعًا، وحظّك إنّك جيت في التوقيت ده.

لم يتمالك «طه» نفسه.. تخيّل كُل كلمة تخرج من فم «وليد سلطان» كأن لها وقع النصل في القلب.

أكمل «وليد»: كان مستخبّي في الحمّام، دخلت أنت، ضربك، النزيف الجامِد خدعه، افتكرك خلصت، خد بعضه ونزل، وبعدين جالنا البلاغ.

حاول «طه» التماسُك: وبعدين؟

- أنا عرفت إن قبل الواقعة بيومين عَملت مَحضر إنّ «السيرفيس» كسّر الصيدلِية، حصل؟

- حصل.

- جبنا الواد اللي شغّال معاك في الأجزخانة، أكّد موضوع الإزاز، بس قال إنه ما شافش «السيرفيس» وهو بيكسّر حاجة.

قاطعه «طه»: أنا شفته.

- أيًا كان ده مش دافع.. حتّى لو في المحكمة المحامي يدفع بعدم معقولية الواقعة.

- كان واقف بيضحك، ماكانش فيه غيره في الشارع، عمل كده عشان ما رضيتش أدّيله أدوية جدول.

ابتسم «وليد» ابتسامة باردة: أنا جِبت «السيرفيس»، قال إنّه كان مع شخص في نفس وقت الجريمة تقريبًا، سألنا واتأكدنا إن كلامه صح، ومع ذلك بيّته في القِسم، لغاية ما عرفت إن مفيش حاجة تخصّه في الشقّة، «السيرفيس» ما يكدبش عليّا أنا بالذات، عشان عارف إن روحه في إيدي.

- هيبقى صريح في جريمة قتل؟! حضرتك إحنا طول عمرنا في حالنا، مفيش أعداء ولا أصدقاء، ولا حتّى قرايب، دي المرّة الوحيدة اللي يحصل بيني وبين حد مشكلة، عمري ما اتخانقت ولا آذيت، أنا بلّغت عنّه وقابلته في الشارع وعملّي كِده وقلّد «طه» حركة «السيرفيس» البذيئة..

- واد زي «السيرفيس» يمكن يخبطك بمطوة يعوّرك، يدّيك علامة، إنّما قتل دي كبيرة، ما يعملهاش، القضية بتاعتك صعبة يا «طه»، مفيش أداة جريمة ولا دافع ولا البوّاب شاف ولا فيه بصمة

معروفة، الموضوع هياخُد وقت، بس اطّمن أنا مشغّل القسم كُلّه، مدير الأمن كمان متابع، حظّك إنّك في وِش «محروس برجاس».

– ولو ما كنتش قدّام فيلا «برجاس»؟

– وبعدين يا «طه».

– لمجرّد إنه كان مع واحد صاحبه يبقى بريء، أكيد شمّام زيّه وبيداري عليه.

زفر «وليد» بملل: صاحبه ده مش هيستغفلني وما تلخبطش عشان أنت مِش عارِف أنت بتتكلّم عن مين.

– هو مين؟

– «محروس برجاس».

– طب وده إيه علاقته بيه؟!!

– قابله في المهندسين ليلة الحادثة وإدّا له طلب شقة إسكان شباب، الكلام ده تقريبًا في نفس وقت الحادثة.

– وده يثبت إن «السيرفيس» معملش حاجة؟

– اشرب شايك.

سكت «طه» لالتقاط أنفاسه، مد يده إلى الصينية، رفع كوب الماء إلى فمه حين اهتزّت أنامله فسقط الكوب بين قدميه متناثرًا..

مَعلش.. قالها «وليد» وضغط زِرا صغيرا فقرع الباب عَسكري انحنى ليجمع بقايا الزجاج..

أشعل «وليد» سيجارة جديدة: بص؛ أنت شاب مُحترم، بس خام، آخرك شركتك وصيدليتك، هي دي حدود حياتك، الدنيا يا «طه» واسعة أوي حواليك، يعني بالبلدي كده عشان تبقى عضو مجلس شعب لازِم يبقى عندك حاجتين، فلوس مستغني عنها، واللي يمشّيلك مصالحك، يلِمّ الأصوات، يهيّج الناس، يوزّع العطايا، ويبلطج لو طلبت بلطجة، هو ده «السيرفيس» بالنسبة لـ«محروس برجاس»، عشان كِده كلّم مدير الأمن يوصّيه عليه، لكن لو حس إن الواد ده فيه خطر مِن ناحيته هيكون أول واحِد يفوّره، مش هيعرّض نفسه للشبهة عشان واد زي ده إلا لو كان متأكّد إن مفيش حاجة عليه، ما تاخُدش الموضوع بشكل شخصي.

سكت «طه»، لم يعُد لديه كلام، كانت ردود «وليد سلطان» جاهِزة كمدفع رشّاش: القضية صعبة يا «طه»، الوالد كمان لوضعه الصحّي ما قاومش، يعني تقريبًا ما لمسوش، كنّا لقينا أي حاجة، بتبقى فيه خلايا تحت الجلد لو حَصل مُقاومة.

– بقول لحضرتك هدّدني في الشارع.. مفيش غيره.

– مِش مبرّر.

احتد «طه»: بقول لك مفيش عندي أي عداوة مع حد.

بدأ «وليد» يخبط بالولاعة على المكتب في خبط منتظِم: ده شغلنا يا «طه».. واللي دخل دخل يسرق.. باين من الملابسات.

– متهيأ لي حضرتك كِده بتمهّد لي إن القضية خلصانة؟

– قضايا القتل بالذات الشك فيها واسِع، دي روح بني آدم مش لعبة، مُمكن تسيب لنا الموضوع ده نِحلّه بمعرفتنا.

– قانون إيه ده اللي يسيب قاتِل لمجرّد إن واحد مَعاه حَصانة قال إنّه قابله.. إيه؟ نبي؟ مش ممكن يكدب؟

«وليد» بنفاد صبر: «طه» أنا مقدّر حالتك، بس القضايا مش بتمشي بالنيّة، النيّة دي في الجامع وأنت بتصلّي، الجريمة ليها شروط عشان تقدر تقبض على واحد، قانون، يَعني لازِم مبرّر وأداة جريمة وبَصمات وشهود عشان أقدر أقول هو ده.. و«السيرفيس» جاب شاهِد.. مش عاجبك القانون حِلّها أنت؟

– يا ريت أقدر.

استند «وليد» بظهره إلى الكرسي الجلد: أنا مش من مصلحتي إن القضيّة دي تتعطّل ولا تتأيد ضد مجهول، قضية واقفة يعني لقمة في زوري.. اتفضل أنت دلوقت ولو فيه جديد هكلّمك.

كانت التصبينة واضِحة جليّة، أمسك «وليد» بالتليفون وانهمك في مكالمة لا معنى لها.

قام «طه» يرمقه باستنكار: بعد إذنك.

رفع «وليد» يده في سَلام واه منشغلًا بالمكالمة حين انسحب «طه» في هدوء..

اتخذ الوضع الجديد ثلاثة أسابيع حتّى انحسرت التعازي، كانت آخرها وفود الشرقية، جاءت للمرّة الثانية بعد العزاء تلمّح بعروض الزواج من بنات العائلة: تلاقي اللي تغسلّك هِدمة وتعمل لك لقمة، بت غلبانة ونضيفة، عجينة طرية، لا لفّت ولا دارت كِده

والا كِده، جلدتها مقطوعة وهتشكّلها زي ما أنت عايز.. انسلخ من تلميحاتهم بلطف بَعد ما وعدهم بترتيب أوراقه والتفكير في أمر الجلدة المقطوعة! اضطرّت عمّته العودة لبيتها بعد أسبوعين، لم تستطع الغياب أكثر مِن ذلك، فبناتها يتركن أحفادها لتجالسهم حتّى يعدن من العمل، رحلت آسِفة بعدما وعدته بدوام المرور لملء الثلاجة بصنعة يديها.

مع الوقت خلا مَدخل العمارة من الخدمة الدائمة، لم يتبقّ غير مُخبر يأتي لساعتين في آخر النهار، يجلس على كُرسي ليحتسي الشاي ويخبط علبة السجائر «الكولوباطرا» قبل أن يختفي حتّى اليوم التالي..

في المرآة تابع جروحه تندمِل، انقشع الورم عن عينه تدريجيًا تاركًا ندبة صغيرة كتذكار، واستمرت رأسه جرداء على الزيرو لما لم يعد قادرًا على العناية بشعره، لم يزعجه سوى الأعراض التي تداهِمه بلا إذن، يَساره التي تخونه أحيانًا حين يمسك بشيء ليهوي إلى الأرض بعد رعشة تنتابه، وذاكِرته التي باتت هشّة كالرقاق، تنسى كثيرًا تفاصيل الأماكِن والأشخاص، اضطر لاستخدام خاصية مُنظّم المواعيد في تليفونه لعمل واجِب يومي كواجبات المدرسة، جرس يُذكّره بميعاد الاتصال بالسباك عشان المية اللي بتخُر.. شراء كارت شحن ٢٥.. جُرعة دواء يومية يَحرص على تناولها للحد من الأعراض التي تداهِمه بلا مُقدّمات بعدما عدّد له طبيب أعصاب ما قد يتضاعف منها: يا «طه» أنت مُعرّض لضَعف تحكّم في الأعصاب وتشنّجات، ويمكن يحصل هلوسة بس ده نادِر شوية، هكتبلك على (migrainil) عشان الصداع النصفي اللي بتشتكي مِنه، ويوميًا تاخُد قرصين (Stegron) وتبعِد عن المشاكِل والتوتّر.. وأشوفك تاني.

كان حصوله على الدواء سَهلًا، ملأ دولابه بمخزون يكفيه شهورا، خاصة دواء صُداعه النّصفي الذي يلازِمه كقرين، بات أميل للصمت، حتّى أصدقاء الشلّة أصبحوا أغرابًا، يتركونه سَاكنًا ككرسي مكسور يتحاشى الجميع الاتكاء عليه، يَهدر صراخهم في رأسه كمُحرّكات طائرة بضائع وهم منخرطون في لعب الـ(Fifa) لساعات، لا يَسأله أحدهم عن حاله، انفصلوا عنه وكأن بينهم عشر سنين من السّن، ملّهم وملّوه، هجرهم وانسحب من بينهم فلم يشعروا به، لم يتبق سوى «ياسِر»، سجين قهوة النيل، كلّما ضاق به الحال فر إليه، فلا زالت عنده القدرة على الإصغاء..

بخلاف ذلك زار «وليد سُلطان» مَرّتين، زيارات لم تسفر عن شيء يذكر، في المرّة الثالثة لم يَستطع مقابلته، انتظره لساعتين ثم رحل، قابل «السيرفيس» بعدها وجهًا لوجه أمام الصيدلية، كوّر قبضته، فسلّك الآخر أسنانه بقرن غزال فتحه في جبهته بحرفة راعي بقر، لعب بها بين أصابعه مُبتسمًا قبل أن يُغلقها بصوت جعل «طه» يعيد التفكير..

في البيت طلبته عمّته لتذكّره، مكافحة منها لتِلك الآفة التي تأكُل ذاكِرته كدودة القطن في موسِم الحصاد: إزيك يا حبيبي.. حِلو؟ بتاكُل كويّس.. عاملة لك صينية جلاش هتاكُل صوابعك وراها.. بفكّرك يا حبيبي تعدّي على الجيران اللي في الرابع تشكرهم.. واجِب.. بتقول حاضر وتنسى والناس هتاكُل وشّنا.. وأوّت نفسك وكُل كويّس.. وخف السجاير.. طيب يا حبيبي بالسلامة.

* * *

الفصل العاشِر

تَمايل عمود الدخان الأزرق صُعودًا إلى السّقف وهي تحاول عبثًا العثور على جملتها الأخيرة، نهاية المقال، تتربع في كُرسي غاطِس تطوي قدمين عاجيتين يتوّجهما (T-shirt) واسع.. سَحبت نفسًا أخيرًا من زغروف مخروطي قبل أن تنفُخ خُصلة حمراء انسدلت أمام عينيها، دفنت ما تبقي من لفافتها في مطفأة بعدما أثنت في سرّها على دبّوس الزيت ثم مدت يدها على لوحة مفاتيح الـ(laptop) وكتبت ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.. أكبر جريمة ارتكبت في العقود الثلاثة الماضية كانت تفريغ العقول، طمس الفِكر وتسييس القناعات، ويومًا ما سيتولى التاريخ مُحاكمة مرتكبيها... ثم ختمت المقال بتوقيعها «سارة العقبي»..

مثيرة مع سبق الإصرار والترصّد.. هكذا أجمع المقربون والزملاء وأصدقاء الـ(Face book) وشباب الحي الذين لا يكفّون عن إطلاق عبارات الثناء والتبجيل حين يرونها بدءًا من «مَصر عليت.. يا رب تقعي ونشيلك.. أكيد بتشتغلي في مصر للطريان».. خريجة كلّية

إعلام قِسم صحافة، تعمل في جريدة مُستقلة وأخت كبرى لـ«تامر»، فتى الثانوية العامة، طراز مَسلول رفيع يَحتفظ بشارب المراهقة المؤقّت فوق شفتيه، وسكسوكة أشبه بمقبض الشوفنيرة في ذقنه، يرتدي حظّاظات ويُدلي بكمر بنطلونه لما بعد الأمبولة بقليل..

الأبوان يَعملان في الكويت، ويَعودا في إجازة سنوية هي أطول فترة تقضيها «سارة» في صراع حول تعريف الحرّيات، ليرحلا كما جاءا تاركين الأموال والهدايا وبعض النصائح الباهِتة حتّى حلول إجازة العام التالي..

كان الوقت ظهرًا حين قرع شخص الباب، فتح «تامر»: مساء الخير.. أنا جاركم «طه» اللي في الدور الـ...

كان واقِفًا يمسك بعلبة جاتوه.. قاطعه تامر في عجلة: آه.. أهلًا.

- ماما أو بابا موجودين؟

صَرخ «تامر» كأنما دهس أحدهم قدمه: ساراااااا... ثم أسرع يقرع باب غرفة أخته المُغلق من الداخِل: شوفي مين على الباب.

سحبت «سارة» نفسًا أخيرًا وارتدت بنطلونا ولفّت إيشاربها قبل أن تتجه عابسة إلى الباب: أيوه.

حاول «طه» العثور على نبرات صوته حين رآها: أنا «طه».. جاركم اللي...

ابتسمت: أيوه أيوه.. اتفضل.

- مفيش داعي.. أنا بس كنت جاي عشان...

قاطعته بابتسامة: مِش هتتكلّم على الباب؟ اتفضّل.

برأس منحنية دخل، قادته لحجرة معيشة ارتمى فيها «تامر» على مخدّة كبيرة أمام تليفزيون ليلعب (Play Station)، جلس «طه» بجانبه في حين اختفت «سارة» لدقائِق قبل أن تعود بكوب عصير: مفيش داعي.. أنا بس كنت عايز أشكرك...

اقتربت «سارة» مِن وجهه تتفحصه: واحِد تاني غير اللي كان في الأجزخانة!!

تورّد وجهه فأردفت ملطّفة: حمد لله على السلامة.

- مُمكن تحكي لي إيه اللي حصل.. يوم الحادثة.

صرخت في تامر ليخفض الصوت قبل أن تبدأ السرد.. لم ينزِل «طه» عينيه عن عينيها: كنت جاية من مشوار ولقيت الأسانسير عطلان، وأنا طالعة السلّم سمعت صوت مكتوم زي أنين، خفت ليكون حد عيّان، خبّطت على الباب، مَحدش فتح، ناديت على «منصور»، جه وكسر الباب، افتكرتك مت، يومها البوليس قعدوا معايا ساعة، لوكلوك لوكلوك، وعرفت أنّك رحت المستشفى، ها هتِدفع كام؟

- نعم!

- مِش أنا أنقذت حياتك؟

مَسح جبهته وابتسم: أيوه.. صح.

أردفت: أنت خريج إيه؟

– صيدلة.. وبيشتغل في شركة أدوية.. وفي صيدلية د.«سامح»..

– الأخرانية دي أنا عارفاها.. وبتعاكِس الزباين.

فلتت منه ضحكة لا إرادية: يعني.. قام وحيّا «تامر» بتحية لم يردّها خوفًا من الـ(Game over)، ومشيا إلى الباب: أنت برجك إيه؟

– دلو.. ١٤/ ٢/ ٧٨..

– عنيد ومتسرع ونيرفز.. بس جدع وذكي.. ومولود يوم الفلانتاين.. بس ما بتعرفش تِحِب.

– مُهتمة بالأبراج؟

– حاجة بصنّف بيها الناس.. ثم مدّت كفّها في طفولة: أنا برج الجوزاء.. ٥- ٦ - ٧٨.

صافحها «طه»: يوم النكسة.. فرصة سعيدة.

– شكلك مثقف.. مِتابع جرايد؟!

– مِش الأيام دي..

– أنا بكتب في جرنال «أمل الوطن».. صفحة السياسة.. ليك فيها؟

– هي إيه؟

– السياسة!!

– ساعات..

– طب عايز العلبة دي في حاجة؟

تدفّق الدم المتبقي من بعد الحادث في وجهه كطمطماية توشك على الانفجار.. كان لا يزال مُمسكًا بعلبة الجاتوه: سوري.. نسيت.. مش مركّز..

ضحكت «سارة» فازدادت جاذبية: بهزّر..

ناولها العلبة فحاولت تهدئة انفعاله: بطّلت تعزِف درامز؟

هز رأسه إيجابًا: من ساعة الحادثة.

– مَصائِب قوم عِند قوم. عامة أنا كُل يوم حد في (Cairo Jazz Club) في سفنكس.. ليلة الـ(Jazz) أحِب أشوفك.. ليك عندي عزومة.. وابقى بُص على المدونة بتاعتي.. اسمها «أصوات الحُرية».

– هشوفها.. سلام.

لم يتخيّل زيارتها يومًا، في بيتها!! دوقي دوف!!! ويكون على ذلك القدر من الأومليت، بِرُدوده المبتورة وحركاته المهزوزة، وحاله التي لا تسمح بتواصُل، ابتلع صَمته بلا كوب ماء وانتظر ذاكرته المتداعية أن تمارس وظيفتها وتمحي تفاصيل العار، بمرور الأيام لم يتبق إلا شيء في عينيها كان كاف لجعلها حاضرة، رغم لزوجة الحزن تومِض كطيف عابِر، تقتحِم حياته بلا استئذان..

حياته التي تتسرّب حثيثًا من تحت قدميه..

* * *

مع الوقت تراجع أداؤه في الشركة كما تراجعت نسب الدهون في جسده، أصبح نَحيلًا كمَصّاصة مُستعملة، وجبة يوميًا وعِدّة أكواب

من النسكافيه تفقدانه الشهية، يَغسل مَلابسه قبل أن يكويها وشهريًا
تأتيه «أم فتحي» لمسح الشقّة، يبتلع أقراصه لتتّزن أعصابه ويُنهي
عَمله بعد طواف مُهلك طوال اليوم بداخِل بذلته المبتلّة عرقًا وحذائه
المكتوم، يلتقي بكِميّة لا بأس بها من الأطباء المُمتعضين، يُحاول
استمالتهم لدواء غير مقتنع به قبل أن ينهي يومه في الصيدلية، ثلاثة
أيام في الأسبوع حتى الساعات الأولى من النهار، عدا ذلك يدخل
غرفته، يقِف أمام الشبّاك ينفث البُخار على الزُجاج، ينتظرها خلف
الستائِر، يرفع نظّارة أبيه ليتأمّلها عن قرب حين يصادفها، «سارة»
التي داوم شاب يتسكّع يوميًا في الميدان على مضايقتها، يمشي
بسيّارته الـ(BMW) بجانبها رافعًا صوت الكاسيت حتّى يحكّ الرفرف
الأيسر بمؤخرتها، تسرع إلى مدخل العمارة بعدما ترميه بنظرة حادة
وكلمات لاذعة، غريب أمر تلك الفتاة، تريد أن تكون مُلفتة دون أن
يلتف الذباب حولها!! يقضي وقته بعد ذلك في تأمّل زوّار الميدان،
روّاد «توت إكسبريس»، محل عصائر ووجبات جاهزة أنزل الصخب
بالميدان الهادئ، توضع الشيش بجانِب السّيارات ويَطير الدُّخان
مع أصوات الشباب المتصايح حين تحضر سيّارة تحمِل باقة من
الفتيات، يُطفئ النور ويتابع النداءات وتبادل الإشارات وارتفاع
الإيقاع في نشوة حين يظفرون ببسمة أو غمزة، ليتطوّر الأمر في
بعض الأحيان لـشأطة.. فيما عدا ذلك يلتقط كتابا من مكتبة والده،
ينفض عنه التراب ويجلس فوق الكنبة المتهالكة ليطالع تاريخ لم
يَعشه، ينقاد خلف آلهة وحوريات تسلبه وقته وأنفاسه، يستغرق
فيها متعقبًا قلم والده الذي تمشّى يومًا فوق تلك الصفحات دراسة
ووضع العلامات تحت بعض الفقرات، ينسى الحزن الكامِن حتّى

تنطوي ضفّتي الكتاب حين تتسرب عيناه رغم إرادته لباب الغرفة
الثالثة، يرمقه لثوان قبل أن تعبر فوق جِلده قشعريرة، فيرتدي ملابسه
ويتسرّب إلى الشارع هربًا..

بَعد ثلاثة أسابيع علِم مُصادفة بشأن حِفظ قضية والده ضِد مَجهول
لعدم وصول التحقيقات إلى نتيجة، لم يستطِع ابتلاع المسمار الصدئ
الذي انحشر في حلقه، كما لم تسفِر زياراته الملحّة للقِسم عن شيء
يرضيه، بكى كما لم يبك وقت الوفاة، كأن أباه قتل مرّة ثانية، يرى
«السيرفيس» أمامه مبتسما ابتسامته العفنة، لا يغيب عن مخيّلته،
حائلًا في حياته التي تيبّست ككائِن مُحنّط، ثقل حديدي يجذبه لقاع
بركة وأيّام متشابهة كتوائِم سيامية، نمطية تعيد اليوم بكل تفاصيله
كآلة عرض السينما، نفس الأبطال ونفس المشاهِد ونفس النهاية!
لا يقطع روتينه سوى زِيارة مفاجئة بصينية بطاطس من عمّته أو لقاء
في القهوة ليلًا، ينفخ فيه الدخّان مع «ياسر»: أمّي دايمًا تقول كُل
قتيل عليه إيه؟ قنديل.

سحب «طه» نفسًا من تفّاحته: قنديل إيه بس الله يحرقك بجاز..
أنت بتسجّدني، بقول لك القضيّة اتأيدت ضِد مجهول، كُل سنة
وأنت طيّب.

- يا عم الكيس فهمت، طالما القضية دخلت ضد مجهول، مش
هتتفتح ولو عملت قرد، إلا لو ظهر حاجة جديدة.

- يعني إيه؟ الحيوان يفضل رايح جاي قدّامي كِده؟ أنا هتجنّن
يا «ياسِر».

- لازِم دليل وأداة ودافع و...

- وواسطة ومعاملة زي الزفت.

- عندهم زي حالتك ميت حالة.. عايزهم يعمِلوا إيه بالظبط؟

- أحس باهتمام.. باحترام.

- في البلد دي؟ مش عايز أسمع منّك الكلام ده تاني.. اسحبه يا زميل.

- طب بلاش، يجيب «السيرفيس» يضربه، يعلّقه زي ما بيعمِلوا، هيقول.

أشار «ياسر» بيده لحامل الفحم: ولِعة يا «حمدي» ثم نظر في ساعته قبل أن يمد يده في جيبه ويخرج شريطا ابتلع مِنه قرصين وعرض على «طه» الذي امتنع قبل أن يُكمِل: الموضوع ده كان زمان، دلوقت «السيرفيس» ده هو اللي يحبسه، شكوى في مكتب حقوق الإنسان، تحقيق ومع السلامة، أصل في بلاد برّه ماسكين لنا في السكّة دي، تعذيب ومُعتقلات، ديمقراطية وحقوق الإنسان وانتخابات نزيهة والكلام الفاضي ده.

دلّك «طه» فروة رأسه العارية: إيه الخرة اللي أنت بتقوله ده؟!!

- مش مصدّق أنت! مَوضوع حقوق الإنسان ده ريّح الظابِط، ما بقاش مَطلوب مِنّه لا يجيب معلومات ولا بتنجان، يقفّل مَحضره واقلب على النيابة، إن شالله يكون المتّهم مُسجّل وعامِل عشر جنايات، آخرتها هيعترف بواحدة من غير ما ينطّقوه، وإذا كان بطّيخة يشيّلوه تلات أربع قضايا مش بتوعه، والظابِط أصلًا مش طايق المواطن خِلقة، واحِد زيّك تقيل على قلبه ومفيش مصلحة وراه، زي العيّل

المعفّن اللي كُل شوية يجيلك ببربوره ويقول لك امسح لي، يعني قرف، كمان هيشتكيه؟ دلوقتي بيطلّع له لسانه ويقول له اشرب يا روح أمّك، مش أنت اللي عاملي فيها عم الرقيق وحقوق وما حقوقش، خلّي المسجّلين يكلوك، وضد مجهول بقت سهلة زي السكينة في الحلاوة، عرفت ليه الظابط بتاعك كبّر دماغه؟

- أمّال هُمّا فاتحين نفسهُم في إيه بقه؟

- المصالح الكبيرة يا عم الدكتور، تأمين مواكِب، سفارات، عناصر ضد النظام، تأمين مظاهرات، والانتخابات، هو ده مُوسِم المشمش يا برنس، قبل النايب ما يبقى نايب بيرش عشان يتظبّط، وبعد ما يبقى نايب بيرش عشان يفضل برضه مِتظبّط، شوية الكبار اللي في الدايرة كمان بيروّقوا الأناني، حاجات كده زي مُرتبات شهرية يضمنوا بيها القرب، من أوّل الأمين للمَعاون فما فوق، وقصاد كِده يطنّشوا واحِد عليه مشكلة، يتصهين على شوية تجاوزات، واحِد من الحي مرخّم يوصّوا عليه، كِده يعني، وكلّه على مُستواه، يعني فيه ناس بتبعت كُل يوم طقم كباب، وفيه ناس بتجدّد القسم رخام وسيراميك على حسابها، وفيه ناس بتهادي عربيّات! ده بيسمّوه السيطرة، سيطرة الظابط على منطقته، كُل ما تلاقي الدنيا متروّقة تِعرف إن الدايرة اللي حوالين القسم بتقدّم فروض الولاء صح، وطبعًا فيه استثناء، مش كلّه وساخة يعني، فيه عيال برضه ولاد ناس، بس الوِسخ أكتر، من الآخِر البلد دي مالهاش توكيل، ماشية بدعاء الوالدين.

- خلاص.. كُل واحِد ياخُد حقّه بدراعه.. طالما اللي فوق مش شايفين اللي تحت.

- في ظروف زي دي كلامك شِبه صح.

سكتا فأغمض «طه» عينيه مُحاولًا طرد نوبة صداع نِصفي تهاجم رأسه، أفرغ كوب مياه على الأرض وحجز بأصابعه الثلج قبل أن يضعه على جبهته ليقلّل النبض المؤلم حين سأله ياسِر: إيه يالا.. ما لك؟

- صداع.. من ساعة الحادثة.. بيموّتني.. سيبك.. أخبارك أنت إيه مع مراتك؟

- نِحمِده..

- كويس.

- لأ.. أقصد هي بقت تدّي على نِحمِده.

نظر له «طه» لثوان قبل أن ينفجِرا ضِحكًا فأردف «ياسِر»: يا أخي كنت واد مخلّص، أبّص على الفرخة كِده من بعيد، أقول لك دي دكر والا نتاية، فِعلًا، كتيف الخره اشترى له معلقة نياهاها...

ابتسم «طه» ابتسامة مُحتضرة: عيّل معفّن..!!

«ياسر» كان الوحيد القادِر على إخراجه قليلًا من حالة الجمود، ينتشله من بين أنقاض الكآبة التي تخيّم على حياته كرطوبة شهر أغسطس اللزجة، قبل أن يتركه مُحاصرًا بطرقات الصُداع النصفي.. وشهيقه المتواصل.. بلا زفير.

* * *

الفصل الحادي عشر

بعد يَومين.. وحين لمحها قادمة تذكّر وصف أبيه لـ«تونا»، كم تشبهها، كأنّه يحكي عنها، شعرها الأحمر الداكِن المتسلل من تحت حجابها، عنقها الطويل، أطرافها الدقيقة، خصرها، عينيها، مدونتها على شبكة الإنترنت!! كيف نسى تِلك الصفحة التي لا بد تحمِل الكثير عنها، بحث حتّى وجدها.. «أصوات الحُرية»، مدونة تزدحم باللافتات مِش هننسى مذابِح الأسرى المصريين...غزّة عار العرب، صُورة كبيرة ليدين مُكبلتين بالأصفاد ومكتوب تحتها لا للتعذيب، ثم موضوع مليء بصور المظاهرات وتحته كُتب ٢٧ سنة ولا زال الـ...أوء أوء... كان ذلك الصوت المتقطّع لنافذة المُحادثة، فتحها ليجِد «ياسِر» واضعًا صورة قديمة منذ الثانوية لا تُغري ذبابة فاكِهة على الدخول في حوار: ياسميييييين؟

شخص ما كان في حاجة لقرصة أذن!!

هبطت الفكرة قديمًا على رأس «طه» بعد محادثة مع ياسِر حكى فيها عن علاقته المتداعية مع زوجته «داليا»، لم يكُن من الصعب

بالبحث تحت مسمّى صور فاضحة العثور على صاحِبة وجه لا يقاوم، اختارها مِصرية الطراز، شعرها داكِن وخمرية، من فئة الصواريخ عابرة القارات، استأصل النصف الذي يظهِر فيها صدرها عاريًا، وصنع لها تاريخًا خاصًا قبل أن يطلق عليها «ياسمين» ويسنّها بثلاثين، بدا مناسبًا لـ«ياسِر» الذي استقبل دعوة صداقة مذيّلة بكلمة (Hi).. تلك الكلمة التي تشبه نداء الجنس لدى الضفادع، يسمعها ذكر الـ(Face book) من الأنثى فيهرع إليها كالمربوط بحبل، دقائِق ووصل ردّه مؤكّدًا موافقته وتضامنه مع القضية الياسمينية، من يومها وهو يرقد على الـ(Face book) كدجاجة فوق بيضها، يتلهّف على كلمة منها، يحكي لها ما لا يقوله لنفسه، تعده بوعود «شهرزاد» لـ«شهريار» قبل أن ترحل بغتة حين يأتي زوجها.

– وحشاني.

– جيت من النيابة أمتى؟

– لسّه مخلّص من ساعة.. وزير العدل أصله ندهني.. رغي ومشاكل.. الحمد لله.. إنتي أخبارك إيه؟

– أنا كويّسة.. واحشني.

– مش هنتقابل بقى.. هنقضّيها شات.. عاوز أشوفك.

– ما أنت عارف جوزي صعب.. ادعي لي.

– طب إنتي ساكنة فين في ميدان فيني.. أنا في أوّل شارع «التحرير».

– أرجوك.. مش عاوزة مشاكِل يا «ياسر».. أنت مش متخيّل أنا قد إيه خايفة وأنا بكلّمك.. ولازِم أقفِل دلوقتي عشان جوزي جه.. باي.

لم يمهله «طه».. أغلق الصفحة على أصابعه واستغرق في نوبة ضحك لم تداهِمه منذ زمن.. دقيقتين ثم هدأ.. وقف صامتًا أمام الزجاج يتأمّل ملامح وجه لم يعرِفه، تداعت بِداخِله الأحداث فجأة وازدحمت علامات الاستفهام.. هل يتناسى ما حدث؟ رعشة غريبة ألمّت به حين عبث بداخِله هذا الخاطِر.. باغتته ملامِح أبيه.. صموتًا كما كان دائمًا.. إلا أن عينيه تحمِل عِتابًا.. عتابًا يذكّره بشيء.. الأوراق.. أين الأوراق؟ ألو.. عمّتي.. الله يخلّيكي أنا كويس.. لسّه جاي من الشغل.. آه باكُل كويّس.. بقول لك.. ورق بابا فين.. في الصندرة.. آه صح إنتي قلتي لي.. والله باكُل يا عمّتي.. سلام.

وضع «طه» كُرسيًّا في الطرقة الضيّقة وصَعد.. بصعوبة استخرج كيسًا منتفخًا كمنطاد.. جرجره كعامِل نظافة مجتهد إلى غرفة أبيه.. جلس على الأرض حتّى انقطع الإحساس عن قدميه.. أبيه كان يحتفظ بكل شيء.. حتّى أوراق الدروس والمناهج التي درّسها.. قام ينفض التنميل عن قدميه حين لمع ذلك البريق على الحائط.. بريق معدني أتى من انعكاس يد الكرسي المتحرّك الموضوع في ركن الغرفة.. يناديه.. أخذ نفس عميق قبل أن يتّجه إليه.. سَحبه وفتحه.. أحياه وأرسى عجلاته على الأرض.. اتّجه به حتّى الشبّاك.. راعى العلامة الداكنة التي صنعها المقبض حين كان يحتك بالحائِط.. وضعه بالضبط حيث كان يحمِل سيّده القديم.. تأمله لثوان.. في كُل تلك السنوات لم يجرّب مرّة الجلوس عليه.. كان أبوه ينهاه تشاؤمًا وكأن العلّة ستنتقل إليه.. جلس.. ضم رجليه ووضعها فوق مسند القدم.. حرّك العجلات إلى الأمام قليلًا ثم إلى الوراء قبل أن يتوقّف.. مَد يده للكيس يغترف ما في جوفه حين أدرك لِمَ أخفت عمّته تلك

الأوراق والكتب دون غيرها.. كانت ملطّخة بالدماء.. اقشعر بدنه وهو يتأمل تلك النقاط الداكنة المنتشرة على الأغلفة.. لامسها بأنامِله ثم كحتها بأظافره فأبت الخروج من نسيج الصفحات.. بنى تلًّا بجانبه نقل إليه ما فحصه.. تذاكِر سينما.. أوراق في التاريخ.. صور لأبيه صغيرًا بين إخوته.. صورة بجانب «فايقة» يحتضنها.. وجنديًّا نحيلًا لفحت الشمس وجهه.. وصورة مع «سليمان اللورد» وقت افتتاح محلّه قبل أن يصير متجر خمور.. بطاقة عسكرية تحمِل رتبة عرّيف.. وصور مع والدة «طه» تحت برج الجزيرة وفي حديقة الأندلس وساحل البحر في الإسماعيلية.. إيصالات تسليم مبالغ للريّان.. شهادات طبية وروشتّات.. كشكول أكبر من مائة صفحة ملصق فيه قصاقيص أخبار الجرائِد منذ بدأت أزمة الريّان حتّى طرح سلعه بأسعار مضاعفة لسداد ديون المودعين.. ثم أخبار متفرقة لا تربطها رابطة بدءًا من الحرب حتّى سقوطه مشلولًا في سبتمبر ٨٩.. كانت هناك أيضًا كتب عن الحملات الصليبية.. أسرة «محمد على» وحتى ثورة يوليو.. كتب في النجوم والأبراج وتفسير الأحلام لـ«ابن سيرين».. قصاصات قديمة مهترئة مليئة بوصفات الأعشاب.. ومظروف أصفر عتيق يحمِل اسم مجوهرات «ليبتو» وعنوانه بحارة اليهود.. فتحه ليجِد صورة صفراء بها شخصان.. لم يكُن من العسير معرفة الأول.. كان جدّه.. يرتدي جلبابا تحته صديرية والآخر كان رجلا قصّ أحدهم رأسه بمقص غير مسنون.. وجد كذلك كمًّا من الرسوم بعضها مفهوم لطيور وأشجار ومراكب شراعية والبعض مبهم، دوائِر متداخلة لا نهاية لها ومُربعات منتظمة وخطوط محفورة تكاد تخرق الورق.. بعد ساعتين لم يتبقَ تحت قدميه من ركام سوى

كتاب ضخم زيّنت زخارِفه الفرعونية بقعات دم متناثرة وعنوان: «الخروج إلى النهار.. كتاب الموتى».. فتح «طه» أوّل صفحة، بخطٍّ صغير وجد ترنيمة لحورس:

أنا ابنك المحبوب حورس..

أتيت لأثأر لك يا أبي أوزوريس من كل ما فعله الشرير ست..

لقد وضعت عدوّك تحت قدميك إلى الأبد يا أوزوريس الظافر..

لم تدهشه تلك الصفحة، أدهشه ما كان في ظهرها، فالكتاب كان محفورًا من الداخِل، مُستطيل مُجوّف كالتابوت وكأن شخصًا انتزع قلب الكتاب من مكانه، وبدلًا منه وضع دفترًا أحمر قانيًا يرجِع لسنة ١٩٥٢، يحمِل شعار المملكة المصرية، ومن الداخِل صورتين متقابلتين للملك والملكة، ثم صفحتين لأبرز العبارات الخالدة لبعض الساسة والمفكرين وإرشادات عامة وأعياد الدولة الرسمية، أخرج «طه» الدفتر من مخبئه قبل أن يضع الكتاب جانبًا، فتح أوّل صفحة، لم يكُن من العسير إدراك أن الخط المنمّق كان لوالده، الصفحات الأولى حكى فيها عن أبيه وأمّه وأشقائه، شيء أشبه بخواطر تدور في محيط حياته المحدودة، بلا تاريخ لبدء الكتابة، فقط تدوين عشوائي غير منظّم، تارة بالعامية وتارة بالفصحى، حكى عن «حنفي الزهّار» جدّه: وقفته في الدكّان، حبّه للست «أم كلثوم» وحواديته المرعبة ليلًا على ضوء لمبة الجاز، ثم وفاته المفاجئة. حكى بعد ذلك عن عمله مع «ليبتو»، وكيف أصبح بارعًا في تلميع الذهب والماس، حكى عن «تونا» بنت «ليبتو»، حبّه الصامت وسِرّه الذي لم يتعد قفصه الصدري، ذكر «فوزي» زميل الدراسة الذي دهسه الترام، و«حمدية» بنت الخالة

التي هربت مع «صبري ابن سامية الخيّاطة»، ثم بدأ يتحدّث عن القصف الجوي الذي حدث صباح الأول من نوفمبر سنة ١٩٥٦، رابع أيام العدوان الثلاثي، والذي سَقطت على أثره هوائيات الإذاعة المصرية في «أبو زعبل»، مما أدّى لانقطاع الإرسال الإذاعي: أول مرة أحس إني خايف لمّا الإذاعة سكتت.

بعدها بساعتين عادت الإذاعة من شارع الشريفين.. صوت «فهمي عُمر» قال: هُنا القاهِرة.. بعدها سمِعنا الريس «جمال» من «الأزهر»: الله أكبر.. سنقاتل.. سنقاتل.. ولن نستسلم.. الويل للغزاة الغادرين صوته كان حلو أوي.. خلاني ألِف على دكاكين الوكالة اللي مافيهاش رداوي.. وأحكي لهم اللي قاله.. وعزمت يومها «فايقة» على حاجة ساقعة وجبت لنفسي كوز عسل أحمر.. من يومها الريس ساب لنا هدية.. إذاعة «أم كلثوم».. كُل يوم من خمسة لعشرة.. يومها كمان مات بابسي.. القطّ بتاع «تونا».. آخر أيامه كان بيزوم.. قبلها بأسبوعين كانت بدأت تبان عليه علامات غريبة.. بيبخ ويخربش.. «أم تونا» قالت فيه حد هيموت في الحتّة.. وفي الآخر خربش «تونا» خربوش جامِد في رجلها خلاها زي النار.. لكن اللي خلاها تعيّط إن أبوها قال لها الأوط ده لازِم نسرّبه عشان بيتسِعِر.. عصلجِت وأوِّتت.. وعم «البيتو» ما كانش يحِب يزعّلها.. تاني يوم قال لي هات شوية بودرة وتعالى البيت.. كان يقصد «بودرة الماس» اللي بنلمّع بيها.. رُحت له.. مد أيده وخد شوية ورشّهم في فتّة اللبن بتاعت بابسي: إيه ده يا عم «البيتو»؟

- ششش.. ماتجيبش سيرة لـ«تونا»، سَاعات بنعمِل غلطات صغيّرة عشان نصلّح غلطة أكبر، «تونا» بتحبّه، بس القط ده هيئذيها.

- مِش فاهِم!

بعد أسبوع فهِمت.. أخذ القط يتلوّى ويزوم ويتقيأ دِماء كجريح حرب ابتلع لغمًا، حتّى «تونا» خافته ودعت له بالرحيل، صبيحة يوم ضرب الإذاعة مات القط، حزنت عليه صاحبته الفائرة لأيّام، ازدادت فيهم جمالًا وهي عابثة، ثم نست تدريجيًا وكأن شيئًا لم يكن، رجعت تضع المساحيق وتلبس الفستان الأحمر مفتوح الصدر، وخلخالها الذي يزيّن أرجلها مُتورّدة الكعبين، تضحك فأبقى عايز أحضنها لولا بس الشيخ قال حرام...

استمر «حسين» في سرد أول أيام الحرب من وجهة نظره حتّى تغيّر الخط تغييرًا جذريًا.. خط رديء غير منظّم.. صغير بدرجة ملفتة.. بدا في مرحلة أخرى من حياته.. خط لا يريد أن يقرأ: يوم الجمعة كنت عند عمّ «البيتو»، كنا بنسهر عنده كُل أسبوع عشان صابح السبت أجازة.. الساعة تِسعة ونص سمِعنا صفّارة متقطّعة.. غارة.. قمنا قفلنا الشبابيك وطفينا النور.. كنت أنا و«فايقة» و«تونا» وأمّها وعم «البيتو».. الغارة طوّلت.. سمِعنا صوت الطيّارات والمدفعية المضادة.. كانت غارة صهاينة وانجليز.. بطيارات «موستانج» و«سي فيوري».. بس إحنا كان عندِنا «الميج ١٧».. الريّس قال الويل للغزاة.. الضرب كان قريّب.. فجأة عمّ «البيتو» قام خبط على دماغه: يا نهار إسود نسيت لمبة السطح، لمبة عشّة الفراخ.

فتح الدولاب وأخرج كشّافا: مَحدّش يتحرّك.

قلت له: آجي معاك؟

قال: مش هنسيب البنات لوحدهم.. خُد بالك لغاية ما آجي.

طلع عم «ليتو».. بعد دقايق سمِعنا هبده جامدة وصوت إزاز بيتكسّر.. خفت على عمّي.. جريت على السطح.. طلعت له بسلّم صُغيّر من فتحته الضيّقة.. طلّيت بدماغي الأوّل عشان أطّمن عليه.. دي كانت أول مرّة أشوف السما وقت الغارة.. كان فيها صوت فرقعة زي الرعد.. وكشّافات بتلف يمين وشمال تدوّر على طيارات العدو.. ما كانش فيه حد يستجري يطلع أبدًا على السطح في وقت زي ده.. عم «ليتو» عملها.. قلبه جامِد.. على شمالي كان واقِف.. جنب عشة الفراخ اللي نورها كان لسّه منوّر!! كان بيعمِل حاجة غريبة.. مسلّط الكشّاف اللي في إيده على السّما وعمّال يشاور بالنور.. ما فهمتش.. ندهت عليه.. لمّا شافني زي ما يكون شاف عفريت.. نزّل الكَشّاف وطفى لمبة العشّة وجري عليّا: إيه اللي طلّعك؟ أنا مش قلت ما تسيبش البنات.

– خفت عليك.. أنت بتعمِل إيه؟

– ولا حاجة.. بتفرّج على الغارة.

لم يبد عم «ليتو» نفسه مقتنعًا بما قال فسألته: بكشّاف؟

نزل «ليتو» على ركبتيه حتى أصبح في محاذاة رأسي: ما ينفعش نتكلّم عن الموضوع ده مع حد ثم عبث بشعري: ماشي يا «حسين»؟

بعد يومين جت عربية فيها أربع عساكر وضابِط، طلعوا بيت الأستاذ «بيساح» بتاع الفرنساوي.. أخدوه.. فضل ساكِت زي ما يكون ميّت له ميّت.. عرفنا من الجرايد بعد كده إنّه كان بيساعد الصهاينة.. بيعمِل علامة لطيّارات العدو بكشّاف من سطح بيته عشان ما يضربوش حارة اليهود.. يومها ما نِمتش دقيقة لمّا عِرفت «ليتو»

كان بيعمِل إيه.. ويومها شفت الخوف في عينيه.. فضل حابِس روحه جوّه المحِل ما بيخرجش.. ما بيقابلش زبون.. كان طول الوقت بيبُصّ لي.. هو عارِف وأنا عارِف.. ندهني.. هزّر معايا: مش لو كنت كبير شوية كنت جوّزتك «تونا»، أبوك كان نفسه يناسِبني، أبوك كان حبيبي الروح بالروح.

لم تُجد مُحاولاته نفعًا.. ما كنتش عارِف أعمِل إيه؟ خواجه «ليتو» أحن من أعمامي.. لن أنسى منزلته من أبي وعِنايته بي بعد وفاته.. بس الأخبار مِلت الجرايد.. الخواجة «بيساح» بتاع الفرنساوي كان خاين.. الخواجة «بيساح» باع البلد للعدو.. للصهاينة.. الخواجه «ليتو» كمان..!!

ساعات بنعمِل غلطة صغيّرة عشان نصلّح غلطة أكبر..

بعد اعتقال «بيساح» هدأت الحياة ظاهريًّا في الحارة.. حالة ترقّب وحذر علت الوجوه.. وهدوء نسبي بدأ يستشعره «ليتو» لمّا لم يجِد صدى لفعلته.. بعدها بيومين ناداني.. قال لي اطلع عند ستّك هتدّيك حاجة.. لمّا خبطت على الباب فتحت لي «تونا».. كانت لابسة فستانها الأحمر وحطّة بودرة وعاملة شعرها زي «هِند رستم».. سألتها عن أمّها قالت لي خش هي جاية دلوقت.. تشرب كازوزة؟.. استنّيت في الصالون.. كنت بتفرّج على المكتبة لمّا سمعت خطواتها بتقرّب.. لمّا التفت كانت واقفة ورايا.. قرّبت مِنّي لغاية ما بقت على بعد شِبر.. بصّت في عيني ومسكت كفّي ورفعته.. لصدرها.. اتخرست وفتحت بقّي كما العبيط.. أوّل مرّة في حياتي ألمس صدر واحدة.. «تونا».. ما قدرتش.. اترعشت واتبلّيت.. ضحكت.. بصّيت لنصّي التحتاني

وجريت لحد بيتنا زي المجنون.. قعدت في الحمّام على قرافيصي مش مصدّق نفسي.. تونا!! ليلتها ما قدرتش أنسى اللي شفته.. جسمها ما فارقش خيالي.. نِمت وحلمت بيها وقمت غرقان تاني.. لمّا نزلت الصاغة وشافني عمّ «ليتو» ابتسم لي وقال لي: أنا زعلان.. مش باعتّك ياض امبارح تجيب حاجات من عند ستّك «أم تونا»!! أمّا أمرك غريب!! اجري اعمل كبّاية شاي مظبوط لعمّك «صبحي» وكباية ليّا من غير سُكّر.. وبعدين اطلع لستّك تاني.

أمام النار لمعت الفِكرة.. بدت نظيفة.. مناسبة لترضي جميع الأطراف.. سَحبت علبة مَملوءة ببودرة التلميع.. «تراب الماس».. وتمامًا كما رأيته يفعل مع قط «تونا» من قبل.. أقل من جرام.. قلّبته جيدًا ورفعت الكوب في النور.. لم تعثر عيناي على أثر.. حَملت الصينية إلى «ليتو» وضيفه.. وضعتها وأخرجت كباية الضيف منها: التانية دي بتاعتك يا عم «ليتو».. من غير سُكّر.. شربها.. تابعته وهو ينهي آخرها.. لم تنزِل عيني عنه.

«أبويا قال كُل حاجة غلط لازِم تدفع تمنها حتى لو اتأسفت.. أبويا قال ما تبعش بلدك حتى ولو عشان مرة بتحبها»

تاني يوم رحت له الدكّان.. قلت له يا خواجة أنا حلمت لك حلم.. حلمت أنك رايح مشوار بعيد.

رَدّ مُداعبًا: إيه حكاية يا خواجة دي؟! أنت مَكسوف منّي ياض؟

– لا يا عمّي.

– شيء لله يا «يوشع»[1].. حلِمت بابيه يا شيخ «حسين».

– حلمت أنك رايح مشوار بعيد مع أبويا الله يرحمه.. خدك من إيدك ومشيت معاه.

ابتلع «ليتو» ريقه وضاقت عيناه: يمكن بتفكّر فيه كتير.. وبعدين هو أنا مش زي أبوك؟

– لأ..

اضطربت ملامح «ليتو» قبل أن يعاجله «حسين»: أغلى يا عمّي.

لثلاثة أشهر بعدها تابعت حالته التي تسوء، ألم رهيب في صدره يمتد لظهره، لازم السرير على أثره ولم يعد ينزِل المحل، نزيف متكرّر حار الأطباء في تفسيره، وحالته غير مسجّلة طبيًا، في آخر الأيام فقد النطق، أعلن الأطباء أنه ربّما أصيب بنوع نادِر من السرطانات، أورام صغيرة تكاثرت على طول القناة الهضمية ونزيف دَموي مُتواصِل، كنت الوحيد الذي يدرك حقيقة مرضه، فأنا الشاهد الوحيد على واقعة قط «تونا»، أمّا «ليتو» ففهمها بعد فوات الأوان، ظل يرمقني بنظرة صامتة تحمِل الكثير، استنتج فعلتي متأخّرًا، لم يفصِح عما حدث ليلة الغارة، خاف المهانة وذل معرفة الناس بخيانته، أدرك أنه ميّت لا محالة، كتب لامرأته ورقة تقول: لمّي هدومك هنسافِر برّه.

– هنروح فين بس في ظروفك دي.

– مش عاوز أموت هنا.

(١) قسَم ينسب إلى يوشع بن نون من قبيلة إفرايم.

غادر «ليتو» في هدوء بعدما باع مَحلّه، نزّلوه بمحفّة إلى الحارة، ودّعه أهالي الحي وداعًا حارًّا يليق بعِشرة سنين طوال، آه لو عرفوا ما اقترف، لكانوا مزّقوه، لم تفارق عينه عيني، ظل يرمقني من بعيد كمن يرمق شيطانًا أوصله توًّا للجحيم، لم أقترب منه إلا حين ركِب سيّارة الإسعاف، وضعت يدي على الزجاج فمد يده للستارة الصغيرة وأغلقها بعدما قذفني بنظرة حادة كادت تخرج لها مقلتاه، ثم اتّجه للميناء ومنها لفرنسا، علمنا بعدها بشهرين من قريب للأسرة أنه قد فارق الحياة، وسمعنا أن «تونا» وأمّها قد هاجرتا إلى إسرائيل، كم أفتقد صوتها، رائِحتها، نعومة يديها في السلام، أصابعها الرقيقة، صدرها الثائِر، وكل ما كان يتسرّب منها سهوًا وهي تنحني لتضع صينية الشاي.

هنا توقف «طه» عن القراءة كما توقّفت خلايا عقله عن الاتصال، كانت أمامه ثلاثة بديهيات: الأولى أن أباه كان منعزلًا غريب الأطوار، والثانية أنه سمع عن بعض تلك الحكايات التي ذكرت في الأوراق في مناسبات متفرّقة، حين كانت تأخذ أباه الجلالة ويبدأ في السرد الذي لا ينقطع، والثالثة أن أباه لم يعتد الكذب.. لماذا كتب؟ هل هو سِر أراد من يشاركه فيه، أم مجرد فراغ ألَمَّ به فحاول ملئه، أم تهيؤات مرضية نالت من مخيّلته؟! قلّب الصفحات ثانيًا، كانت هناك صفحات كثيرة تفصله عن حكاية ذلك المدعو «ليتو»، صفحات مأخوذة من عناوين الجرائِد، تتوالى فيها أخبار متتالية لحرب ٦٧ .. عبد الناصر يُعلن إغلاق خليج العقبة.. إنهاء وجود قوّات الطوارئ.. لن أتزحزح ولن أقبل أي مُساومة.. احتمال انفجار في أي وقت على خطوط الهدنة.. إعلان حالة الطوارئ في القوات المسلّحة للجُمهورية

العربية المتّحدة.. الحَرب على الأبواب.. بدأت المعركة.. إسقاط ٤٣ طائِرة للعدو.. كلّنا رجل واحد خلف القائِد.. مَعركة عنيفة في منطقة رأس العُش تستمر سبع ساعات.. القتال مستمر.. سنحقّق أهدافنا.. الجيش العربي يزحف لتل أبيب.. أعظم حشد ثوري لآسيا وأفريقيا ضِد العدوان.. إسقاط تسع طائِرات للعدو في القاهرة والقناة صباح اليوم.. «عبد الناصر» يقرّر التنحّي عن رئاسة الجمهورية وتكليف «زكريا محيى الدين» بتولي الرئاسة.. الشعب يقول لا.. الرئيس يصارح الشعب بكل الحقائِق.. كفاءة جيوشنا شهد بها العدو قبل الصديق.. انتصر الشعب وعاد «عبد الناصر».. قرّرت أن أبقى في مكاني حتّى تنتهي الفترة التي نزيل فيها كُل آثار العدوان ثم يرجع الأمر إلى الشعب لاستفتاء عام..!

ضريح رخام فيه السعيد اندفن..
وحفرة فيها الشريد من غير كفن..

مريت عليهم.. قلت يا للعجب..
لاتنين ريحتهم لها نفس العفن..

عجبي!!!

اقلع غماك يا تور وارفض تِلف..
اكسر تروس الساقية واشتم وتِف..

قال: بس خطوة كمان.. وخطوة كمان
يا اوصل نهاية السكة.. يا البير تجف..

عجبي!!!

صلاح جاهين..

توالت الصفحات.. يحكي ومضات من حياته.. سَمع «طه» فيها جوانِب لم يَعهدها.. أوقفته بعض التواريخ:

٢٥ مايو١٩٩٦ (بخط رديء مَهزوز): تركت «ناهِد» البيت.. لا أستطيع انتزاع دبلتي.. أصابعي متورمة.

١٥ فبراير ١٩٩٩: عيد ميلاد «طه» كان امبارح.. ٢١ سنة.. مفيش معايا فلوس.. جبت له ماكينة حلاقة.

١ يونيو٢٠٠٢: «طه» اشتغل في شركة أدوية وجاب لي هدية بأول مرتّب يقبضه.

٧ سبتمبر ٢٠٠٥: قراءة تلك الأوراق تعني أنّي قد مُت.. أو أني ازددت موتًا على الموت.. لن يُشكِّل ذلك فرقًا.. فمن البداية لم يكن على أن أكتب.. فقط قررت بعدما أيقنت أن شيئًا بداخلي سيحترق.. وأن القِصّة يجب أن تسرد قبل أن يغادر الهواء زاويتي المظلمة بلا رجعة.. قبل أن تذبحني الكآبة بسكين مُتلبّد.. قبل أن تجثم فوقي الذكريات.. تلك المَسامير الصلبة المغروسة في صدري.. أتململ في جلستي سَجين كرسي أبكم لا يعلم بأي الكلمات يُواسي شبحًا تنهشه الخواطر.. كم أختنق.. ببطء.. أمسك القلم مُحاولًا أن أكتب.. أضغط على رأسه.. أستنفر بقايا الحبر فيه.. أستنطقه.. أستحلفه أن يفرج عما في خلاياي.. أن يروِّض أعتى شروري.. يَكبح كراهية تستعر في أعماقي.. يُسكت بركانًا يَغلي.. يَجد ترياقًا للسم المنقوع في رئتي.. أو حتى ينغرز في صدري..

في يوم بعيد تخيّلت.. تخيّلت أن قتلة واحدة كفيلة لأحيا في عالم أقل قسوة.. لم أكن على حق.. قتلي لـ«البيتو» لم يكن سوى بداية غير

مُكتملة.. عَملًا ناقصًا يحتاج إتماما.. قتلت بعده ألف شخص.. في مخيّلتي.. قتلت أسياد يوليو ويونيو واحِدًا واحِدًا.. كُل من جعجع وسَكت عن حق.. قتلت قوم «لوط» في الخليج.. مزّقت جلابيب تحمِل وهنًا وضعفًا وثقوبًا في الخلف.. قتلت «الريان» و«السعد» و«الهُدى مصر».. ومن سَحقهم ليسحقنا.. قتلت «ناهِد» وقتلت في «طه» كُل ملامحها.. وقتلت نفسي ألف مرّة حين سَمحت لكُل هؤلاء بهتك كرامتي.

* * *

أغسطس ٢٠٠٦: لم يعد السكوت حلًّا.. انتظار من ينظّف أمام بيتي أصبح أسطورة.. قالوا: لا يَحُكّ ظهرك أفضل من ظفرك شخصيات عفِنة وأرواح ميتة.. أرى ذر التراب في أفواههم خلاصا من نفايات.. تراب يدي اليمنى.. شريعتي المَصحوبة برسالة تحذيرية وحِلم يقلقل الظلام في النفوس.. يتيح فرصة للتوبة وتخفيف الذنب أمام العادِل الحكيم.. فرصة واحِدة فقط لأصحاب ضمائر تعفّنت وضرب الخَضار جذورها.. لم يعُد اليهود هُم الوباء وحدهم.. أن تُعلِن عداوتك صراحةً نوع من أنواع الشرف أمام من نسي حقّه واستخف أهله.. يتواضع ذنب «البيتو» كثيرًا أمام من يخرّبون مُجتمعهم بأيدي باردة وينخرون كالسوس في العظام.. العدو الكامن في الداخِل ينام بيننا في سلام.. ينعم بالحماية والشرعية بعدما تزاوج فأنجب آلهة صغارا وأصناما وضعت لتعبد.. نفس الوجوه التي أرادت أن تُخلصنا يومًا من الملك.. فصارت هي ألف ملك.

ماذا يَفعل شَخص مِثل «مُوسى عَطيّة» المُحامي.. لِمَ يتنفّس نسيم تلك البلد ويمشي على أرضها؟!.. لا يخفى على أحد كم دسّ أيديه

في ثغرات قانون بالي ليبطل جَرائِم أكبر مِن أن تُحتمل.. مَكتب فخم وطاقم من المُساعدين قد يخرجوا إبليس مِن جهنّم.. ويُطالبون بتعويض عن سنين الطرد من الجنّة! يَعتِقون من لا يَستحِق.. من يَملأ الأرض فسادًا.. من يُغرقها ليركب أمواجًا.. فأذقته ترابًا يعدل كفّة ميزانه.

«سليمان اللورد».. طيف الماضي الذي ظننته إنسانًا.. حتّى روّج سمومه.. لم تفلح معه توسّلاتي.. استجديته.. تجاهلني كما تجاهلت الجن وجوده وتغاضت الأرضة عن أكل عصاه.. علامة التعجُّب التي تطعن يوميًا عين الشمس وعيني.. يسعى تحت أشعتها المريضة ليحقن نبتنا بالبوار والموت.. ميعادنا على أعتاب جحيمي يا صديقي.. سأسقيك خمرًا ستظمأ بعدها أبدًا.

ماذا يفعل «مَحروس برجاس» حتّى الآن؟ ماذا يفعل الطاعون بالإنسان؟

نجم الأغذية الفاسدة الذي أفرغ زِبالته فوق رؤوسنا بسينما مقاولاته الرخيصة.. ثم أهدانا شاذًا أصبح من السادة.. وجزاء له بات عضوًا تحت القبّة.. يُصان ويحترم ويضرب له تعظيم سلام.. وأخيرًا أرسل الكثيرين قربانًا للزلزال.. ونال هو البركة والغفران تحت حماية أسياده.

هل أصبحنا عميان؟ فقدنا القدرة على استئصال بؤر متعفنة تسوقنا لبتر مُحتم.. إن لم يُوجد من يتحرّك فأنا بلا عاهة.. لأكون نقمة القدر عليهم.. سأنتزع جذورهم التي ماتت منذ سنين.. شجرتهم التي تساقط علينا فضلات الطيور.. شجرة السموم.. لن أكون جزءًا

من هذا العالم.. سأطرق أبواب الجحيم بيدي.. سأكون «يحيى بن زكريّا».. حتّى ولو قطعت رأسي.. فالقتل قد يصبح أثرًا جانبيًا لدواء يشفي بلد يحتضر.

* * *

١٥ نوڤمبر ٢٠٠٦: لأول مرّة أراه رؤية العين.. لكن قصّته تستحق أن تدفن في متون الجحيم...

كانت تلك آخر ورقة في الدفتر.. بدت النهاية مبتورة.. أبوه كان سيحكي شيئًا لكن هناك ما أوقفه.. قلّب الصفحات علّه يجد ما فاته.. لا شيء.. تلك كانت المرّة الأولى التي يشاهد أباه.. كان سائدًا لديه أنه كائن ضامر ينتظر حتفه.. نهايته التي لم يتخيّلها.. هل وصل لطور من الهذيان؟ ظلّت الأفكار تعيث فسادًا في رأسه حتّى رنّ الجرس فلملم الأوراق وفتح الباب لآخِر شخص يتوقّعه.

* * *

الفصل الثاني عشر

كانت في أواخِر الأربعينيات، ترتدي تايير أسود ضيّق نِسبيًّا، ارتمت في حضنه: حبيبي.. ألف سلامة.

تركها تضمّه وتقبّله دون أن تحوطها يداه: خُشّي عشان أقفل الباب بس.

دخلت تتأمل البيت كقطّة سَرّبها صاحِبها وعادت، تسلّل «طه» لثوان أغلق فيها باب غرفة والده للحد من التساؤلات حول الأوراق المبعثرة: عامِل إيه يا حبيبي؟ أنا عرِفت بالصُّدفة.. ما كانش ينفع أكلّم عمّتك.. أنت فاهم.. حجزت أول طيارة.

تأملت جروح رأسه: يا قلبي.. احكي لي عامِل إيه.. بتاكُل كويّس ومال الشقة كِده...؟

زفر «طه» وهز رأسه: الحمد لله.

أدلى رأسه في الأرض هربًا من عينيها، علقت عيناه بالطلاء الأحمر القاني لأظافرها الذي يليق بشابة أصغر سنًّا، علاوة على حالة الحِداد التي لم تراعها؟

- كُل حاجة هتبقى أحسن.. أوعِدك.. أنا هجيلك كُل يوم.. ولو حابِب أشوف لك عقد في السعودية...

قاطعها: ماما.. مفيش داعي.. أنا كويّس.

جلست بجانبه تتحسس كتفه بأناملها: «طه».. أنا عارفة إنّك مش طايقني.

دفن «طه» وجهه بين يديه فأردفت: ممكن كُل حاجة ترجع زي ما كانت.

- مفيش حاجة بترجع زي ما كانت.

- أنا أمّك يا «طه».

- فاكِر حاجة زي كده.

- اللي حصل بيني وبين أبوك ده حاجة وأنت حاجة تانية.

- وهو إنتي لمّا سبتيه سبتيه لوحده!!

- كنت عايزة أخدك هو اللي ما وافقش.

- ونسيبه إحنا الاتنين مش كِده!!

- عشان كِده أنا سبتك.. «طه».. أنت ما تعرفش حاجة.

- لسّه صغير.. مِش كِده؟! إنتي عارفة أنا عندي كام سنة؟ يلله.. من سيربح المليون.. عندك أربع إجابات.. تلاتين.. تلاتين.. تلاتين.. وتلاتين.. تستعيني بصديق والا تسألي الجمهور؟

بُهتت مِن ثورته.. كانت قد تعوّدت مِزاجه الحاد تِجاهها لكن اليوم كان يكيل الكلمات بلا رحمة.. كان عليها أن تطلق ما في نفسها.. ما سكتت عنه لسنوات:

- أبوك ما كانش الشخص اللي أنت مُتخيّله.

- وإنتي كنتي رابعة العدوية.. مَبسوطة في الجواز؟

استجمعت قواها وألقت مفاجأتها: ما كانش ينفع أكمّل حياتي مع واحِد قاتل.

مَسح «طه» رأسه وقام يستند على الجدار قبل أن يطيح بزهرية إلى الأرض صَارخًا: فيه إيييييه؟

كانت تِلك إشارة البدء لتضغط الزّناد.. كان عليها أولًا أن تذكّره بـ«سَميحة».. «تانت سميحة» بالنسبة لـ«طه».. صَديقتها التي نشأت معها مُنذ الابتدائي وعاشرتها زواجًا وإنجابًا وطلاقًا.. كُل ما كان يَعرفه أنّها صديقة ماما ومُطلقة وترغي معها في التليفون لساعات.. كما أن صدرها رائع حين تنحني لتقبّله.. كان يعرِف أيضًا أن أباه لا يطيقها.. وأنّها توفيت بعد مرض صعب.. وأن أمّه حزنت عليها كما لم تحزن على أحد مِن قبل.. لكن ما لم يكن يعرفه أن تانت «سميحة» كان مشيها بطّال بعد طلاقِها: طانط «سميحة»؟!

- أيوه تانت سميحة..

تعرفت على رجل ثري متزوّج.. ولأنّها كانت عود عِرسي ولا عمل لتتكسّب مِنه.. انفتح أمامها الطريق.. أو بالأحرى.. الطرقات.. كأي صديقة مخلصة حاولت «ناهِد» أن تثنيها.. أن تكبح جماح فرس تعوّد على عدم ارتداء سرج.. كادت أن تنجح قبل أن يشتم «حسين» الرائحة.. لم تفلح مُحاولاته في التفريق بينهما.. حتّى جاء اليوم الذي طلب فيه مقابلتها.. وافقت على مضض.. توقّعت مِنه النُصح لكنه

على العكس كان صَموتًا حتّى احتست شايها.. حكى لها بعد ذلك عن حِلم راوده في المنام كانت فيه البطلة ثم تركها وانصرف.. لم يكن ذلك سوى بداية النهاية.. في لحظة غضب صارح «ناهِد».. صرخ فيها واللعاب يتطاير من شدقيه.. صفعها بحقيقة ما قرّره ونفّذه دون استئناف.. باستمتاع.. كان ذلك حين بدأت «سميحة» تنهار.. قال: إنّها تستحِق.. وإن لها طفلًا لن يَسعد بسماع سيرتها.. فاليتم قد يُصبح نِعمة إذا قُورِن بعُهر أم.. ترجّته أن يفصح عمّا دسّه لها.. كانت إجابته أنها استنفدت فرص العودة.. قُضي الأمر.. تمزّقت في شهرين ونِصف.. ماتت «سميحة».. ومات ما بين أبيه وأمّه.. كتمت سرّهما.. دفنته في قبو.. لم تكن المشكلة إلا أنت يا «طه».. يا كُنت أبلّغ عنّه وتعيش طول عُمرك شايل عاره ويضيع مُستقبلك.. يا كُنت أمشي.. وأشيل أنا الذنب لوحدي.. مشكلة أبوك إنّه كان فاكِر نفسه إله.. هو اللي يحاكِم ويعاقِب.

اقتربت مِنه تضمّه.. ارتعشت ذقنه فاستوقفها بحركة من كفّه بدون أن ينظر لها، علامة تعني أن كفى.. ارحلي في سلام.

- سَامِحني يا «طه».

مشت تجاه الباب ثم توقّفت حين علقت عيناها بصورة على الجدار لـ«طه» في عمر سنتين، صورة ذات مِسحة برتقالية من فترة ظهور الألوان، تذكّرت أنّها كانت تلك اليد التي تحمِله من خصره، ألقت عليها نظرة متأمّلة قبل أن تمد يدها لتأخذها وترحل، كان ذلك فوق طاقته.. لم يتماسك.. برك على الأرض يلملم أشلاءه مجاهدًا ألا ينفجر.. محاولًا استيعاب ما قرر الزمن أن يجود به من مفاجآت.. في يوم واحِد..!!

انقضى وقت لم يشعر بمروره قبل أن ينزل الشارع.. مَشى شَاردًا حتّى الصيدلية.. جلس على كرسيه بجانب الهاتِف.. وسَط ذلك الكم من خواطره المتلاطمة حَضرت فتاة.. بدت من مظهرها خادمة.. تلك الأرجل الجافة والأنامِل المهملة وذلك الجلباب الوردي الصاخِب.. أخرجت ورقة من كيس صغير وناولتها لـ«طه».. فتحها وقرأ.. رقم تليفون.. سألها تِلقائيًا عن الاسم فأجابته: دكتور «سامي عبد القادِر».

نقر أزرار الهاتِف ثم انتظر حتّى أجابه صوت: مَساء الخير يا ابني.. أنا دكتور «سامي».

- غني عن التعريف يا دكتور.. مع حضرتك «طه الزهّار» مِن صَيدلية «سَامِح».. جيت لسيادتك مندوب قبل كِده.. أؤمُر.

- الأمر لله.. أكتب يا ابني.. «هيزولان» ١٠٠ مج، «زانيكس» ٠,٥ مج، أمبول «ريتاربن» و«ليدوكائين»؟

- حاجة تانية.

- وسرنجة ١٠ ما تنساش.. بقولك إيه تقدر تسيب الصيدلية عشر دقايق يا ابني؟

- ده شرف ليّا حضرتك.

أغلق الخط ووجّه كلامه لـ«وائِل»: الدكتور «سامي عبد القادِر» هِنا قريّب.. طلبني أساعده يا «وائِل».

ثم التفت للفتاة: الدوا ده لمين؟

أجابته: لـ«مَحروس بيه برجاس».

حاول «طه» السيطرة على قشعريرة تعبر جِلده، كان يعرِف أن من يطلب ذلك الكم من المُسكّنات، في مرحلة متأخرة من مرض لا فكاك منه، يلتمِس هروبًا من ألم ساحِق.

- هو عنده إيه؟ سأل الخادِمة في طريقهما للفيلا.
- بعيد عنّك مرض بطّال.
- بقاله أد إيه؟
- ييجي شهرين، حالته صعبة أوي ربّنا يعفي عنّك.

ارتطم شيء صلب بقلبه.. بشرود أردف: مرض إيه بالظبط؟

- الدكاترة احتاروا، بيقولوا مرض بييجي مرّة في المليون.

عبرت في لحظات قصة «ليتو» أمام عينيه، أوراق أبيه، حديث أمّه عن «سميحة»، صَحبته الخادمة إلى العمارة التي دخلها منذ ثلاثة أشهر مع والده، في الزيارة الغريبة قبل الحادِث، لم ينس يومًا أن «محروس برجاس» شهد في صف «السيرفيس» وأجرى اتصالات لأجله، لم يستطع مقاومة الفضول لمعرفة حقيقة مرضه، في الطريق حكت له الخادمة بتطوّع منها ورغبة في الرغي مع الشاب الحليوة كيف أن كُل من يعيشون حول سيّدها يرتقبون احتضاره، حكت عن ابنه الذي انقطع عن زيارته، وعن سيدة الدار البدينة التي تدخل غرفته مرّة واحِدة في اليوم، تلقي عليه نظرة باهتة قبل أن تتركه لتراعي شؤون أقارب لها احتلّوا المنزِل في انتظار الفرج، فالكل سينالهم فتات يضمن لهم حياة كريمة، علاوة على حِكايتين جانبيتين عن افتراء سيّدتها على

الخادمات وأنّها طافحة الكوتة وترغب في الرحيل إلى البلد لولا العِشرة، كما حكت عن التغيّر التقليدي في تصرفات كُل من يمرض ويشعر بقرب الموت، تقصِد سيّدها المحروس، الحنان الزائِد والتقرّب إلى الله وذِكر مَعارف الأموات. خرّت كما ينبغي أن تخُر الخادمات، أخرجت مصارين البيت في خمس دقائِق، حتّى عبرا سور الفيلا، انتظر دقائِق أمام الباب حتّى عادت: اتفضّل يا باشمهندِس.. لم تكن مقتنعة أن «طه» ليس بباشمهندِس! مشى وسط الأثاث الفخم حتّى وصل إلى الدور الثاني.. استقبله دكتور «سَامي عبد القادِر» عند الباب.. ذكّره «طه» بنفسه قبْل أن يَسحبه الأوّل بعيدًا عن الغرفة: أنت عارِف الـ(Antibiotic) صعب.. والمريض مِش مِستحمِل.. مِحتاجك معايا عشان الوريد هربان وبيقاوِم جامِد لأن الألم شديد، هز «طه» رأسه موافقًا قبل أن يدخُل الغُرفة المكتومة من عدم التهوية.

بالداخِل كانت الإضاءة قليلة.. نابعة من أباجورة بجانب السرير فوق مِنضَدة تحمِل طِنًا من الأدوية وطبق مَملوء بالقطن والثلج.. كان «مَحروس برجاس» راقِدًا على سريره شاخِصًا في السقف.. تغيّر كثيرًا.. لم يعد ذلك المعافى الواثِق.. كانَ أقرب لخرقة بالية.. نقص وزنه أكثر من عشرين كيلوجراما واسودّ وجهه.. بالكاد كان يتنفّس.. شهيق وزفير يخرجان بصعوبة خروج نفس من آلة نحاسية مَسدودة بالصدأ، يعتصر في كفّه بعض الثلج تشنيًا للألم.. جلس «طه» على حافة السرير وأخرج سِرنجة وزجاجة صغيرة.. جهّز الحُقنة لدكتور «سامي» الذي انهمك في قراءة بعض التقارير حين انسحبت عيناه إلى «مَحروس».. كان يرمقه بنظرة حادة.. تجاهله وبصعوبة بالغة ساعده على إخراج يده الصفراء

المَهتوك عرضها من تحت الغطاء.. كانت كالمصفاة.. لا مكان فيها لثقب إضافي.. ناول الحقنة لدكتور «سامي» وربط الذّراع مُثبتًا.. دس دكتور «سامي» الحقنة في الوريد فانتفض «مَحروس» حين بدأ السائِل يتوغّل في دمه.. اعتصر يد «طه» وبدأت ملامِحه في التشنّج.. جز على أسنانه وأصدر صَريخًا مَبحوحًا.. ثوان قبل أن تخرج الإبرة ويَحِل «طه» وثاقه.. أغمض عينيه متألمًا قبل أن يرن هاتِف الطبيب المحمول، فابتعد ليجيب مُشيرًا لـ«طه» أن أكمِل إعطائه المُسكّن.. اقترب الأخير مِن «مَحروس» يهمس: حضرتك مش فاكرني؟

هز «مَحروس» رأسه نافيًا فأردف «طه»: جيت لحضرتك أنا ووالدي من تلات أشهر، زيارة.

رمقه «برجاس» بنظرة مُبهمة فأردف «طه» مُذكّرًا: بابا كان مشلول، قاعد على كرسي عجل.

دب فجأة نشاط غير عادي في حدقة «مَحروس».. شد على يد «طه» ليستند حتّى جلس نِصف جلسة.. أخذ نفسًا عميقا وبحث عن حبل صوتي سالِك ليتكلّم به بعدما تأكّد أن الطبيب يُكمل مُكالمته قرب الشباك في آخِر الغُرفة: مات أبوك؟ سأله «محروس»..

– الله يرحمه.. قالها وغرس السّرنجة داخل الزجاجة وسَحب منها السائِل ببطء: مُمكن أسأل حضرتك سؤال؟ أنا عارف إن ده وقت مش مناسِب، بس...

تهدّج صَوت «مَحروس»: عاوز إيه؟

– ممكن أعرف بابا الله يرحمه كان عايزك في إيه؟

– مَا تسألش.. فيه حاجات ما ينفعش تِتقال.. كُحححححححح

أطلق «محروس» كُحَة جَافة تشقّق لها صدره.. لم تنزِل عين «طه» عن الوجه الذي احتقن قبل أن يُكمِل: أحسن لك تِنسَى كُل حاجة وتبعد.. المكان هِنا مَوبوء.

ربط «طه» يَد «مَحروس» وأخذ يربت عليها بَاحثًا عن وَريد يتطوّع ليتلقى طعنة ثانية حتّى وجد واحدًا يتوارى.. ثبّت يديه ثم همّ بغرس الحقنة حين أمسَك «مَحروس» برُسغه مانِعًا.. امتلأت مَلامِحه بفزع غريب.. رمقت عيناه طرف الحقنة كأنّها خِنجر مَسموم.. هز «طه» رأسه مطمئنًا وربت على يده مُبديًا بعض الثقة: ماتخافش.. قالها وغرس الحُقنة.. تسرّب السائِل إلى العروق الجافة.. دقيقة وبدأ جِسم «مَحروس» في الاسترخاء.. بدأت العمليات الحيوية في الخفوت حين نطق وجفونه تقاوم الانزلاق: أبوك حكى لي عن حِلم.. حِلم إنّي هموت بعد تلات شهور. لم يدهِش ذلك «طه».. أدهشه ما قال بعدها: أنا ما قابلتش «السيرفيس» يومها. ألقاها «محروس» وانسحب إلى سبات عميق.. ظل «طه» على وضعيته لدقائق يتأمّل مَلامِحه.. مُحاولًا استيعاب ما سَمع قبل أن ينتشله الطبيب من غفلته:

– إيه يا «طه».. خلّصت.

– آه.. خلاص يا دكتور.

ابتسم ابتسامة باهتة وحياه بكلمات مبهمة قبل أن ينصرِف، في الصيدلية ترك «وائِل» لمقابلة الزبائِن ودخل المعمل، يُصارع تساؤلات مُوحشة تنهش رأسه كضبع عثر على جيفة مثالية، تخطّت نِسبة الشك لديه الحد المسموح به للاتزان، سَحب كُرسيًا وجلس واضعًا قدميه على مِنضَدة تَحمل أوان زجاجية بعدما تناول قُرصًا مُهدئًا.. هل هناك

ما يعرف بـ«تراب الماس» وهل له ذلك التأثير؟ والأهم من ذلك ما تأكّد منه بشأن «السيرفيس»، ظلّت الأفكار تتضارب بداخِله ككرة إسكواش، لا يعرف ما جعل رأسه يثقل، ربّما القرص الذي تناوله، استغرق في نوم عميق قبل أن يَصحو فجأة مَذعورًا كمن احتضن سِلكا كهربائيًا، حاول القِيام فخانته قدمه من أثر تنميل طويل، اتكأ على الأخرى حتّى خرج لـ«وائِل»:

– إيه يا دكتور.. باين عليك تعبان.

– الساعة كام دلوقت؟

– حداشر وتلت.

– يا نهار اسود.. ما صحّتنيش ليه يا «وائِل»؟

– حاولت أصحّيك.. كنت بتشخّر بصوت عالي أوي.

– إيه الحياة؟

– كلّه تمام.. جبت بس علبة «املوديبين» عشان خِلص، من صيدلِية رضا.

– حاسبته؟

– لأ لسّه.. تستنّى دقيقة أروح أدّي له فلوس؟

– لأ مفيش وقت.. أنا هحاسبه وأنا ماشي.

سحب سترته ورحل.. مر على صيدلية د. رضا حيث التقى بـ«عمرو» زميل المهنة، حيّاه وحاسبه، تداولا حديثا باهتا عن الأدوية والأسعار قبل أن يتطرّق الموضوع بشكل غريب إلى «السيرفيس»:

أنا آخر حاجة سمعتها عنّه يوم الطوبة ما كسّرت الإزاز.. مِن ساعتِها وهو راشِق عندي.

بدا على «طه» الاهتمام: «السيرفيس»؟ وبياخُد اللي هو عايزه طبعًا؟

- بدّيله عشان يغور، مش عايزين مشاكِل.. أول يوم جه عايز «ترامادول» و«أبيتريل».. تاني يوم جه عايز «ترامادول» و«أبيتريل» وجوانتي طبّي.. تالِت يوم...

«الشخص اللي دخل كان لابس جوانتي طبّي، لقينا آثار بودرة على إيد الكرسي...»

رنت في رأس «طه» عِبارة «وليد سلطان».. توقّفت الكلمات في أذنه.. ترك زميله وركض إلى البيت.. أجرى في طريقه مُكالمة اعتذار عن العمل لظروف خاصة.. قفز السلالم وولج الشقّة.. هرع لغرفته وفتح الكمبيوتر.. على موقع «جوجل» للبحث كتب «تراب الماس»، ثم أضاف لها كلمة سُم، بعد ثوان أتته النتائج.. «تراب الماس».. (Diamond Dust).

في عصور قديمة تردّدت بعض الروايات عن اغتيالات سياسية تتّبع منهج القتل البطيء بمادة سامة عُرفت بـ«تراب الماس»، ذُكِر لأوّل مرّة سنة ١٢٥٠ في ملابسات وفاة «فريدريك الثاني» إمبراطور الدولة الرومانية.

ثُم في سنة ١٥١٢م حين حامت شبهة استخدامه في حادثة اغتيال «بيازيد الثاني» سُلطان الدولة العثمانية على يد ابنه «سليم».. وخِلال

عَصر النهضة في فلورنسا وتحديدًا فترة حُكم «كاثرين دي ميديتشي» كثرت الأقاويل حول استخدامها لما يعرف بـ«بودرة الحُكم»، لم يكن ذلك سوى مرادِف لمزيج تراب الماس مع الزرنيخ، وتحت غِطاء إطعام الفقراء والمساكين اختبرت «كاثرين دي ميديتشي» ترابها السحري، سرعة نفاذه ودرجة تأثيره نسبة للكميّة، وشكوى المُصابين به، حتّى وصلت لنتائج مرضية هيّأتها لتصفية مُعارضي نِظامها.

ثُم ظهر مرّة أخرى في السيرة الذاتية لـ«بينفينيتو سيليني» الصائغ والنحّات الأشهر في عصر الدوق «بيير لويجي فرناسي» دوق بارما الذي اشتهر بوحشيته تِجاه أعدائه وإسرافه في الملذّات، ولاحقًا بشذوذه تجاه الأطفال، صَاحبه «تراب الماس» في فترة إمارته كوسيلة لتصفية أعدائه، ذكرها «بينفينيتو سيليني» في أوراقه الأخيرة التي كتبها في السجن واصِفًا تطور تأثير المرض عليه بعدما دسّ أحد الحُرّاس «تراب الماس» في طعامه.. وإلى الآن لم يتأكّد أحد من حقيقة «تراب الماس»، هل كان وسيلة قتل صاحبت حُكّام قساة، أم مُجرّد أسطورة مرعبة ابتدعها أصحاب المناجِم حتّى يمنعوا العمّال من ابتلاع الأحجار الكريمة؟!

لم يجِد «طه» غير تِلك الخلفية التاريخية فبدأ البحث في المواقع العلمية حتّى وجد نتيجة أخرى: يُعتبر «تراب الماس» من أخطر السموم، وذلك لانعدام رائِحته وطعمه وعدم وجود أعراض مُعينة عند بداية التسمم يمكن أن يُعرف بها، الجُرعة القاتلة منه أقل من ٠,١ جم، تتلخّص آليته في التسمم أن عند ابتلاع كمية بسيطة جدًّا فإن الحركة التموجية للمريء تبدأ في تكوين شظايا لحمية تُحيط بالجسم الغريب - تراب الماس - وتدفِن نفسها على طول القناة الهضمية، ثم

أن الحركة العادية للجسم تجعل هذه الشظايا تتعمق أكثر فأكثر حتى يَحدث نزيف متقاطِر بطيء يَصعُب مُلاحظة تأثيره في البداية، حتى يَصِل للبنية العضوية للجسم، والألم المصاحب لهذه العملية لا يمكن تخيله، وتحدث هذه الأعراض في فترة زمنية متوسطها ثلاثة شهور، وحتى في المراحل المتقدمة من الإصَابة يكون من الصعوبة إنقاذ المُصاب، إلا بإجراء عملية جراحية لإخراج شظايا الماس، وهو شيء شِبه مستحيل، وللعلم فإن القتل بتراب الماس كان من الطرق المفضلة للقتل البطيء في عصر النهضة في أوربا.

كانت تلك هي المعلومات الوحيدة المتوفرة عن ذلك المصطلح، جلس ما يقرب من الثلاث ساعات يحلب الشبكة العالمية، لم يحصل خلالها على شيء إضافي يُذكر، ضرب الصداع النصفي شِقّه الأيسر، باتت عيناه أكثر حساسية للضوء، شد الستائر حتى أظلمت الغرفة وتناول قرصين «ميجرنيل» وأشعل سيجارة قبل أن يتّجه لغرفة أبيه يصفعه سؤال واحِد: أين كان يخبّئه؟

تراب يده اليمنى!...

اتّصل بعمّته: ألو.. أيوه يا عمّتي.. الله يخلّيكي.. الحمد لله.. عمّتي والنبي ما لقيتيش كيس أو إزازة وإنتي بتنضّفي فيهم حاجة زي بودرة بيضا كده؟ متأكّدة؟ لأ يا عمّتي، مخدّرات إيه بس؟ دي حاجة كانت بتاعت بابا، آه.. هي بودرة صراصير آه.. عندي كام صرصار كده.. ماشي يا عمّتي.. آه والله باكُل.. حاضر.. سلام يا عمّتي.

قام إلى الشقّة التي أصبحت خالية بعدما كوّم الأثاث كلّه في غرفة واحدة، استثناها من بحثه لأنه كدّسها بيديه، بحث في غرفة والده، الحمّام

والمطبخ، وغرفته، لم يعثر على شيء فعاد مرّة أخرى لغرفة والده.

تراب يدي اليمنى!!...

فتح دولاب الملابس، أفرغه متفحّصًا الأكمام اليمنى قبل اليسرى، لا شيء، جلس في ركن يعيد التفكير فيما قرأ، شرد في فراغ أرضية الغرفة، لم يعرف كم قضى من وقت على تلك الوضعية، فجأة قام كالملدوغ، جلب شاكوشا ومفكا وبدأ في خلع الكنالتكس، عرّى الغرفة في ثلاث ساعات جرح خِلالها يديه، باتت أنقاض كبورسعيد وقت الحرب، ولم يعثر على شيء، وقف ليلتقط أنفاسه، وكان الوقت غروبًا، تسللت الخطوط الذهبية الرفيعة من النافذة تتخلّل الأتربة المبعثرة في الهواء من جرّاء الخلع، لتصطدِم بحائِل رسم تحت أرجله ظِل كُرسي.. كرسي متحرّك.

كيف عبرت تلك الفكرة من بين قدميه؟! أكثر الاحتمالات منطقية.. أمسك بالكرسي يتفحّصه.. فك مفصلاته وصواميله ثم انتبه لليد الرُمادية الكئيبة.. اليد اليمنى.. جذبها بقوة فسقطت منها قنينة صغيرة ملفوفة بدوبارة رفيعة.. رفعها لعينيه.. كان مكتوبا عليها رائِحة فل، فابريقة عُطور وزيوت «الزهّار».. فك الدوبارة وفرد كفّه ونقر القنينة برفق.. نزل المَسحوق الأبيض منها مُتلألئًا ناعم الملمس.. فركه بين أنامِله وقرّبه لعينيه يتابع انعكاسات النور على أسطحه متناهية الصغر.. تأمّله لدقائِق قبل أن يرجعه لمكانه كمن يَحبس ثعبانًا عن الخروج.. بات كُل شيء واضِحًا.

أبوه لم يكن سوى باحِث عن عدل ضائع..

أبوه كان قاتلًا!!

تردّدت في رأسه كلمات أمه: مشكلة أبوك إنّه فاكِر نفسه إله.. هو اللي يحاكِم ويعاقِب بدأت حوائِط الشقّة تصرخ.. ضرب زلزال يده فأصابها برعشة وأكمل الصداع النّصفي عمله.. امتد شرخ واسِع في شقّه الأيسر وبدأ الرقع المنتظِم.. لم يتحمّل.. نظر للقنينة نظرة أخيرة قبل أن يدسّها في جيبه وينزل ليلتمِس بعض الهواء.

* * *

الفصل الثالث عشر

الضجيج من حوله أصم أذنيه حين ابتعد هربًا من أفكاره.. عيناه لا ترى سوى أضواء سيارات تطعن حدقتيه.. شهيقه حارق وزفيره معدوم.. كان عقله قد توقّف منذ دقائِق عن التفكير.. طلب «ياسر» فاعتذر لظروف الماتش: الأهلي والزمالك يا عم الحاج!! كم بدت كلمة ماتش سخيفة.. لا يعرِف سببًا لذلك النفور الذي اعتراه.. ربّما تمنّى الهزيمة للأهلي أيضًا.. مَر على قهوة اشرأبت فيها الأعناق وتزاحمت لرؤية المباراة.. بدوا في منتهى التفاهة وهم يشربون الشيشة ويفتحون أفواههم في تركيز أعمى وكأن المدرب زوج خالة أحدهم.. يقومون حين تحدث هجمة في تحفّز «دوبرمان»، ثم يجلسون ثانيًا ليشتموا ويلعنوا ويوجّهوا اللاعبين بصراخ وكأنّهم سيسمعونهم!!.. سَحبته أرجله عشوائيًا حتى وجد نفسه في ميدان سفنكس.. لمحت عيناه اليافِطة الفضية فتوقّف.. (Cairo Jazz Club).. شعر بوخز الصُّدفة.. صُدفة تُذهِب مِن فمه الطعم المالح.. طعم الدم.. صَعد عِدّة سلالم ودلف المكان بعدما اعترضه أحد الثيران الواقفة أمام الباب: الدخول (Couples) فأجابه بعفوية مندوب مبيعات: صاحبتي جوّه.

بالداخِل كانت الإضاءة خافتة.. عِدّة كشافات لا تغني من ظلمة لكنها قادرة على إذابة الفوارق بين كُل شيء.. الألوان.. الأصوات وحتّى الأشخاص.. كراسي جلدية عالية تُحيط البار في نِصف دائِرة.. شبابا وفتيات متناثرين في الأرجاء.. مَقطوعة برازيلية الطراز تضفي سِحرًا على الجو العام.. وركنًا مُخصصًا لفرقة موسيقية لم تأت بعد.. بيانو وجيتار.. ودرامز.. توقّف قليلًا أمام الأخير حين سمع بِسسس من رُكن بعيد.. اتّخذ الأمر مِنه ثوان ليتأكّد.. هيَ.. تجلِس وحدها على منضدة تتّسِع لثلاث.. اقترب بتردد بعدما لوّحت له بيدها.. كانت ترتدي چينز جربان وبلوزة سوداء يتدلّى فوقها عقد فضّي طويل.. وبلا حجاب.. شعرها مُموّج ثائِر يُحيط رأسها كهالات القديسين، إذا استعملوا چل، وثقب صغير أسفل شفتيها يحوي حلقًا فضيًّا صغيرًا أضاف لها ما تضفيه النقطة تحت الباء.. تظلّل عينيها الواسِعة رموش تثقب قلب أعتى المحاربين.. أمامها أوراق وقلم وزجاجة ستلا نِصف فارغة.. ابتسمت حين اقترب: دي صُدفة؟

- يعني..

حك رأسه: لقيت نفسي بالصدفة قريّب قلت أسلّم عليكي.

- سيبك من الكلام الفاضي ده.. الدنيا مفيهاش صدف اقعد.. بيرة؟

هز رأسه نفيًا بعدما جلس: هآخُد نسكافيه.

ضحكت: نسكافيه؟ إحنا قاعِدين في الفيشاوي؟! ثم أشارت لنادل: واحدة ستلا يا «طارق».

- خلعتي الحجاب!

- لكل مقام مقال.. شكلي هِنا بالحجاب هيبقى (Alien).

- بتكتبي إيه؟

- مقال للجرنال.

- هِنا!!

- أحلي كلام بيطلع هِنا.. أخبارك إيه؟

- كويس.

ناولته سيجارة مِن عِلبتها: ما جبتش صاحبتك معاك ليه؟

أشعل سيجارتها قبل سيجارته: أنا مِش مِصاحِب.

اقتربت بكرسيها منه: أوعى تكون أسباب طبية.

فلتت مِنه ابتسامة: لأ..

- تبقى مُعقد!!

- سَمّيها زي ما إنتي عايزة.

- جرح تاني؟ تالِت؟

- رابع.

- بتغيّر الموضوع؟

- لأ خالص! أنا يدوبك أخلّي بالي من نفسي.. ما أعتقدش هعرف أخلّي بالي مِن حد تاني.

أحنت رأسها تبعثر شعرها إلى الأمام ثم نفضته إلى الوراء قبل أن تسأل: كُنت قلت لي أنّك بتبيع أدوية.

– تسويق مِش بيع.. مُسكّنات.

– ده أنت هتبيع للشعب كُلّه.

– لا دي عيادات، الشعب ما يقدرش على كشفها.. ناس من اللي بتدفع فيزيتا خُمسوميت جنيه.

– اللللله.. ده أنت عندك هم اجتماعي أهه.. وأنا اللي كنت فاكراك من البيت للشغل ومن الشغل للبيت.

– أنت ناسية أني شغّال في صيدلية.. المصريين حالتهم النفسية بتبان من أكتر أدوية بيسحبوها.

– اللي هي إيه؟

– أدوية الإسهال.

ضحكت: حلوة.. واضِح أنّك مش سهل.

– على فِكرة أنا شُفت المدونة بتاعتك.

– إيه رأيك؟

– عجبني موضوع المزّة والسياسة..

– ده كتبته لمّا حسيت إن الناس ساية كُل المواضيع المهمة ومركزة مع جسم البنت.. أكنّه لو اتغطى هيحِل مشاكِل العرب وفلسطين..

– بخلاف كده حَسيت إنّك بتعاكسي كُل حاجة.. بالبلدي بتخانقي دبان وشّك.. ما كنتش أتوقع أنّك تكوني بالنشاط ده.

تجرّعت بعض البيرة من الزُّجاجة: وبنزِل مُظاهرات وبكسّر الدنيا.. وكانوا هيقبضوا عليا كذا مرّة.. يا كابتِن البلد هي اللي بتعاكِسنا مِش إحنا اللي بنعاكِسها.. قولّي بقى أنت اتّجاهك إيه؟ رأيك في السلطانية؟ والا مِش متابع؟

– ماليش اتّجاه مُعيّن.

– هيفا وأهلي وزمالِك وكِده؟

– لأ خالص.. أنا طول عمري عايش وسط الكتب.. بابا الله يرحمه كان مدرس تاريخ.. أقصد إنّي ماليش نشاط معين.. مفيش وقت أنزِل مظاهرات ولا أتابع الشارع.. الشغل واخِد كل وقتي.. تجربة كمان زي اللي مرّيت بيها تغيّر بلد.

– ولو عندك وقت؟

– بصراحة ما أظنش هنزِل.. إحنا مش من البلاد اللي بتغيرها مظاهرة..

– أوبااا!.. يعني أنت شايف إن المظاهرات تضييع وقت.

– أنا رأيي إن آخِر مظاهرة عملت تأثير كانت مظاهرة كوبري عبّاس سنة ٤٦.. من بعدها حاسس إننا بقينا بنمثل.. أو يمكن صوتنا انحشر.. فيه حاجة غلط.

– واضح إن ليك دراية بالتاريخ.. بس مش بالمستقبل.

رشفت آخِر قطرة في الزجاجة ثم تأملته مُضيّقة حدقة عينيها: أنت وراك سِر كبير؟

رجع بظهره إلى مَسند الكرسي وهو يتأمل أعضاء الفرقة الذين بدءوا يتّخذون مقاعِدهم خلف الآلات: ليه بتقولي كِده؟

– كلام في السِّر.. أنا بقدر أقرا الأفكار.

ارتفع صخب الآلات حين بدأ العازفون في تجربتها فرفع «طه» صوته: صدقيني مهما حاولتي مش هتتخيلي.

اقتربت من أذنيه وهمست: مبدئيًا ده أول دليل إنّ وراك سِر كبير.

– كمِّلي..

اقتربت منه أكثر ونظرت في عينيه سبرًا لأغواره: أنت معندكش أصحاب كتير.. مستغرب أني بشرب.. فيه حاجة خلّتك تيجي النهارده بالذات.. يمكن هروب.. أو يمكن.. أقصد أكيد.. مُعجب بيّا.

لم يسمع أخر مقطع فأعادته. رجع بظهره ونظر في عينيها فأردفت: فاكِر يوم ما جيت الصيدلية.. كنت هاموت من الضحك لمّا خلّيت الولد اللي عندك يتكلّم في التليفون عشان تيجي تكلّمني.. ده غير أنّي بشوفك وأنت بتبحلق فيّا وأنا راكبة معاك الأسانسير.

مط «طه» شفتيه: أنت جريئة زيادة عن اللزوم.

– أنا ما بتكسفش.. لمّا بيعجبني حد بقول له في وِشّه.. سكت وابتسم لمّا لم يجد ما يقول..

في تِلك اللحظة بدأت الفرقة في العزف.. (Oye Como Va).. للمُبجّل (Santana).. أغمضت عينيها لثوان تستشعر نشوة أطلقها الإيقاع اللاتيني ثم قامت: ترقص؟ سألته فهز رأسه نفيًا.. عبست مَلامِحها فازدادت جاذبية: قوم..

– ما بعرفش..

ألحت: إزّاي بتعزِف درامز وقالِب دِماغنا ومِش بتِعرف ترقص.. وبعدين أنت فاكِر إن كُل اللي هِنا يعرفوا.

– معلش مش هقدر.

– قوووووم..

بدأت في جذبه حتّى استجاب.. وضعت يده على كتفيها وسَحبته تتخلّل الراقصين.. تتمايل بخصرها كحيّة بين أوراق الشجر حتّى وصلت قرب الفرقة فالتفتت إليه.. جذبت رأسه من الخلف ولامست أذنيه بشفتيها: بلاش ستايل مُلل السرير ده.. فُك. أمسكت بيده وأخذت تحرّكه.. إن كانت تجيد شيئًا فهو الرقص.. حركاتها لا تتبع عقلًا.. تتلوى على الإيقاع بانسيابية المياه الجارية.. تذوب كآلة في يد عازف.. تقترب مِنه تبعثر شعرها في وجهه.. تنفُخ عِطرها وأنفاسَها المحمّلة بالكحول.. تتخلّل الموسيقى جسدها فتزداد نشوة في حين تخشّب هو كشجرة سنط نبتت وسط مرقص.. لم تنزِل عيناه عن ذلك الفتى الذي يعتلي الدرامز.. يسري الإيقاع بين يديه إلى الطبول فتبعث ذبذباتها إلى صميم القلب.. اقتربت منه: حتفضل إتِم كِده كتير؟ هز رأسه: أنا بس... لم تستمع لتبريره.. صفّقت وصرخت ووووااووو لمّا انتهى العزف، ثم التفتت إليه لمّا بدأت المقطوعة الثانية (Tango Apasionado).. سمعت

دي قبل كِده أجابها (Astor Piazzolla).. غمزت بعينيها: ده أنت صايع تانجو بقى.. لازِم ترجع تعزِف تاني.. حتّى لو هتصدّع الجيران.

بدأت المقطوعة الهادئة تنساب فبطأت الحركة على المسرح، تقاربت الرؤوس كأشجار في نسمات الفجر، نظرت في عينيه وبتلقائية اقتربت، رغم ما شعرت به يده حين التفت حول خصرها، كانت نغمات تلك المقطوعة تُعزف على أعصابه، لم تفارق عينيه آلة الدرامز، نقرها الأشبه بإبر صينية تنغرس في جفونه، أغمض عينيه للحظات ثم فتحهما دامعتين، رفعت رأسها حين أحسّت بحشرجة: فيه إيه ما لك؟! ابتلع ريقه بصعوبة ولم ينبس بكلمة فسألته: حصل حاجة؟

- لأ.. افتكرت بس بابا الله يرحمه.. مِش قادِر أنا آسِف لازِم أمشي.

تركها ورحل بعدما رفع يده باعتذار واه، ظلّت تتابعه في ذهول حتّى اختفى، تمشّى راجِعًا بيد مُرتعِشة ورأس تُشبه دومة مأكُولة، يجتر كُل لفظ تفوّهت به أمّه، تلك التي سَكتت دَهرًا لتنطِق كُفرًا، صفعة «عِماد حمدي» على وجه «عبد الحليم حافِظ»: أنت لقيط.. لقيط.. دي مِش أمّك وأنا مِش أبوك.. أخرج برّه بيتي...

كم بدت مُعبّرة كلمة أنا مِش أبوك...

ازدادت لسعة الصقيع وطأة.. أخذ يَصُد بياقته التيّارات العابثة وهو يتأمّل المارة والحبّيبة الذين لا يشعرون بالبرد، وبعض نسوان العرب في الحناطير بالعيون المكتحلة خلف النقاب، وذلك العُرس شديد الجلبة، يقرع أصدقاء العريس أبواق سيّاراتهم في تيت تيت تيتيتيتيت رتيبة مُلحّة تبث الجنون في الصخر المصمت، وجه «السيرفيس»

يرمقه، وطرقات الصُّداع تدقّ رأسه كناقوس ضخم في معبد بوذي واسع، أخذت تتضاعف حتّى أخرج شريط «ميجرنيل»، تناول قرصين رشوة للخبط المؤلم علّه يصمت، نزلا بدون ماء يخربشان جوفه حين اصطدمت يده بالقنينة الصغيرة التي وجدها في كرسي أبيه، أخرجها وأخذ يتأمّلها، كم بدت ضئيلة بالنسبة لأفعالها، تأثيرها مثالي كملك الموت، سُم غير كيميائي يتغلغل بصمت كحيّة ملساء ليظهر تأثيره بعد شهور، يتيح فرصة لمن تجرّعه ليبدأ صفحة جديدة، صفحة واحدة فقط، لكنّها كافية لتصحيح بعض الأخطاء قبل الرحيل المؤلم، تسديد الضرائِب المؤجّلة، ذلك الثمن الزهيد للتكفير.. فُل؟ ورد يا باشا؟.. كانت تلك فتاة صغيرة تحاول بيع ورد أحمر جربان مَلفوف في ورق السيلوفان ظنًّا منها أن الزبون في انتظار مُزّة، اعتذر «طه» واتّخذ طريقه للبيت.. في الميدان لمح «السيرفيس» جالسًا فوق سيّارة يتحدّث مع شخص، لم يتّخذ التفكير منه ثوان، رفع يده بطيئًا بتحيّة جعلت «السيرفيس» ينظر وراءه في شك، ارتفعت نبضات قلب «طه» عندما رجع بنظره، أخفى قلقه وابتسم ابتسامة تعني أنّ التحية لك، تمّم «السيرفيس» على مِطواته ومشى في خطوات متثاقلة يتأمل «طه» علّه يجد ما يخفي:

- أنت خايف تيجي والا إيه؟ باغته «طه»..

- أخاف إيه يا شِق.

- أنا عارِف إن مِش أنت.

هرش «السيرفيس» رأسه في تساؤل: وأنت ليه بتقول لي الكلام ده؟

- عشان ما بحبّش حد يزعل مِنّي.

- بيّت في القسم بسببك، هيء ميء بس في الآخِر حق ربّنا ظهر.. ورب الكعبة أنا سكت بس عشان حالة الوفاة اللي عندك.

- اعتبرها حق كسر الإزاز.

- طب والعشرة دول...

- من غير ما تحلِف.. اللي فات مات.

كان ذلك آخر ما يتوقّعه «السيرفيس».. ظل يرمقه بعينيه الميتتين سابقًا ثم هز رأسه: ماشي يا شِق.

- عشان نتصافى بقى.. ليك عندي هدية.

- الله.. أنت مش كُت عامِل فيها «يحيى شاهين»؟

- بلاش قدّام الواد «وائِل».. بيرغي مع صاحِب الصيدلية.. أبقى شاور لي من بعيد وأنا هخرج لك.. نفسك في إيه؟

- التركيبة.. «خالد» بس كان هو اللي يعرفها.. ابن أبالسة مش عارِف أتلم عليه.

- عندي.. أعتبرها معاك.

- هجيلك.

كانت مباغتة غريبة من «طه».. سيقضي «السيرفيس» الليل يقلّبها في رأسه.. ولن يَستسيغها.

* * *

الفصل الرابع عشر

في ذلك الوقت كان «وليد سُلطان» قد وصل القسم بعد جولة في المنطقة، نزل مِن سيّارته ففزّ كُل من بالباب رافعين أيديهم بالتحية التي تُرد برفعة يد غير مكتملة، دخل غرفته التي رشّها عسكري بمُعطّر للجو قبل خمس دقائِق حين علم أن الباشا في السكّة، جلس في كرسيه وأشعل سيجارة رَمى علبتها على المكتب.. دقيقة ودخلت القهوة ثم صف ضابِط يحمِل بعض الملفّات: أزيك يا «بسيوني».. عندِنا إيه؟

- الله يسلّم معاليك يا باشا.. العيّلين السيس اللي قتلوا زميلهم.

- آه.. خلّي البلوكامين يطلّعهم لي بعد نُص ساعة على ما أشرب القهوة.. إيه تاني؟

- مفيش غير الواد بتاع امبارح.

- متسجِّل على الكمبيوتر؟

- لأ..

– هاته..

فتح «بسيوني» ورقة صغيرة كانت في يده: مقدّم «عصام» ومَدام «بشرى صبيرة» بتاعت ميدان فيني كلّموا سيادتك.

رفع سمّاعة التليفون وطلب رقمًا حفظه سابقًا، ثوان وأتاه صَوت «بشرى صبيرة»، ناعِمًا مملوءًا بالإغ الفرنسية: آلووو.

خمس وعشرون عامًا في خدمة المجتمع من خلال نادي وجمعية الـ(...) للخدمات المُجتمعية، عووودفرنساوي أصيل رغم السن الذي تخطّى الخامسة والخمسين، يَحمِل وجهها أطلال جمال مُرمّم بثلاث عمليات تجميل تركت أثرًا صغيرًا خلف الأذن وتحت الصدغ، شقراء، واسِعة العينين، تلبس سِلسِلة ذهبية حول خَصرها تَجذِب الأنظار حين تنحني لتحمِل كلبها كثيف الشعر الجولدن ريتريفر «ماركو»، خِدمة المُجتمع لديها تطوّرت لتشمل إيصال الحب لمستحقّيه، فمن خِلال اتصالاتها وعِلاقاتها تخطّت المستوى المحلّي إلى العربي، ألّفت شبكة واسِعة لتصدير البنات في مُهمة مُتعة رَسمية لأمراء وشيوخ العرب، أصحاب اليد العليا والسوق الرائِجة والكروش العامرة، تموّلهم بالروسيات، والعربيات، بالهنديات أو حتى الزنجيات، كُل الجنسيات والألوان متاحة على حسب أهواء الزبون مهما كانت شاذة وغريبة، لم تعد تتعامل مع المصريين إلا في نطاق ضيّق، فقط من ضمن مُستقبل أولاده وأحفاده حتى ثلاثين جيلًا.

تم القبض عليها يومًا، نزلت بهدوء مُحاطة بأفراد الأمن لتركب سَيّارة الشرطة، ونُشر خبر عنها في اليوم التالي بالأحرف الأولى «ب.ص»، ثم لم يلبث أن أفرج عنها بعد يومين إثر اتصالات مكثّفة

بالأصدقاء لتستأنف نشاطها وكأن شيئًا لم يكُن، قرصة أذن لم تفلح مع مَسنودة ظهر لا تضرب على بطنها، فليس من السّهل كسرها ويدها في فم كبار المسئولين «أو في منطقة أخرى»، يَكفي ذِكر اسم واحد فقط من عملائها بالداخل أو الخارج لتصبح قضية الساعة.

– مش عارف ليه حاسس إن اتصالك ده ليه علاقة بحد عندي؟

انسحب «بسيوني» وأغلق الباب.

أجابته «بُشرى»: «وليد سلطان»..!! صعب حاجة تستخبى في دايرتك.

– إيه الحكاية؟ خدمة للمجتمع برضه!!

– عندك ولد في الحجز اسمه كريم.. الولد ده يلزمني.

– بطّلتي تشتغلي في الحريم يا «بشرى»!!

– كل واحد وليه طلبه.

– الواد ده بتاع مين؟

- (VIP).

- (VIP) مين يعني؟

– مش هقدر أقول لك.

بغلظة مفتعلة: إنتي هتشغّليني إيريال يا «بُشرى»؟!

- (Calm Down)! لو مَكاني مش هتحب تزعّله.. وبعدين خِدمة قُصاد خِدمة.. أنا ما بنساش.. إيه بقى اللي حصل؟

– جالي بلاغ عن شقّة.. طِلعت.. خبّطت فتح لي عيّل شكله شِمال.. وشمّيت حشيش.. ضربت رجلي ودخلت.. ألاقي لك

خمس عيال لابسين قمصان نوم راكبين فوق بعض.. شافوني لونهُم راح.. ولقيت الزبون لابس بيبي دول أحمر!! لمّا جينا هِنا سألته اسمك إيه؟ اتلجلج.. وبعدين لقيته بيدّي لي رقمك وبيقول لي كلِّم.. قلت له إركِن.. عرفت إنّك هتتّصلي.

- (Fuck) يعني أنت عارف إنّي كنت هكلّمك!

- أنا مِش عارِف خِدمة مُجتمع إيه اللي إنتي شغالة فيها!!

- عارِف البرّاد اللي بتشرب فيه شايك الصبح؟ تخيّل لو من غير فتحة تنفيس.. ينفجِر.. أهه ده اللي هيحصل لو المُجتمع مافيهوش واحدة زيّي.

- وإنتي بقى الفتحة!!

- أنا محتاجة الولد يخرج الليلة دي يا «وليد».. (Please).

- ما ينفعش.. لازِم يبات لبكرة ويتعرض على النيابة.

- لمّا كنت بتقابل حد يخصّني كنت بتكلّمني!! أنا ممكن أعمِل أي حاجة عشان الولد ما يباتش الليلة دي.. هسلّمك شقّة في آخر شارع التحرير.

- عارفها.. اللي تحت الكوبري عند المطعم.. لسّه مش عاوزة تقوليلي الواد ده مرافق مين؟

- ده آخِر كلام عندك؟

- عشان خاطرك ممكن أعيّن له حد من العساكِر يبات في حضنه..

- طيب يا «وليد».. أنا هتصرّف.. بس (Please) ما تجبروش يتكلِّم.

لم تمهله.. أغلقت الخط.. لم تكن تعرف أنّها حكّت للتو أنفه.. وأنه لن يبيت ليلته إلا وفي رأسه اسم.

في تلك اللحظة قرع «بسيوني» الباب.. دَخل يَصطحب شابا بدا عليه الإعياء.. تفحّصه «وليد».. كان في أواخِر العشرينيات.. وسيم متوسط الطول حليق الوجه إلا مِن سكسوكة رفيعة تحيط ذقنه وشعر رأس منتصب كعرف ديك: شيلي السَّلاسِل اللي في صِدرِك يا بِت. صاح فيه «وليد» فلم ينتظِر ثانية.. جذبها سريعًا وأودعها جيبه.

- أمال عضلات بس وشعر صِدر!! كل ده وعجلة.. أنا ما رضيتش أنزّلك الحجز بالبيبي دول.. كنت هتبقى صَيحة الموسِم.. إيه اللي رماك الرمية دي.

- والله حضرتك أنا...

- سالب والا موجب؟

أدلى برأسه إلى الأرض فأردف «وليد»: رد يا (...) أمّك.

- كِده وكِده.

- الله.. ده أنت واخِدها مراجيح.. أنت منين ياض؟

- مدينة نصر.

- أبوك بيشتغل إيه؟

- مُدير عام على المعاش.

- ويعرف إن الحيلة عجلة؟

نظر في الأرض فعاجله «وليد»: تعرف «بُشرى» منين؟

- اتقابلنا في سهرة.

- بتشتغل معاها بقالك قد إيه؟

- سنة.

- بتوديك لمين؟

لم ينبس «كريم» بكلمة.. سكت وكأن السؤال لا يخصّه فأردف «وليد»: مفطناك ما تقولش.. طب بتاخُد كام في النطة؟

لم يتلق «وليد» إجابة: أنت حرّ.

سَحب سمّاعة التليفون: يا «بسيوني».. هو «عنتر» لسه عندنا ولا راح الاستئناف؟.. عندنا.. طيب تعالى.

اهتزّت مَعالِم وجه «كريم» فعاجله «وليد»: تحت هتلاقي اللي يقدّرك.. هتتأجر سبعة راكب بخرطوشة سجاير.

دخل بَسيوني فاختلج «كريم».. اقترب مِن المكتب متوسلًا:

- خلاص يا باشا.

- مِش هوصيك يا «بسيوني».. يلبس البيبي دول ورشّه بارفان قبل ما يخش.

سَحبه «بَسيوني» من سَاعِده.. فتمسّك بالمكتب: اللي حضرتك عايزه.

- سيبها يا «بسيوني». ألقاها «وليد» مبتسمًا ثم سأل «كريم» ثانيًا: كنت رايِح عند مين؟

تفهّم «وليد» سكوته فأمر «بسيوني» بالرحيل.. حين أصبحا في المكتب وحيدين نطق بالاسم في تردد: «هاني بِرجاس».

كتم «وليد» اندهاشه وأشاح بوجهه ناحية التليفزيون مُتابعًا حلقة المصارعة لثوان ثم أردف: وهو موجب والا سالب؟

- سالِب.

- بيدّيك كام؟

- خمستلاف.

- في الشهر؟

- في الأسبوع.

- يا ابن المـ(...).. ده أنت بيزنس مان.

كان ذلك قبل أن يرن جرس التليفون: باشا.. واحِد اسمه «هاني برجاس» على التليفون.. عايز سيادتك.

نظر «وليد» إلى «كريم» وابتسم قبل أن يضغط الجرس: هنكمّل كلامنا بعدين.

دخل «بسيوني»: أؤمر معاليك.

- سجّله على الكمبيوتر وبيّته وسط أخواته.

- أوامِر سيادتك.

سَحبه «بسيوني» للخارِج حين وضع «وليد» السمّاعة على أذنيه: آلو..

– مَساء الخِير يا «وليد» بيه.. مَعاك «هاني برجاس».

– غني عن التعريف يا «هاني» بيه.. أهلًا وسهلًا.

– سمِعت عنك كتير.

– أرجو يكون خير.. أزّاي الوالِد؟

– ادعي له.

– ربّنا يقوّموا بالسلامة.. أؤمر.

– الموضوع اللي عايزك فيه مش هينفع في التليفون.. نتقابِل؟

– اتفضّل في المكتب.

– ما تخلّينا بـرّه عشان نبقى على راحتنا.. أنا قاعِد في الـ(Four Seasons).. في (Library Bar).. ما تشرّفني..؟

– بصراحة أنا عندي تحقيق كمان شوية و...

– مش هاخُد من وقتك كتير.

– بعد ربع ساعة.

أغلق «وليد» الخط واسترخى في مقعده الوثير.. خفّض صوت المصارعة وشرد بنظره في الفراغ يراوِده سؤال واحِد.. كم سيدفع «ابن برجاس» ثمنًا لحرية حبيب القلب؟! رغم عدم الاحتكاك كان على دراية كامِلة بتاريخه وتاريخ عائِلته.. فالشرطة عائِلة كبيرة يصعُب فيها إخفاء الأسرار.. كان يعرف أنه خرّيج جامِعة «ريتشموند» الأمريكية بلندن.. أيضًا كان يعرِف أنّه يدير شركات العائلة.. أغرقت إعلاناته وسائل الإعلام ولافِتات الشوارع حتّى خفتت بجانبه سيرة

والده.. مُقاولات وإنتاج سينمائي ونشاطات لا يدرك أحد مداها.. بات قُطب العائِلة الأوحد.. لا يسكُن في بيت.. يفضِّل الفنادِق.. لا مَعلومات شخصية ولا صور ولا ردود فِعل ولا تصريحات.. كُل ما أثير حوله مِن شكوك كان بشأن مؤخّرته!! هُناك من أكّد أنها إشاعة طبيعية تلاصِق كُل مشهور انصرف عن الزواج.. وهُناك من أكّد أنّه في حالة بحث دائِم عمّن يسد ثغرة لا تتوانى عن الاتساع.

ويبدو أن الأخير كان على صواب.

نظر «وليد» في ساعته ثم سَحب نفسًا أخيرًا من السيجارة قبل أن ينطلِق للمقابلة.

* * *

في ذلك الوقت مر «طه» بالصيدلية بعدما ترك علامات الاستفهام لتلتهِم «السيرفيس»: تعرف رقم تليفون «خالِد»؟ سأل «وائِل»..

– خالد بتاعنا؟ آه طبعًا.

دخل «طه» المعمل.. أخرج تليفونه وطلب الرقم: ألو.

– مين معايا؟

– أنا «طه».. إحنا ما تقابلناش.. أنا شغّال في صيدلية د. «سامح».. وكنت عايز منّك خدمة.

– أؤمر.

– «السيرفيس».

– آه.. ماله.

– مش عايز أضيع وقتك.. أنا واقع في مُشكِلة معاه ومحتاج التركيبة.

– هو استلمك؟

– يعني.. تقدر تقول كِده.

– خلّي د. «سامح» يتصرّف.. مش هو اللي مشّاني.

– د. «سامح» ما يعرفش إن أنا بكلّمك.. اعتبر دي خدمة من زميل لزميل.

سكت «خالد» ثوان.. بدا لـ«طه» أنّه سيرفُض: اطحن له قرصين «إريك» مع «ترامادول» على «باركينول».

– بس كِده، دي مش تركيبة أصلًا؟

– هو لازِم يفضل فاكِرها تركيبة.. أمّال هتبقى خدمة إزّاي.. مقتنع إنّها بتيجي من برّه كمان.. أصل الواد ده من تحت زيرو.. المخدرات واكلاه.

– إيه اللي وصّل الأمور لكده؟

– أديك شفت ممكن يعمِل إيه، مش طالبة تشوّه، كان لازِم أعمِل حاجة تخلّيه دايمًا محتاج لي، ويعدين بقبض ملاليم، أظن أنت واخِد بالك.. ابقى فهّم د. «سامح» إن أي حد هييجي المكان ده هيعمِل زيّي.. العيب عمره ما كان فيّا.

شكره «طه» وأنهى المكالمة ثم استدار للأرفف.. أخذ يجمع شنتات التركيبة.. أخرج الكبسولات وبرفق أدارها عكسيًا وسحب أطرافها..

انفتحت وتسرّبت منها المَساحيق في طبق أمامه.. طحن المحتويات ثم مدّ يده في جيبه وأخرج قنينة التراب.. فتحها ونقر عليها بسبّابته لينزِل منها مقدار قليل من التراب.. تراث والده.. خلطه بمحتوى الطبق.. وبعناية صيدلي صَبّ المحتوى بداخل زجاجة داكنة وانسحب إلى البيت.. على مِنضَدة السفرة المهجورة ووضع الزجاجة أمامه.. ظل يتأمّلها لدقائق.. ابتلع قرصًا من دوائه مُحاولًا استحضار أعصابه ثم قام للحمّام.. خلع ملابسه واستلقى بداخِل البانيو.. سد البالوعة وترك الصنبور يخر حتّى قارب الماء رأسه.. أغلقه وانزلق حتّى باتت أذنيه تحت الماء.. لم يعد هناك صوت سوى شهيق وزفير داخِل رأسه.. ورقع عالي الصدى لنِقاط المياه المتسربة في إيقاع منتظم.

* * *

في تلك اللحظة كان «وليد سلطان» يدلف بار (Library) بالدور الثالث بفندق «الفور سيزون»، مَكان هادئ خافت الإضاءة يطُل على النيل، مُغلّف بجو من الهمس وروائح السيجار الكوبي والدومينيكي الفاخِر وخلفية من الموسيقى الناعِمة بجانب بار عامِر يتردّد عليه كبار الساسة والمفكرين بحثًا عن الاسترخاء، للتفكير في مُعضلات مالية أو شؤون عربية ودولية، وكثيرًا ما صدرت منه قرارات سياسية قبل أن تصِل زجاجة الكونياك لمنتصفها، كان «هاني برجاس» يجلِس في الطرف المطل على النيل، بدا حالمًا كفارس من فرسان عَصر الروكوكو في رواية لـ«شكسبير»، شعره الطويل المفروق من اليسار ووجهه الحليق وبذلته الرمادية المقلمة وكرافتته الحمراء الداكِنة، يَرتدي ساعة كارتييه باشا بمِعصم جِلدي مُوديل السنة، تحتضن راحته كأسًا وبيده الأخرى يعبث في تليفون محمول (Blackberry).

عندما انتبه لقدوم ضيفه ابتسم في عذوبة، قام مادًّا يده الناعمة بسلام، صافحه «وليد» بحفاوة لا تخلو من حذر: أهلًا أهلًا «وليد» بيه.. اتفضّل.

جلس «وليد» متفحصًا مضيفه الذي وضع أنامله تحت ذقنه لثوان بدت طويلة قبل أن يسأله: نبيت؟

أجابه «وليد»: نبيت..

أشار «هاني» للنادِل:

(Sil vous plaît.. une coupe pour mon ami, et bouteille de Golan Sauvignon avec un plat froid de fruits de la mer).

ثم موجهًا كلامه لوليد: (wine) هايل.. هيعجبك.

– جولان ده سوري؟

– إسرائيلي.. بصراحة أحسن بلد بتعمِل نبيت.. شاطرين جدًّا.

مَط «وليد» شفتيه: شاطرين في كُل حاجة.

ضحك «هاني»: إذا فكّرت بالشكل ده هتِتعب.. الحرب حاجة والبيزنس حاجة تانية.. وفلسطين دي موضوع تالِت خالِص.. ولو أنّها بيزنِس برضه.

ابتسم «وليد»: صحيح هي جت على النبيت!

– فيه كمان سيجار دومينيكي يخبل.. أحلى من «الكوهيبا» الكوبي.

– تقيل.. ما أقدرش عليه.

– (But you look strong).

ابتسم «وليد»: لا ده من البوكس أيام الكلية.

– أنا مش هطوّل عليك.. خلّينا نخُش في الموضوع (direct).. أنت عارِف طبعًا حالة الوالِد؟

– ربّنا يشفيه.. يقوم بالسلامة.

– الأعمار بيد الله.. بصراحة الدكاترة مش مطمّنيني.. حالته غريبة وصعبة.

– هو كانسر مش كده.

– مش بالظبط.

حضر النادِل يحمِل زجاجة النبيذ.. فتحها وصب منها كأسين ثم وضع طبق مربّع عليه كوكتيل من المأكولات البحرية الباردة وانسحب قبل أن يردف «هاني»: إحنا عملنا له إشاعات ومناظِير في «إنجلاند» ولقينا حاجة غريبة جدًا.. بودرة منتشرة على طول المريء، عملت له أورام تدّي نفس أعراض الكانسر بس الألم غير مُحتمل.

– بودرة!!

– (diamond) ماس!!

– ماس!!

– مش قادرين نوصل لتفسير.

– بتشتبه في جريمة.

- أي إنسان ناجِح ليه أعداء.. بس مش الوالِد.

- مُمكن تقدّم بلاغ ونحقّق إذا كنت شاكِك في...

- فات أوان الكلام ده، إحنا حتّى رجّعناه مصر بناء على نصيحة الدكتورز في «إنجلاند».. «وليد» بيه.. مش هَسمح يبقى فيه تشريح بعد الوفاة.. الموت ليه حُرمته.

كانت مفاجأة بالنسبة لـ«وليد سلطان»، والأعجب كان هدوء «هاني برجاس» في تناول الأمر.

- يقوم بالسلامة!!

تنهد «هاني»: (Anyway) حبّيت أبلّغك بس إنّي ناوي أرشّح نفسي في الدايرة بعد الوالِد.. أنت عارِف سمعته ومحبة الناس ليه.. وأنا عايز أمشي على نفس الـ(way).

هز «وليد» رأسه في استغراب: في حاجة أقدر أساعد فيها؟

- أنت الخير والبركة.. أنا نازل قدّامي «خالد السمّان».. عايز عنايتك عشان الأمور تِمشي.. والكُل يِنبسِط.. الكُل.

رجع «وليد» إلى ظهر الكرسي: لو حاجة في اختصاصي أنا...

قاطعه «هاني»: مفيش حاجة في المنطقة مش من اختصاصك.. أنا مش متعوّد أتكلّم مع حد في المواضيع دي.. بس أنت بالذات قلت لازِم أجيلك بنفسي.. أنا كِده كِده راكِب.. فاهِمني طبعًا.. والتوجّهات الجديدة كُلّها في صالحي.. بس «خالد السمّان» دايِر يلسّن عمّال على بطال ويطلع إشاعات.

- إشاعات زي إيه بالظبط.

احتقن وجه «هاني» قليلًا قبل أن يبتسم: في الانتخابات الضرب تحت الحِزام شيء طبيعي.. مُمكِن يطلّعوا عليك أي حاجة والناس هتصدّق.. أي حاجة.

قالها واقترب بصَدره من المِنضَدة مُشيرًا لـ«وليد» أن اقترب: أنا عاوز «السمّان» يخرس.. يِختِفي.

- يِختِفي!! إزاي يعني؟!

سحب «هاني» نفسًا من سيجاره وأطلقه دائِرة في الهواء.. أشار لها بأصبعه وهي تصعد حتّى تلاشت: كِده.

- مش عارف أقول لك إيه! قالها «وليد» مبتسمًا حين أخرج «هاني» من جيب سترته قلما ذهبيا أنيقا وورقة صغيرة ودفعهما على المِنضدة براحته: قدّر نفسك..

نظر «وليد» حوله ثم للورقة قبل أن يدفعها لوسط المِنضدة، فأعادها هاني ناحيته ثانيًا: ما تتكسفش.

ببطء أمسك «وليد» بالقلم وعبث به بين أصابعه وهو يتأمّل المكان من حوله قبل أن يخط على الورقة رقم.. ٥..

أمال هاني رأسه في ابتسامة: إيه رأيك في شوية زيروهات؟

كتب «وليد» أربعة أصفار ثم أضاف صفرين آخرين.. سحب هاني الورقة وقرأها ثم أشاح بوجهه إلى النيل الهادئ قبل أن يبتسم ويقترب بصدره من المنضدة: إيه ده؟

أشعل «وليد» سيجارة: مش كتير على «هاني برجاس».

– أنا عارِف إن السمّان عملّك زيارة.

بُهِت «وليد».. أحدق في وجه هاني حين أردف الأخير: (People Talk).. مِش عيب حد يزور حد.. أنا هكون (direct) معاك.. الـ(Offer) اللي جالك كام؟

رجِع «وليد» بظهره إلى الكرسي مبديًا الدهشة فأردف هاني: ما تاخُدش كلامي بحساسية.. أنا بقدّر الذكاء جدًا.. والا أنت خلاص أدّيته كِلمة؟

كان ذلك فوق طاقة «وليد سلطان».. اجتاحه التوتّر.. تداعت الاحتمالات أمام عينيه.. كيف عرف «هاني برجاس» بأمر «السمّان»؟ لا بد علم بشأن عربون إنهاء صراع الانتخابات.. إلى أي مدى تورّط؟ كم يَكره التدخّل في خصوصياته.. كثيرًا ما وافق على عطايا وهِبات المُحيطين لدائِرته الاجتماعية.. يقبل التسهيلات ليركب السيارة موديل السنة.. الساعة الـ(Rolex) لتسهيل خروج ابن مدلّل لحضن أبيه.. يُمثّل له مُوسِم الانتخابات فرصة جيدة لتحلية الفم.. يأخذ من فاسِد لنصرة فاسِد.. هكذا يُحلّلها.. يستسيغها.. يبتلعها.. يتعامل كما ينبغي لأي رئيس مباحث أن يتعامل في ظِل ما يرثه من إمكانات وسُلطة يضفيها منصبه ونِفاق مَن حوله وحُب الاقتراب من حملة النجوم والنسور الراسِخ في وِجدان الأمّة منذ قديم الأزل.. طالما في الإطار الذي يضمن له بقاءه.. فقط كان لا يتقبّل فِكرة أن يهدّد.. ولو بلطف.. يُتوعّد.. من مكان أعلى.. انتابته رغبة عارمة في إنهاء

المقابلة وترك المكان.. رغبة تشعر بها الفئران في المصيدة.. إلا أن حاله كانت تسمح بحركة دفاعية.. ردّة فِعل أخيرة: «هاني» بيه أنا مستغرب!.. أنت واصِل.. وكِده كِده راكِب.. الأمر كان هيجي ويتنفّذ.. الصناديق هتتبدّل وكُل حاجة هتبقى تمام.. فيه حاجة أنا مِش فاهِمها.. واضِح إن الإشاعات كان ليها وقع سَيئ فوق ثم ابتسم: أو أنها مِش مُجرّد إشاعات.

غرس «هاني» شوكته بعصبية في قطعة لزِجة من سَمك الأنقليس ثم رفعها لفمه: متهيألي سيادة الوزير لو عرف موضوع زيارة «السمّان» مش هتبقى لطيفة.

– ولو أهل الدايرة سِمعوا عن «كريم» أعتقِد برضه مِش هتِبقى لطيفة.

ضحك «هاني» بمِلء فمه حتى التفت مَن حوله ثم همس: أنت جريء أوي.

في تلك اللحظة رن تليفون «هاني»، استأذن «وليد» ووضع السمّاعة على أذنيه: ألو.. أيوه.. همم.. همم.. إيه المشكلة؟ مين؟

نكس رأسه لثوان ثم أردف: أنت عارِف هتِتصرّف إزّاي.. مع السلامة سكت لبرهة بدا فيها شاردًا.. تعلّقت عيناه بالبارمان الذي يصُب الكئوس قبل أن يفيق مِن شروده: كنا بنقول إيه؟

ضيّق «وليد» عينيه: كنت بقول واضِح إن المَوضوع مِش مَوضوع انتخابات بس.

كانت تِلك طعنة جَعلت «هاني برجاس» يُدرك أن الكُرة لن تكون في مَلعبه.. التقط قطعة أخرى من الطبق ولاكها مُغمضًا عَينيه في نشوة: (Delicious).. فكّر كويّس.. وما تردّش دلوقت.

قام «وليد سلطان»: أستأذنك.

ابتسم هاني وهز رأسه في تحية صامِتة قبل أن يسحق السيجار بين أصابِعه.

* * *

قبل نِصف ساعة..

أمام مَدخل فندق «فورسيزونس».. نزل السائِق وفتح الباب الخلفي لسَيّدته: خلّيكم قريّبين.. قالتها ومَشت بخطوات واسِعة إلى الباب الدوّار ثم إلى اليسار حيث المصاعد.. دلفت واحدًا وضغطت زِر الدور الخامِس والعِشرين بعدما دسّت كارت في ثقب بلوحة المفاتيح.. خرجت إلى الطرقة التي قادتها إلى جناح في غاية الفخامة.. وقفت أمام بابه ورفعت المحمول إلى أذنها.. ثوان وهمست باسمها: «بُشرى صِيرة».. انفتح الباب كأنه تلقى افتح يا سِمسِم.. مُستقبِل المُكالمة كان رجُلًا أنيقا في العقد الرابع يشبه كثيرًا «هاني برجاس»، تطريزه بذلته، تصفيفه شعره، اختياره للون الكرافتة الصاخِب، لم يكُن سوى سكرتيره وكاتِم أسراره «إيهاب»، تقدّمها حتّى غرفة استقبال أنيقة هادئة الإضاءة تدور الموسيقي الناعِمة في أرجائها وتطل على النيل من زاوية ساحِرة.. اقترب الرجل من الستائر وأغلقها ثم التفت إليها:

- اللي حصل ده تهريج .. يعني إيه «كريم» مِش جاي؟

- «كريم» عمل مُشكِلة..

أخرجت مِن حقيبتها علبة سَجائر «مُور».. ألقت بواحِدة بين شفتيها ثم أشعلت النار.. سَحبت نفسًا ثم حكت: امبارح كان سهران مع شلة.. بالصُّدفة قبضوا عليه.. رئيس المباحِث صديق شخصي.. كلمته.. هو بايت عنده النهارده في القسم.

- بايت؟

- مش دي المشكلة.. المُشكلة إن الولد إتكلم.

- يعني إيه إتكلم.

- «وليد سُلطان» صايع.. هدده فقال هو رايح لمين.. كلّمني من شويّة.

- (Shit).

- بس أؤكد لك ده صديق شخصي.. مش هيتكلم.. (I promise).

أعطى لها ظهره واتّجه ناحية الشبّاك.. مَسح شعره المُسترسِل قبل أن يردِف: لازِم أقولّه.

- مفيش داعي.. (I can handle the situation).

- (handle)..!! متأخِرة أوي.

التقط تليفونه وطلب رقم.. ثوان وجاءه صوت «هاني» من البار: سَعادة الباشا.. فيه مُشكِلة.. «كريم».. اتقبض عليه امبارح.. اتكلِم.. ضيفك اللي قاعد معاك.. أوامِر سيادتك أغلق الخط والتفت إليها:

- «كريم» في القسم؟

نظرت في عينيه جيدًا.. أدركت ما فيها فأجابته بهزّة رأس.

– ابدئي فكري في حاجة تقوليها لمستر «هاني».

– أنا حضرت له مفاجأة هتنسّيه المشكلة.

قالتها ورفعت التليفون إلى أذنها: استنّاني قدام الأسونسور.

نظر في وجهها فطمأنته بهزة رأس.. خرجت لدقائق قبل أن تعود بصحبة شاب بدا مألوفًا.. يرتدي سُترة سَوداء منفوخة بالريش وبنطلون جينز ضيّق الأرجُل.. وينتعِل حذاءًا رياضيًا أحمر: أهلًا يا «أمير».

دخل «أمير» يتأمل الجناح حين قدمته لـ«إيهاب» الذي لم يبد أنه تذكّره فأردفت: فاكِر ستار ٢٠٠٨.. أغنية «نفسي فيك».

ابتسم «إيهاب» نِصف ابتسامة ثم هز رأسه وسَحب «بُشرى» من ذِراعها جانبًا وهمس في أذنها: مفيش مَجال لغلطة تانية يا «بُشرى» هزّت رأسها بتفهُّم وتابعته حتّى خرج بعدما حيّا «أمير» بلا كلِمة.

مع انغلاق الباب رجعت سَريعًا لـ«أمير».. أحاطت وجنتيه بكفّها وربتت عليهما في حنان: «أمير».. عاوزاك فريش النهارده.. أوكيه؟

أجابها: (I am cool.. don't worry).

– عاوزة أتفق معاك على حاجة.. اللي بيحصل هنا لازم يفضل هنا.. مِش هتتمنّى تقابلني لو زِعِلت منك.. أنت مش مقدر أنت بتتعامل مع مين.. كلمة واحدة تطلع بره ما أقدرش أضمن إيه اللي ممكن يحصل (ok)؟ الـ(VIP) مِحتاج توب. قالتها وأخرجت من

حقيبتها علبة أقراص وأوقية ذكرية: يمكن تحتاج دول (ok)..؟

خلع سترته والتقط بعض البسكويت من على مِنضدة: أنا هقابل مين.

– ما تستعجِلش.. أنا سمعت إنّك شاطر أوي.. اقلع.

تلقّى الأمر كأنّه ينتظِره، خلع ملابسه في ثوان، وقفت تتفحصه كعبد ستشتريه، كان قوي البنية وسيمًا.. نزلت بعينيها إلى أسفل.. تسمّرت قليلًا.. فنظر في عينيها ثم وضع يده على كتفها وهمَّ بتقبيلها فأوقفته بحركة من سبّابتها: (Stop).. وطّي.

نظر لها في استغراب ثم أعطاها ظهره وانحنى: أوكيه..هتخُش دلوقتي تاخُد شاور.. أنا هكون معاك.

وضعت يدها على كتِفه وتمشّيا للحمّام: بمُجرّد ما تخلّص فيه عربية هتكون مستنياك توصلك في أي حتة.. كمان فيه ظرف عشانك.. هات لك شوية لبس وكُل كويس وانبسط.. ولو عجبت الباشا.. اعتبر الـ(CD) في إيدك.. كابيش؟

– إنتي وعدتيني إنّه هيعمِل لي كليب كمان.

– وريني شطارتك الليلة دي.

– (Ok).

أنهى «أمير» حمامه تحت إشراف «بُشرى».. لم تطمئِن عليه إلا بعدما ألبسته بوكسرًا وعطرته حين دوى جرس الباب، أدخلته غُرفة نوم تكثر فيها الشموع وأجلسته على السرير وسط مخدّات ريش

النعام.. كان «هاني برجاس» هو الطارِق.. لاقاها بوجه يحمل غضبًا مكتوم: اللي سمعته ده صح؟

بشرى: (Unexpected mistake).. أوعدك مش هتتكرر تاني.

تحسس خديها ثم ضمهما برفق قبل أن يطبق يده ببطء على جوانب فكّيها حتى تسلل الألم إلى مَلامحها: فاكرة مين خرجك يا «بشرى»؟ عارفة أنا اضطريت أكلم مين عشان تطلعي تاني يوم؟ كل واحد ليه عندي غلطة واحدة.. إنتي دلوقتي ليكي اتنين.. التكرار كلمة مش موجودة في قاموسي.. مفهوم.

سلتت وجهها من يده برفق: (ok).

– انتي متأكدة إن الولد أتكلم قدام «وليد سلطان»؟

– (Unfortunately).

أغمض عينيه لثوان ثم فتحهما على مِنفضة سجائرِ فرفعها وأطاح بها إلى الحائط لتتكسر مصدرة ضجّة عالية.. ثم وقف يلتقط أنفاسه قبل أن يواجِهها: ده هيكلفك كتير.. قالها وخلع سترته وفك أزرار أكمامه ثم جلس.

التفّت خلف كرسيه ووضعت يديها على أكتافه مدلكة لها: (please) مُمكن تهدا عشان أعصابك.. عندي مفاجأة هتنسيك كل النرفزة دي.

أبعد يدها وزفر في حنق فأردفت: حد كُنت طالبه من كام شهر.. حد صوته حِلو.. قالتها غامِزة.

نظر لها في حِدّة فأخذت حقيبتها وغادرت: (Bonne nuit).

ظل شاردًا لدقائق ثم طلب سكرتيره: ها.. عملت إيه؟ أنا متوقع إني أنسى الموضوع ده أكنه مَحصلش في خلال ساعة من دلوقتي.. اهتم وخلّيك قرّيب.

أغلق الخط واتّجه لجهاز الاسطوانات.. انتقي واحدة لـ«فرانك سيناترا»، على نغمات (My Way) تعرّى قبل أن يبلغ باب الغرفة.. برفق شديد فتح الباب.. دخل حيث تمدّد «أمير» كما تركته «بشرى».. يضع مخدّة كبيرة تُخفي نِصفه السفلي.. جلس «هاني» على طرف السرير.. وضع يَده على رُكبة أمير الذي بدا مُضطربًا رغم مُحاولته إضفاء بسمة على وجهه.. لم يكن يتخيل يومًا أن يَجمعه لقاء بـ«هاني برجاس» ذات نفسه.. ظل صامتًا لا ينبس بكلمة.. نظر الأخير إليه قبل أن تتسلّل عيناه إلى باقي جسده: صوتك مِش أحلي حاجة فيك ألقاها «هاني» وهو يداعِب صَدر «أمير» المُشعِر حين صدح «سيناترا»:

(and more, much more than this, I did it my waaaaay).

* * *

بعد ساعة..

اقتربت سيارة الشرطة من مدخل القسم، نزل مِنها ضابط وثلاثة عساكِر، يقتادون ستّة شباب انطمست معالم خمسة وجوه منهم تحت لطخات الدماء، بسيل من السباب و(collection) من الشلاليت جرجروهم إلى الداخِل، قُيِّد المحضر كمشاجرة أفضت لإصابة شخصين يرقدان الآن بالمستشفى قبل أن يلقى بهم إلى الحجز انتظارًا ليعرضوا على النيابة صباحًا.

بالداخل كان الجو مكتومًا كقبر فرعوني مزوّد بمرحاض، حين دخلوا سحبوا ما تبقّى من أسباب الحياة قبل أن يبتعد عنهم النزلاء الأقدم تجنبًا للاحتكاك والدماء ورائحة العرق، جلسوا يستندون إلى الحائط في صمت، يمسحون دماءهم في رتابة جزار أنهى ذبيحة. من بين الستة انفرد واحد بوجه نظيف وملابس لم تطأها يد، دسّ يده في شرابه ليخرج صورة صغيرة، نظر فيها ثم تجوّل بعينيه بين الوجوه حتّى توقّف عند أحدها، كان يجلس في الركن شاردًا، تأمّله جيدًا قبل أن يثني الصورة ويعيدها مكانها.

حين قام ليقصد المرحاض البلدي المتواري خلف صفوف الطوب لم يرعه أحد انتباهًا، خلع بنطلونه وجلس القرفصاء في قلب جحيم الرائحة، ضغط معدته قبل أن يمد يده إلى مؤخرته مستقبلًا – على غير العادة – ما تجود به في العادة، إلا أن ما تلقّاه كان مطواة!.. مطواة مغلقة وملفوفة في كيس بلاستيكي، لم يشمئز حين فضّها بأصابعه ليضعها بجانب الصورة في الشراب، قبل أن يلملم ملابسه ويعود مكانه.

لم تفارق عيناه الوجه المرسوم في الصورة، يرمقه بلا تعبير في ظل الضوء الخافت المتسرّب من فتحة صغيرة في الباب، حين هُيئ لما هو مقدم عليه وسحب نفس الثقة إلى رئتيه، سَحب مطواته في خفّة وقام في اتجاه الشاب المنزوي في الركن، قبل أن يضيّق الأخير حدقتيه ليستوعب الواقف فوق رأسه كانت المطواة قد مرّت عبر وريده الوداجي!

انفجرت نافورة الدم وأصدر خوارًا أشبه بماسورة فارغة تستجدي المياه وهو يميل ممسكًا برقبته المذبوحة، هاج الجمع وقاموا يتخبّطون ابتعادًا حين تشنّج وسقط على جانبه يستنزف نبضات قلبه، مسح ذابحه المطواة في كتف أحد الذين أتوا معه قبل أن يدسها في جيبه ويجلس بجانبه في هدوء، ما هي إلا ثوان حتّى سكن الجسد إلا مِن رعشات عصبية لا إرادية، تاركًا تحته بركة دماء ستزداد اتساعًا حتّى تطال كل الأقدام.

في الأيام التالية سيظهر خبر صغير في صفحة الحوادث تحت عنوان ذبيح الدقّي: لقي شاب مصرعه إثر مشاجرة بقسم الدقّي أمس الأول.. أعلنت مباحث الجيزة أن شجارًا قد وقع بين نزلاء الحجز ليسفر عن مصرع «كريم أنور» ٣١ سنة على يد «سعيد فاروق» عاطل ٣٧ سنة الذي ذبحه بأداة حادة كانت في حوزته إثر مشاحنة وقعت في الزنزانة.

* * *

الفصل الخامس عشر

أنهى «طه» حمّامًا تعمد أن يكون سالِخًا للجلد.. ترك المياه تتخلّله حتّى استسلمت أعصابه.. كان يحتاج لشيء يهيئه لما سيقدِم عليه.. يلح عليه ذلك الإحساس إلحاح بريمة بترول تخترق الأرض.. يجب عليه إتمام ما بدأه والِده.. كان متأكدًا من شيء واحِد فقط حين أغلق النور ورفع النظّارة المعظّمة أمام عينيه بعدما اعتلى كرسي أبيه.. أن الحكم قد نفذ بشأن «السيرفيس».. بلا استئناف.. وشيء آخر.. لن يكون الردع صامتًا.. يجب أن يُعرف وإلا فلا فائدة منه.. يجب أن يرى الناس ما سيحدث.. كانت تلك الفكرة تدور في مخيّلته حين لمحها تنزل من التاكسي.. تتعمد كعادتها أن تكون جميلة.. تأملها عن قُرب وتأمّل ذلك التافِه الذي أصدر بسيارته الـ(BM) صريرا ودخانا من أثر تخميسة شرسة جعلتها تلتفِت ناحيته ليحيّيها صانعًا بأصابعه علامة تعني رغبته في معرفة تليفونها.. بعد استعراضه الساخِن ركن السيارة في مكانه المفضّل.. أسفل بلكونة «طه».. ثم رفع صوت الكاسيت الذي تخلّى من أجله عن فكرة حقيبة السيارة الخلفية ليضع سمّاعتين بحجم طِشت الغسيل محاولًا إبهار «سارة» بالدوب دوب دوب الصادِر من أغنية لـ«تامر حسني»، وبعد أن احتواها مدخل العمارة

أطلق مع أصدقائه ضحكات عالية وحركات جنسية تفيد بأن تلك الفتاة مُزّة.. كان ذلك فوق احتمال «طه».. بسرعة قام يبحث عن أداة تصلح لِكسر زجاج أو خدش هيكل سيّارة.. ربّما لشق دِماغ!! فتح درج قديم كان لأبيه.. يحتفِظ فيه بأدوات الصيانة.. مفكّات ومسامير ودواية لمبة محروقة وشريط لحام.. ومفتاح إنجليزي.. بدا الأخير مثاليًا.. جذبه «طه» بدون تردّد واقترب من الشبّاك.. رفع يده مُصوّبًا سِلاحه للزجاج الخلفي.. لكن شيئًا ما منعه.. سيصدر دويًا وربّما رآه أحد.. أدخلته أفكاره ثانيًا خلف الشيش.

بحث بين أدوات الصيانة عن أداة جديدة.. أداة لا بصمة لها ولا صوت يدوي.. استبعد التراب.. قال لنفسه: القانون فيه جناية وجُنحة ومُخالفة.. كفاية عليه مُخالفة.. غرامة عشان الإزعاج.. وتعويض عن معاكسته لـ«سارة».. وتعويض أدبي ليّا أنا.. زي حق الدولة! عايز أبقى أسأل «ياسِر» في موضوع حق الدولة ده.

بين الأدوات وجدها راقِدة على جنبها.. نائِمة منذ باع أبيه السيّارة القديمة.. زُجاجة بلاستيكية صفراء مكتوب عليها زيت فرامِل «باكِم».. تذكّر حكاية أبيه على كوبري الجلاء.. لم يفكّر كثيرًا.. جذبها من نومتها.. تحسّسها.. كانت ممتلئة للنصف.. أخرج مسمار وخرم غطائها.. فتح الشبّاك وواربه.. ضغط بطن الزجاجة فخرج منها سرسوب رفيع.. أصاب بسهولة سقف السيارة بحنكة اكتسبها عبر التبول في وضع الوقوف.. بل وكاد يكتب بالزيت سبّة.. اطمأن لفعلته وأغلق النافذة سريعًا وتمدّد على الأرض.. فوران من السعادة جعله يغمض عينيه في نشوة وهو يسمع صراخ وسِباب الحتيت الرِّوش.

هو أنا بحب «سارة»؟

سأل نفسه وهو ينظر لسقف الغرفة.. بعد دقائق تسلّل بعينيه وراء الشيش مستطلعًا.. شاهد صاحِب السيارة ثائرًا وسط أصدقائه يتأمّل سقف السيارة الذي تساقط طلائه كجِلد مريض بالجذام.. يتوعّد من فعل بأشد الويل بجانب بعض الألفاظ النابية.. كان ذلك حين سمع العويل من الفيلا البيضاء.. فيلا «بِرجاس».. أمسك بالنظّارة ووجّهها ناحية الشبابيك المُغلقة.. رأى الظِّلال تتحرّك من ورائها في ارتباك.. حركة حائِرة.. بعد قليل حضرت سيارات كثيرة أزحمت مَدخل الفيلا في حركة غير عادية لم تأخذ منه كثيرًا من التفكير ليدرك أن «محروس برجاس» قد انتهى.. انضم للقائمة وقابل «ليتو».. تجرّع من نفس كأسه بعدما أخذ فرصته الكامِلة..

اليوم التالي شهد خروج الجنازة من مسجِد «عُمر مكرم».. صلّوا عليه وواروه التراب قبل أن يرجعوا بميكروفون عملاق وصوان هائِل ملأته النميمة والضحكات الخافتة ودخان السجائِر.. وقف «هاني برجاس» مرتديًا نظّارة سوداء تخفي عينيه، يتلقى أيدي كبار رجال الدولة الذين زحموا الشارع بسياراتهم؛ متقبلًا العزاء مستعجلًا الشيخ بإشارة من يده لينهي الرُّبع إثر الرُّبع لتنتهي الليلة الطويلة.

انقضت أيام قبل أن تستقر الأمور في الشارع مرّة أخرى.. لاحت بوادر إعادة الانتخابات الاستثنائية للدائِرة بعد أوّل جلسة لمجلس الشعب.. تعالت أقمشة يافطات «السمّان» و«برجاس» فوق بعضها حتّى منعت الهواء.. أبواق تصدح وأصوات تُجمع وتحصد.. معركة شرسة.

لن يطول أمدها.

* * *

بعد أسبوع..

مَكتب «وليد سلطان».. الساعة ١٠ : ١١ صباحًا..

أخذت أصابعه تداعب فنجان القهوة وهو يتحدّث في تليفونه المحمول: كلمت لك واحد حبيبي.. هيظبّطه.. وصّيته ما يدّيهوش أجازات آخر الأسبوع.. تمام كده يا ستّي؟.. الخميس بقى إحنا مع بعض.. قلقانة ليه! لو جوزك نازل هيجيلي تليفون الأوّل.. قولي لماما أنك مسافرة تبع الشركة.. السخنة ساعة من هِنا.. صدّة ردّة وبالليل تباتي في بيتك.. هيبقى يوم مسخرة.. هوريكي اللي عمرك ما شفتيه.. باي.

مَسح الرقم من قائِمة الاتصالات قبل أن يسمع رنين التليفون الداخلي، نظر في الشاشة ثم رفع السمّاعة: أفندِم.

– تعالى لي يا «وليد».

أطفأ السيجارة ورشف آخِر رشفة من قهوته قبل أن يتوجّه لمكتب المأمور، قرع الباب ودخل، كان الأخير عابسًا ينهي مكالمة: سيادتك هو هيجيلك حالًا.. أنا متأكِّد إن فيه لبس.. مش هوصّي سيادتك.

أغلق السمّاعة والتفت لـ«وليد»: طالبينك في أمن الدولة بعد ساعة.

اعتدل «وليد» في جلسته: خير!!

أشعل المأمور سيجارته ونفخ دخانها قبل أن يجيبه: مش عارف.. الموضوع كبير!

استقبل «وليد» الكلمات المقتضبة وخرج، ركب سيارته ببذلته وكرافتته وقلق يثقبه، ذهنه يدوي كموتور ديزل تقديرًا للموقف،

الطريقة التي تم استدعاؤه بها والسرعة والجهة الطالبة ينبئون عن أمر واحد، أنّه ارتكب خطيئة أقرب لخطيئة آدم.. وسيطرد من الجنّة.

مرّ الوقت متوانيًا حتّى وصل أمام البناية المهيبة في مدينة نصر، على الباب ترك تليفونه قبل أن ينتظر لنصف ساعة في حجرة مكيفة غاية في البرودة، استدعاه بعدها شخص لمقابلة في مكتب، مشى الطرقة الطويلة على سجّادة حمراء حتّى توقّف أمام باب، حين دلف استقبله رتبتان فوق العميد، استشعر ذلك من السن والنظرات القاسية والازدراء البادي في نبرات الصوت، ما هي إلا دقائِق وعرف «وليد» سبب الزيارة: أنت متّهم بطلب رشوة جنسية من زوجة أحد رجال الشرطة نظير تسهيل نقله من الصعيد.

بثبات ظاهري يحسد عليه: كلام فاضي!!.. دي مجرّد صديقة.

كانت تلك آخِر جملة ينطقها «وليد» قبل أن يخرج أحد الرجلين جهاز تسجيل من الدرج ويضغط زِر التشغيل: تمام كده يا ستّي؟.. الخميس بقى إحنا مع بعض.. قلقانة ليه! لو جوزك نازل هيجيلي تليفون الأوّل.. قولي لماما أنّك مسافرة تبع الشركة.. السخنة ساعة من هِنا.. صدّة ردّة وبالليل تباتي في بيتك.. هيبقى يوم مسخرة.. هورّيكي اللي عمرك ما شفتيه.. باي.

أنتهى التسجيل: المكالمة دي لسّة من ساعة.. صح؟

انهمر العرق على جبينه: أنا..

– مدام «إنچي» بلّغت عنّك واستدرجتك عشان نسجّل المكالمة.. اتفضّل إقرا.

قالها وألقى بأوراق المحضر بين يد «وليد»، مع كل سطر قرأه ازداد قميصه بللًا، تلك الساقطة التي ظنّها يومًا تفتقد رفيق فراش، طلبت مِنه خِدمة وطلب صداقتها، لم يتصوّر يومًا أنّها تدفعه لفخ محكم.

حين أفاق من شروده دفع بتهمته واستقتل.. لكن القرار كان مُعدًا سابقًا: تم إيقافك عن العمل لحين يتم البت في أمرك وفصلك نهائيًا في حالة ثبوت التهمة الموجّهة إليك.

وآخر نصائِحهم كانت: من هنا للبيت لغاية ما نستدعيك.

حمل كلماتهم ونزل سيارته.. وضعَ نظّارته الشمسية واسترخى في مقعده وأشعل سيجارة قبل أن يغلق تليفونه.. وينام.

* * *

الفصل السادس عشر

لم يشغل باله أكثر مِن انتظار «السيرفيس»، قتلته المؤجّلة، شهيقه المستمر بلا زفير، هكذا كان يشعر حين يراه بشكل شبه يومي وسط مجهوداته لتمكين ابن «برجاس» مِن الدائِرة، يترقبه بصبر صيّاد لفريسته، حتى جاء يوم لاح فيه من بعيد، أشار لـ«طه» فعاجله، خرج من الصيدلية فلم يجده، نظر يمينًا ثم يسارًا حتى لمحه في نهاية الشارع، كان يسير مُسرعًا لا يكاد «طه» يلحقه.. وما أن وصل للميدان حتى وجده قد تبخّر.. جال بعينيه فلم يعثُر له على أثر.. تحسس جيبه فلم يجِد الزجاجة الصغيرة التي دس فيها تراب أبيه مع التركيبة.. لم تسعفه الذاكِرة الخرِبة ليتذكّر أين وضعها فصعد لشقّته.. في الركن المظلم بجانِب باب الشقّة أخرج سلسلة مفاتيحه حين شعر بحركة فانتفض رعبًا: إيه يا شِق.. بتخاف من الضلمة.. لم تخطئ أذنيه نبرات الصوت المميّزة كما لم يخطئ «السيرفيس» الدور والشقّة.

- مين ما بيخافش.. والله كويّس إنّك جيت.. كنت عايزك في موضوع.

وفي محاولة لتهدئة نفسه فتح «طه» الباب سريعًا وأضاء النور:

- اتفضّل.

دخل «السيرفيس» وجلس على المِنضَدة في حين اتّجه «طه» للمطبخ: شاي؟

- مافيش داعي أنا ماشي على طول.. أنا قلت بس آجي أمسّي.

- اشرب شاي.

في المطبخ وقف «طه» أمام النار يغلي الشاي: استريح يا عادِل.

- ياه.. زمن محدّش قال لي الاسم ده.

أخذ «طه» يضغط ذاكرته اللعينة محاولًا استدراك مكان التركيبة.. وقوف «السيرفيس» خلفه أشعل توتّره.. ظل يراقب انعكاسه على سطح براد الشاي الساخِن وعيناه على درج السكاكين.. أخرج تليفونه واستدعى منظم المواعيد الذي سجّل فيه أين وضع التركيبة.. أضاءت الشاشة بكلمات قليلة: تالت درج في المطبخ.. فتحه واستخرجها.. حمل بعدها الصينية وتوجه للمِنضَدة: اتفضّل.

ناوله الكوب وأخرج الزجاجة ووضعها بجانِب الصينية: جِبت لك التركيبة.

سَحب «السيرفيس» الكوب الآخر: تُشكر يا زميل.. بس دول بحقّهم.

ابتسم «طه»: النبي قِبل الهدية.

- برنس.

قالها «السيرفيس» ومد يده للزجاجة.. فتحها.. اشتمّها: هي هي بتاعِت خالِد؟

– عيب عليك.

صَب المُحتويات في الشاي ثُم أمسك بملعقة صغيرة بيده اليُسرى وقلّب المحتوى وهو ينظُر في عين «طه» قبل أن يرفع الكوب لفمه ويتجرّعه دفعة واحِدة.

«اللي ضرب أشول»..

برقت تِلك الكلمة في رأسه حين رآه يستعمِل يساره في التقليب والشُرب..

أخرج «السيرفيس» من جيبه علبة سجائر سحب منها واحدة وناول «طه» الذي أشعل سيجارته حين استطرد «السيرفيس»: شوف.. أنا جرّبت كُل حاجة خلقها ربّنا.. «كودين».. «ترامادول».. «كودافين».. «توسيلار».. «اسمورست».. «سلطان» و«أبو صليبة» و«انكاتون».. «إكسيفين» على «كوديلار» و«باركينول».. إلا التركيبة دي.. بنت مَرَة.. ما شفتش زيّها في السرير.. قطر.. تخلّي المرة تصرّخ لمّا يبان لها صاحِب.

نظر له «طه» مُبتسمًا: التركيبة المرّة دي هتخليك أنت اللي تصرّخ.

لم يستسِغ «السيرفيس» تلك الجملة.. بدا وكأن شيئًا ما أضاء داخِل عقله فقام: لا مؤاخذة.. الحمّام.

– اتفضّل.

لم يشر «طه» إلى اتجاه.. ولعجب لم يستنكره قام «السيرفيس» وتوجّه للحمّام بدون أن يسأل عن مكانه.. بدا كصاحب بيت معتاد.. لم يتردّد وهو ينحرف ما بين الغرفة الأولى والثانية في تلك الزاوية المخفية التي لا تُرى من الصالة.. لقد حضر ذلك الخنزِير من قبل.. زار والده زيارة واحدة.. زيارة أخيرة.

بعد ثـوان.. سمع «طه» كحّة وزمجرة وبصاق.. لم يكن «السيرفيس» يدرك أن الأمر قد حُسِم.. التصق بخلاياه.. بدأ طريق اللا عودة.. سلامتك.. قالها «طه» بابتسامة حين عاد «السيرفيس» الذي بدا وجهه مُحتقنًا.

اقترب من «طه»: ما حدّش بيلعب مع «السيرفيس».

رمقه «طه» في صمت.. ثوان وفتح «السيرفيس» الباب مغادرًا حين استوقفه: مِش عاوز تِعرف كُنت عاوزك في إيه؟

رمقه «السيرفيس» منصتًا فأخذ «طه» نفسه وقال: حلمت لك حِلم.

بعد دقائِق رَحل «السيرفيس».. نزل الشارع يَحمِل تراب «طه» وحلمه.. حِلم لم يستسِغ مَعناه.. اكتفى حين سَمعه بهزة رأس وكلمة استهزاء.. راقبه «طه» من الشباك حتّى توارى.. ابتلع قرص من دوائه محاولًا وأد نبض يحيط رأسه..طبول تصنع إيقاعًا هادرًا يدق عقله كزار أفريقي لإخراج عفريت من جسد.. من الحياة.. لا بد من احتفال.. انسحب إلى غرفته.. كشف الحجاب عن الدرامز.. استخرج عصيه وجلس.. لأول مرة بعد الحادث يقرع برجليه الطبلة

الكبيرة في الأسفل لتصنع صدى في أرجاء الغرفة.. سَكت للحظات وأغمض عينيه في نشوة ثم بدأ في الرقع بإيقاع منتظِم.. رقع يتماشى مع طرقات رأسه.. رفع يديه التي هجرت الدرامز منذ زمن وهوي بها في سرعة لم يختبرها من قبل.. اختار عقله إيقاعًا ثقيل من الـ(Rock).. لم يدر كم مر عليه من وقت حتّى انتهى غارقًا في عرقه.. ارتمى بظهره يَستنِد إلى الحائط وشبح ابتسامة يراوِد شفتيه حين أخرجه جرس باب مزعِج عن سكونه.. فتح ليجِد أمامه «ياسر».. يحمِل حقيبة يد وجراب للبدل ووجها يطفح أقصى آيات اللعن.. لَم يُمهِل «طه» ليلقي سَلامه.. أزاحه بلا كلِمة ودخل الصالة.. ألقى نظرة مشمئزة قبل أن يقذف الحقيبة ويرتمي على الكنبة: إيه!! نغزه «طه».

أشعل «ياسر» سيجارة ونفث دخانها: اختراع اسمه النسوان!!

- شكلك مرقوع شبشب.

- فاكِر البِت اللي حكيت لك عنها.. البت بتاعِت الفيس بوك.

كتم «طه» ضحكة كادت تفلت: أيوة المتجوزة.. ما لها؟

- نسيت الـ(Inbox) مفتوح ونزِلت.. السّت هانِم فتحت الرسايل.. شافت الليلة كُلّها.

وضع «طه» يده على فمه: يا نهار إسود.

- هاجِت زي الخرتيت.. عَملت لي مُوشّح.. صُوتها ينرفز الكلب..

- طردتك؟

- كانت عاوزة هي اللي تسيب البيت.. صِعبت عليا زينة.. قلت لها خليكي أنا اللي ماشي.. بيني وبينك أنا ما صدّقت.. كُنت عاوز أجازة من زمان.

- هي شافت الصور بتاعت البت بالمايوه؟

- شافِت.. وقعدت تقولي ما أنا قدّامك.. هي أحسن مِنّي في إيه؟ وكلام نسوان مالوش لازمة.. كُنت عاوز أقولها بُصّي في المراية بس أوعي تتخضّي.. الواحِد بيبقى عنده فيلم سِكس فيه على الأقل خمس سِت نسوان يحلّوا من على حبل المشنقة.. وبعد شوية برضه بنزهق و(Delete).. والله إحنا لينا الجنّة حدف.. المُهِم أنا عندك كام يوم لغاية ما تِصفى.. ماشي؟

قاوم «طه» الضحك: جات لك على الطِبطاب يا ابن العبيطة.. بيتك ومطرحك..

* * *

في الأسابيع التالية أكل الترقّب «طه».. مُراقبته للـ«سيرفيس» كانت مضنية.. يقاوم النسيان ورَعشة يَد تساقط الأشياء منها كأن فيها ثقب.. ضاعف جرعة دوائِه مُحاولًا السيطرة على إثارة تجتاحه كلما لمح فتاه يختال في الحي.. يبحث عنه بالنظّارة.. يراه طبيعيًا لم يدرك بعد ما يعتَمل في جسده من أثر تركيبة التكفير.. تمنّى لو استطاع إرجاع الزمن لحظة إعطائه التراب.. ليفعلها ثانيًا وثالثًا.. فقط كان يحتاج لنسيان أمر ثلاثة أشهر من حبس الأنفاس بلا زفير يريحه.. لمعت صورتها في عقله حين لمح جريدة «أمل الوطن»..

تذكَّر رقصته مَعها.. كم كان سخيفًا حين غادر وتركها.. نفض قلقه واستقل سيارته الدايو التي استلمها من الشركة مُؤخرًا بعد مُعاناة مع المواصلات استمرّت لخمس سنوات يتنقّل فيها بين الأطباء مُستعينًا ببدل مواصلات غير متوافِق مع مصاريف الانتقال.. يضع كرتونة كبيرة على الكنبة الخلفية تحمِل عينات مجانية وكتالوجات وملصقات الدعاية.. ويعلّق في المرآة علبة دواء دعائية فوّاحة.. أفرغ السيارة مِن مُخلفات الوجبات الجاهزة وعلب البيبسي الفارغة وأزال شعار الشركة الموضوع على الباب الجانبي مؤقتًا على أن يلصقه لاحِقًا.. كانت السيارة قد أصبحت بُعدًا آخر لمنزله.. يأكُل فيها ويشرب ويغيّر ملابسه وأحيانًا ينام بداخلها في فترة ما بين مواعيد العيادات.. ينقصه فقط أن يقضي فيها حاجته.. ارتدى بذلة رمادية مع رابطة عنق زرقاء وحذاء أسود.. وفي ترقّب تابع الباب الرئيسي للجريدة.. ساعة ورُبع حتّى لاحت من بعيد.. ترتدي بنطلون جينز ضيّق يجسِّم ساقين جهنّميّين وقميصا ورديا وتحمِل حقيبة يد ضخمة قد تستوعِب طِفلًا.. نزل من السيارة حين رآها وأخذ نفسًا قبل أن: بسسسس...

التفتت ناحيته وقطبت جبينها لتتبيّن.. رفع يده ملوحًا ثم مر الطريق في صعوبة قبل أن يصِل إليها.. نظر في عينيها فابتسمت ووضعت يديها في وسطها: صُدفة برضه؟

- تاكلي آيس كريم؟

أمام مِنضَدة تجاور الزجاج بـ«جروبي مِيدان طلعت حرب» اقترب النادِل.. وضع كوبين من الآيس كريم: أولًا أنا كُنت عاوز أعتذر لك عن يوم الـ...

- (Peace) قالتها وهي تلعق الشيكولاتة المثلجة: بجد مِش بتاكُل شيكولاتة؟ أنا مِش مصدّقاك.

- «سيروتونين».

- مين!!

أشعل «طه» سيجارة وأردف: هرمون السعادة.. هو ده اللي بيخليكي تحبّي الشيكولاتة.

- وأنت مِش لازماك شوية سعادة؟

- لازِمني طبعًا بس مش عاوزها صِناعي.

- حاسّة أنك أحسن من المرة اللي فاتت.

هز «طه» رأسه: يعني.

- مِش ناوي تِعترف بسرّك الكبير؟

نظر «طه» للون الخصلة الصفراء المتسللة من تحت حجابها:

- غيّرتي لون شعرك.

- تغيير.. زي ما أنت دايمًا بتغيّر المواضيع؟

- توعديني ما تسأليش عن حاجة تاني؟

- هحاول.

- تخيلي إن في ظرف أيام تكتشفي إنّك عايشة كِدبة كبيرة.

- إزّاي بقى؟

– أنا قلت سؤال واحِد.

– ودي مش إجابة.

– ساعة ما كنت في ثانوية عامة أمّي سابت البيت. هرش رأسه بحثًا عن جملة.. ثم: خلاف زي أي خلاف وانتهى بالطلاق.. حياتي من ساعتها اتغيرت.. إنتي فاهمة طبعًا يعني إيه بيت من غير أم.. بعد شوية سمعت إنها اتجوزت.. الكذبة الكبيرة إنّي كنت فاكر أنها مشيت عشان بابا الله يرحمه وظروفه.. لكن اتضح أنّي بشكل ما مش فاهم حاجة.

– يعني ما طلعتش شيطانة.

– وهو ما كانش ملاك.

– واكتشفت ده دلوقتي.

– عليكي نور.. قالها ودفن سيجارته.. فسألته: وبعدين إيه اللي حصل؟

– وبعدين أديني قاعد قدّامك أهه.. مش كفاية استجواب بقى.

– ماشي يا دكتور.. هسيبك بس عشان ده أوّل (Interview).

ضحكا ثم استطردت «سارة»: كانت مفاجأة إنّك تيجي الـ(Jazz Club).

– المكان جميل.

ابتسمت وبدون أن تنظر في عينيه: كنت مهيبرة شويتين أنا.

فلتت من «طه» ضحكة: عجبني رقصك.

–هي دي اللحظة الوحيدة اللي بنسى فيها الدنيا كلها.. الرقص بيطلّع مِنّى عفاريتي.. زي الزار.. بمناسبة العفاريت.. مين الـ(Alien) اللي قاعِد معاك في الشقّة؟

–ده «ياسِر».. صاحبي.

–أنت مش متخيّل.. ده لازِق لي في الطلعة والنزلة زي البُرص؟ مُخّه فِسفِس شويتين.. مرّة وقّفني على السلّم وسألني: هو أنت «ياسمين»؟ مين «ياسمين» دي؟!

ضحك «طه»: دي قِصة طويلة.. ده يا ستّي صاحبي الأنتيم من واحنا صغيرين.. غلبان وفعلًا خفيف شوية.. متجوز ومخلّف وبيشتغل مُحامي.. عينه زايغة ونسوانجي.. من فترة اشتغلته على النّت.. عَملت نفسي واحدة اسمها «ياسمين» وسَاكنة في الميدان عندِنا.. حطّيت صورة بنت جميلة وبدأت أكلّمه.

– ده شيء خطير ما يتسكتش عليه.. وبعدين؟

– الموضوع كان تهريج.. هوب مراته شافت رسالة من رسايلي.. وبصراحة أنا كنت مزوّدها شويتين.. يعني.. كلام وصور.. إقناع بقى.. طردته.

شهقت «سارة»: يا نهار إسوِح.

– من ساعتِها لزِق.. ما صَدّق.. لاجئ عندي في الشقّة ما بيقومش من على النّت.. ومستنّي يوم ما يقابلها.. بيقعد في البلكونة يبص على الشارع بالساعات يمكن يشوفها.. بستناه ينزِل يجيب سجايره وأبعت له رسالة غرام أو صورة لبنت تشبه لها.. يطلع يلاقيها مِشيت.. يقعد

يشرب في سجاير لغاية ما يعميني وبعدين يكتب لها.. يصوّر نفسه بالموبايل ويبعت.. تدّيله هي مواعيد فشنك وما تجيش.. ما أنا مفهمه أنّها متجوزة وبتعمل ده من ورا جوزها.. يعِز هو بقى الجو ده.

– مش باين عليك خالص أنّك مفتري!!

– عند الضرورة بس.. بس تصدّقي.. في الأول كان صَعبان عليّا.. كنت هقول له عشان يرجع البيت.. بس قلت الواد ده محتاج درس.. فسبته.. تخيلي.. بنته بدأت توحشه ومراته كمان.. فقلت خلّيني معاه شوية لغاية ما يفوق.. كمان هو مسلّيني.. أنا مش قادِر أستحمِل البيت لوحدي.

ضحكت «سارة» حتّى بانت نواجذها: نضارة وبدلة، شكلك جد أوي، بس نمرة.

ابتسم «طه» في صمت حتّى سكنت فازدادت جمالًا.. ظل يتأمّلها حتّى سندت مرفقيها على المِنضدة.. أمسكت بالملعقة وتناولت قطعة شوكولاتة وهي تتأمّله مُضيّقة حدقة عينيها: أنت عايز إيه؟

مسح رأسه بيديه ورجع بظهره إلى مسند الكرسي وهو يتأمل المارة في الشارِع: مش عارِف.. بجد مش عارِف.

– والمفروض مين اللي يعرف؟

– إنتي مش بتبطّلي أسئلة؟

– طب اسأل أنت؟

– إنتي مين؟

«سارة» باستغراب: أنا مين؟ أنا يا سيدي «سارة».. خريجة كلّية الإعلام قِسم صحافة.. أنثى وعازِبة وعندي أخ واحِد.. يعني مش هخُش الجيش.. وبشتغل في جُرنال «أمل الوطن» صفحة السياسة.. تِحب تعرف بأقبض كام؟

– تعرفي إنّك جميلة؟

اهتزّت الملعقة في يدها: قول لي حاجة ما أعرفهاش.

– ومغرورة.

– عارفة إمكانياتي.

– فاكرة نفسِك تعرفي كُل حاجة؟

– أعرف أكتر مِنّك.

– أشُك.

– تِعرف إيه اللي مكتوب على أرضيّة باب جروبي وأنت داخِل.

– إيه؟

– قفير النحل.

– يعني إيه؟

– يعني خلية النحل.. ثم غمزته بعينها: ما تقولش لحد.

– تِعرفي إنتي الطُحال وظيفته إيه في الجسم؟

نظرت له بابتسامة ماكرة: بصرة.

– مش عيب تعرفي حاجة مكتوبة على الأرض وما تعرفيش جسمك.

– علم لا ينفع وجهل لا يضُر.

– نظرية.

– بمناسبة النظرية.. سمعت عن «مَحروس برجاس»؟

اهتز كوب النسكافيه في يد «طه»: لأ.. خير..؟

– الدكتور اللي كان بيعالجه قال تصريح عايم كِده إنّ فيه شبهة في موته.

ابتلع «طه» ريقه بصعوبة: وبعدين؟

– اسمه دكتور «سامي عبد القادر».. تعرفه.

– لأ.

– عامة.. مفيش دخان من غير نار.. هحاول أقابله.. أنا متأكّدة أن فيه مفاجأة.

– طب وإنتي هتستفيدي إيه من كُل ده؟

– الصحفي محتاج حادثة أو موضوع يعمِلوا مِنّه اسم.. حاجة تحطّه في مكان صح.

– بغض النظر هيضر حد أو لأ؟

– مش هينضر غير اللي غِلِط.. سكتت لحظة ثم سألت: أنت عاوز تصاحبني؟

– إيه تصاحبني دي؟ اسمها بفضفض معاكي.. مرتاح لِك.

«سارة» بضحكة ساخرة: وأنت إيه بقى فيهُم؟

– مش بقول لك مغرورة.

تناقرا لساعة أخرى قبل أن ترحل.. شكرته ببسمة تحمِل معان متضاربة ثم تركته مع علامات استفهامه.

حين عاد «طه» للشقّة كان «ياسر» قد نفث سُحب دُخانه إلى السقف.. أتم الأسبوع الثاني يلتصق بـ«طه» كقملة جائِعة.. شيء أشبه بمجاوري الأولياء الصالحين.. يملّس على الكمبيوتر بيديه في انتظار ظهور كرامات حبيبته – صنعة «طه» – أصبح مُقِلًا في بلبعة المكيفات.. هذب قليلًا الجُزء البانك البارز مِن شعره كغزل بنات رخيص وحاول الاستغناء عن قمصانه الكاروه لكنّه فشل.. على صعيد آخر شيء من الحنين بدأ يدب في أعماقه خاصة ناحية ابنته «زينة».. وإن كانت زوجته تحتاج لكثير من المجهود!

دخل «طه» الغُرفة فوجده جالِسًا يُحدِّق في شاشة الكمبيوتر: إيه.. أشتري شاشة تِيفال والا إيه؟

نظر له «ياسِر» في اشمئزاز: يا رِزل.

– فين الأكل؟ الدور عليك النهارده.

– عارف عارف.

كان ذلك حين انتبه «طه» للشورت الذي يرتديه «ياسِر»: إيه اللي لبّسك الشورت ده؟

– إيه يا «طه».. أنت هتمسك لي على الواحدة؟

– وما لك مدخّل القميص من جوّه كِده.. ما فاضِلش غير بوكسراتي وفانِلاتي الداخلية.. إن كان حبيبك عسل...

- ما تحطّش عليه زبادي.. يا عم أجيبلك أحسن مِنّه.. ده مرمّي في التوحيد والنور.

- ده (Timberland) يا صندل.

- يعني كنتاكي يا خي!!

- كنتاكي يا بتاع السمنة!!.. هات سيجارة.

ألقى «ياسِر» بواحِدة حين سأله «طه»: المُزّة.. عاملة إيه؟

- أديني ملطوع لمّا تعرف تخش على الفيس بوك.. ما بتتكلِمش غير لمّا الجو يهدا.

- جوزها عايم في الفتة؟

فتح «ياسِر» صورة لوجهها: ده بغل.. سايب القمر ده وغرقان مع نسوان كتيانة.. والبت مَحرومة.. بتكاكي في السرير كل يوم.. ما تفهمش أنت في المواضيع دي لسّه.. دي بتحكي لي كلام يله.. أنا بقي عاوز أنُط في الـ(Face book).. مسكينة!!

- مسكينة!! يا حبيب قلبي.. حنين ياض.. طب ما أنت سايب مراتك؟

- يا ابني دي تسيبها في الغابة تاكُل الأسود.. افتكر لنا حاجة عِدلة.

- عارف يالا.. كنا بندرس تجربة اتعملت في أوربا على قرد.. وَصلوا مَجسات على مراكِز معينة في المُخ.. وعملوا له زرار كُل ما يدوس عليه يحس بنفس المتعة الجنسية أكنّه مع وليفته.. وزرار

تاني لإحساس الشبع من الأكل.. تخيل القرد ساب زرار الأكل وقعد يدوس على زرار الجنس لغاية ما كان هيجيلوا أزمة قلبية.. أهو أنت مش طايل تبقى زي القرد حتّى.

- طب وبالنسبة للزرار ده.. ما ألاقيهوش في شارع عبد العزيز؟

- بدل ما أنت قاعِد زي صرصار الغِيط كِده.. روّح دوس على الزرار.. خد بالك الأعضاء التي لا تُستعمل بيحصلّها إيييه؟

قام «ياسِر» بغير مَلابسه: هتطفح إيه.

- هتضمر.. وما تهربش من الموضوع.

- يا ابني أنا لو رجعت البيت هسلّخ.

- مش بقول لك هتضمُر.

- تضمر تضمر.. أهي تموت بكرامتها.. أنا كنت أتكلّم مع الأنثى.. أفُك شفرتها على طول.. كِلمتين وأجيبلك الشوتايم بتاعها والجزيرة سبورت.. اللي في البيت دي قناة تامنة.

- طب يله عشان جعان فشخ.. أنزل شوف حاجة تتاكِل.

خرج «ياسر» يلتمِس وجبتين جاهِزتين في حين فتح «طه» الإنترنت وأرسل لـ«ياسِر» رسالة على لسان «ياسمين»: يا سورة أنت فين؟ باين عليك لسّه ما جيتش من النيابة.. واحشني موت.. تصبح على خير يا حبيبي.. باي.. مواااا.

بعد رُبع ساعة عاد «ياسِر» بالسندوتشات وبعض الجرائد: الراجِل اسمه إيه بتاع بيرة.

- «سليمان»! ماله؟

- مات النهارده.. معلقين ورقة على المحل بتاعه.. العزا في ستيلا.. نيهاهاها.

لم تضحك الدعابة «طه».. أخرسته رعشة ٥٠ ڤولت انبعثت من قدميه إلى رأسه.. شرد لدقائق حتّى ارتفع صياح «ياسر» من داخل الغرفة لاعِنًا سلسفيل «طه» وسندوتشاته واليوم الذي وُلد فيه لمّا رأى الرسالة.

* * *

الفصل السابع عشر

في الأسابيع التالية لم يستطع «طه» إخفاء ما يعتمل في نفسه ناحية «سارة».. فقدانه التركيز.. قفزه كلما رن هاتفه.. تفقده البريد الإلكتروني كل خمس دقائق.. وحي زائف بإمكانيته كتابة شعر.. شعوره بالحاجة لذكر اسمها في أي حديث عشوائي.. متابعته مقالاتها كطالب ينتظر نتيجته.. رموشها التي تحاصره.. عيناها وضحكة أسنانها المتناسقة وسط لونها البرونزي.. حَركات يديها الهيستيرية وحماسها الجارِف.. النقر بأصابِعها طربًا على المنضدة وعشقها لـ«منير».. صَمتها وعبثها وجنونها وحتّى احتضان شفتيها للسيجارة.. لم تكن الجنة.. لكنها كانت النار التي أسعدت البشرية.. لم تكن لهطة القشطة التي يبحث عنها كل راغب في الاستقرار.. ولا مُحترفة الأمص التي اشترى لها دباديب عيد الحب من قبل.. كانت نوع ثالث.. نوع يسلبك كل فرصة في الرحيل عنه.. تلك التي لا تعلم كم ستبقى مَعها.. ولن تبحث عن إجابة.. فقط ترغب في أن تراها كل يوم.. كل ساعة.. تصغي لها ولا تسمع.. تسبح في مَلامحها.. تتأمل أصغر تفاصيلها.. والعيوب التي أصبحت تحبها.. فقط لأنها

فيها.. أنوثتها.. جرأتها وفجاجتها.. وطلاء أظافرها الذي يضفي على بشرتها ما تضفيه نكهة الكراميل على كوب شوكولاتة ساخنة في «كوستا كافيه».. تتركه وتترك مَعه رائحة تبغ مَمزوجة بعطر في عنقها.. تغادر أنفه قبل أن يفيق.. ثم يُدركه الصمت حين تلوح قتلته طويلة الأجل.. ناره الكامنة.. تربُّصه بـ«السيرفيس».. ذلك الحدث الذي تنزوي بجانبه المغريات.. يَحبسه في حالة دائِمة من الترقّب تمنعه من مزاولة الحياة.

شهيقه المتواصِل بلا زفير.

على صعيد آخر توالت المفاجآت في حياة «وليد سلطان».. لم يكن من الصعب التنبؤ بصاحب تلك الركلة التي ألبسته البيجاما وأقعدته في البيت.. تم إيقافه عن العمل وسط نظرات العساكِر الذين كانوا يومًا تحت إمرته.. تلك العيون الغائرة التي لمع فيها بريق شماتة خرساء.. خرج بكفالة إلى بيته.. انحسرت عنه الأنظار تدريجيًا حتّى من أقرب الأصدقاء.. انزوى عن أطفاله وزوجته التي انتابتها عصبية مزمنة.. لا تنام.. تصرخ طوال الليل والنهار في الخادمات كنفير غارة.. ترك الشعر يغزو خضار ذقنه الذي ألهبه الجز منذ زمن.. أصبح يتسلّل في الخروج والدخول.. يتحاشى العزاء وأسئلة الفضوليين المسمومة.. تلك الأسئلة التي تملأ صدره بحشرات تنهش قلبه فيهيج كالمحموم.. يتابع أخبار ابن «برجاس» كمعجب مريض.. تنتابه سيناريوهات متنوّعة يرى نفسه فيها قاتله.. يسمع صوت تحطّم فقرات عنقه بين يديه.. لا يستطع صرف رائحة الحريق التي تنتاب أنفه حين يتذكّره.. ويُحاصره شعور من وطئت امرأته أمام عينيه.

امرأته!! «نورا»..

ذلك الكيان السخيف الذي يزداد لزوجة مع قفزات عقارب الثواني.. تقطع سكونه وتنتزِعه من سرحته بسؤال سيغدو يومًا سببًا في مصرعها على يديه: هتفضل قاعِد كِده!! ما تكلِم حد من معارفك.. أنت خادِم طوب الأرض.. أنا مِش قادرة أقابِل صحباتي في النادي.. أقول لهم إيه؟ انتهينا خلاص.. اسحب لي فلوس من البنك.. أنا مسافرة الساحِل لغاية ما الخره اللي إحنا فيه ده يبقى له نهاية...

نهاية...!

باتت تلك الكلمة معجزة في حد ذاتها..

بعد شهر حُسمت العملية الانتخابية.. فاز «هاني برجاس» بمقعد مجلِس الشعب.

في تِلك الأثناء تناقل الحي أنباء مرض «السيرفيس».. أصبح أقل صخبًا.. قيل أصيب بالسرطان.. وقيل أدي آخرة الشم يا عَم الحاج.. نقص وزنه حتّى برزت عِظامه واسودت جبهته.. بات شبحًا أجرب يتحامل على نفسه ليقِف كثور يحتضر أمام طعنات مُصارع ثيران.. نظراته صارت أكثر حِدّة.. يهيم حتّى الساعات الأولى من النهار.. ويتوقّف أحيانًا ليصرخ وحده كمن لدغته حيّة.. انحسر عنه رفقائه.. ومن قبل مات «سليمان اللورد».. أدخله «هاني برجاس» مُستشفى متواضع لبث فيه أياما قبل أن يتركه هربًا ليحصل على مزاجه بعدما أخبره الأطباء بأن كيانًا غريبًا ينخره كالسوس من الداخِل.. وأن له أيامًا معدودة تزيد أو تقِل.. تابعه «طه» من النافذة يرقب احتضاره

البطيء.. كان عنيدًا كشجرة معمّرة تأبى السقوط.. يرمق «طه» بنظرة تكاد ترديه.. وقف يومًا أمام الصيدلية لعشر دقائق يُحدِّق فيه.. حاول «طه» تجاهله فصرخ «السيرفيس» بأعلى صوته: طاااااهااااا...

لم يثنيه سوى حشرجة ألمّت بصوته فبصق دماء ثم اختفى.. اضطرب «طه» فسقطت من يده زجاجة كان يحمِلها.. طمأن «وائِل» بكلمتين غير شافيتين ثم دخل المعمل يلتمِس بعض الهدوء.. رفع قرص مُهدئ إلى فمه وجلس على كرسي يقرض أظافِره.. دقائق وبدأ مفعول المهدئ يسري في جسده.. فألقى برأسه فوق يديه على مكتب صغير.. أغمض عينيه وتوقف عن هز رجله واستسلم.

* * *

بعد ساعات.. وعلى كنبة ضخمة بجانب مطفأة سجائرٍ متخمة كان يستلقي.. حافي القدمين والصدر يصدر شخيرًا منتظِمًا من فم موارِب وبجانبه أطباق بلاستيكية متسخة وعلبة بيريل فارغة.. شعر ذقنه مبعثر كبرادة حديد تائهة ووزنه زاد عدّة كيلوجرامات.. التليفزيون فقط كان يضيء الغُرفة بنور متقطِّع بلا صوت.. يعرض حلقة من حلقات مُصارعة المُحترفين.. مع دقّة الواحِدة بعد منتصف الليل قرع شخص الباب.. شخص بدا يائِسًا.. إلى أقصى حد.

لم تكف خبطة واحِدة ليصحو النائِم.. اتّخذ الأمر سبع طرقات عنيفة بجانب الجرس حتّى انتبه.. قام يتخبّط كالسكير حتّى الباب.. رفع غطاء العين السحرية قبل أن يشيح بوجهه مُستنكرًا ثم يفتح الباب في فرجة صغيرة: إيه يا زفت!!

جاءه صوت «السيرفيس» متحشرجًا كمن ابتلع الرمال: باچا.

- عايز إيه؟

- لموآخذة يا باچا أنا عـارِف الوقت متأخر.. بس عايز سعادتك.

- بعدين.. بعدين يا «سيرفيس».. مش فاضي دلوقتي.

- أنا تعبان يا باچا.. غمز دقايق.

لم يجبه «وليد سلطان».. أغلق الباب.. هرش في مؤخرة رأسه ثم ركل بعض العلب الفارغة الملقاة على الأرض قبل أن يفتح الباب ثانيًا: خُش.

دخل «السيرفيس» إلى الصالون المبعثر.. جلس على الكنبة بعد أن جلس «وليد».. أشعل الأخير سيجارة وألقى له بواحِدة: عامِل إيه دلوقتي؟

بعين جاحظة: بموت يا باچا.

- إيه اللي خرّجك من المستشفى؟

- الدكاترة قالوا مفيش فايدة يا باچا.. مش عايز أتبهدِل على آخِر أيام.

- أنت عندك إيه بالظبط؟

- أنا اتسمِّيت يا باچا.

- من الخره اللي بتسفّه.

– يا باجا يقول لك اتسميت.. الدكاترة عملوا لي إشاعات وتحاليل.. عندي أورام منطورة في كُل حتة زي الحصى.. بيك دم زي القِربة المخرومة.

– السرطان يعمِل أكتر مِن كِده.. ربِّنا يشفيك.

– لأ يا باجا.. مش المرض البطّال.. الدكاترة قالوا إن في جوفي بُودرة.. بُودرة ماس..

* * *

الفصل الثامن عشر

في تمام العاشرة مَساءً من اليوم التالي كان «طه» قد وصل لآخر العيادات الموضوعة في جدوله.. عيادة دكتور «سامي».. جلس في صالة الاستقبال بجانب حقيبته الجلدية.. حقيبته التي يحمل فيها بجانب النشرات والأوراق والهدايا الدعائية.. قنينة صغيرة ملفوفة بدوبارة رفيعة.. مكتوب عليها رائِحة فل – فابريقة عُطور وزيوت «الزهّار» – لم تعُد تفارقه.. وشأنها شأن أفكاره.. لا يطّلع عليها أحد.. وضع السمّاعة في أذنيه وضغط زر تشغيل (mp3 player) لتتسلل النغمات إلى عقله قبل أن يدفن عينيه في مجلّة أجنبية قتلًا للوقت.. مل انتظار دخوله للطبيب ليعيد ما قال من قبل ويزيد.. «هيبزولان».. الأكثر فاعلية.. «هيبزولان».. الجرعة قرصين.. الست أشهر الجايين الشركة طالبة مني أرفع المبيعات في الدقي والمهندسين.. أصل الدكتور «سعيد إسكندر».. فرصة سعيدة يا دكتور.. نفس الاسطوانة المشروخة التي برع في تشغيلها.. إلا أن الوضع قد اختلف كثيرًا عما مضى.. فقد بات دكتور «سامي» صَديقًا أقرب مِنه عميلًا.. خاصة بعد صدفة اللقاء عند «محروس برجاس».. ربع ساعة قبل أن تناديه

الممرضة بصوت أخنف: دكتور «طه» اتفضّل.. نزع السمّاعات ودخل.. قابله دكتور «سامي» بوجه باسِم: عامِل إيه يا «طه»؟ اقعد.

– ولا حاجة.. أنا كفاية عليّا أشوف حضرتك.. ده أنا جايب لك مفاجأة بقى.

قالها وأخرج من جيبه ظرفا أبيض: والله ما بتخرج من الشركة لأي حد.. الجواب ده كان رايح للدكتور «سَعيد إسكندر».. وقفت الدنيا على رجل.. يهديك يرضيك يا «طه» قلت يمين بالله ما هي رايحة غير للدكتور «سامي».. قلت لهم الراجِل ده ما بيكتبش غير «هيزولان».. الله.. أقل واجِب.. جِه المدير الأجنبي.. كاني ماني.. بالإنجليزي طبعًا.. قلت له يا مستر دكتور «سامي آبد الكادِر» من أكبر عملائنا.. ده كلام؟ .. قال لي جو ما صن.. آي تراست يور تشويس.. الراجِل أصله يحبني أوي.. دول تذاكِر طيران بتلات ليالي في شرم الشيخ فندق ماريوت (Sea View).. هدية بسيطة عشان مبيعات «الهيزولان».

فتح دكتور «سامي» الظرف.. ألقى نظرة بداخِله: متشكر يا سيدي قالها قبل أن يصدر تليفونه رنة قصيرة فرفع السمّاعة وأنصت: نعم.. همم.. دي تبع إيه؟ يووه.. طيب خليها تتفضل أغلق السمّاعة والتفت لطه: مَعلش يا «طه» مضطر أستأذنك.. فيه بس مُقابلة مِستعجلة مع مجلّة طبيّة.

قام «طه»: أنا كنت كده كده ماشي.

رافقه دكتور «سامي» حتّى الباب: ابقى سلم لي على المدير الأجنبي.. وشوف لنا مؤتمر كويس كده.

– يا نهار أبيض يا دكتور.. ده أنت تؤمُر.. بس مش هوصّي حضرتك بقى على «الهيزولان».

نطق «طه» تلك الجملة حين انفتح الباب.. صافح الطبيب بحرارة والتفت ليجدها أمامه ترمقه في استغراب.. «سارة».. هرش رأسه بحثًا عن مخرج حين اقتربت منه: أنت بتعمِل إيه هِنا؟ أجابها: شغل.. لم يُمهلهما الطبيب وقتًا.. قطع حديثهمَا الهامِس: أنتوا تعرفوا بعض؟ أجابه «طه»: طبعًا يا دكتور.. آنسة «سارة» جارتي. ثم لمعت في ذهنه فكرة جحظت لها عين «سارة» حين اشتمّت أنّه سيتفوّه بها.. لكنها لم تكن أسرع مِنه حين أردف: «سارة» صحفية كبيرة في جريدة «أمل الوطن» يا دكتور.

تغيّرت ملامح الطبيب حين سمع الكلمة الأخيرة: يا بنتي إنتي مش قلتي للسكرتيرة إن اسمك «نانسي» وأنّك من مجلة صِحّة الطبية وجاية عشان موضوع عنّي في عدد الشهر؟

سلّكت «سارة» حنجرتها بكحّة مصطنعة وهي تنظر لـ«طه»: الحقيقة أنا كنت جاية أتكلم مع حضرتك عن تصريحك بخصوص «مَحروس برجاس».

قام الطبيب من كرسيه في عصبية: أنتوا مش هتبطّلوا ألاعيب.. أنا قلت مش هتكلّم في الموضوع ده خالِص.. أتفضّلي اطلعي برّه قالها ورفع سمّاعة التليفون يطلب أمن البناية حين اقترب منه «طه»: خلاص يا دكتور.. آنسة «سارة» شخصية مُحترمة.. أنا هاخدها وهننزل.

استنى يا «طه» استوقفته «سارة» واقتربت من المكتب: حضرتك مش صرّحت بوجود شبهة في الوفاة.

- أيوه وتراجعت.. مَعلوماتي مَا كانتش صَح.. اتفضّلي.. مع السَّلامة. ومت الطبيب بنظرة حادة قبل أن يَسحبها «طه» ويغادرا العيادة.

في الطريق ظلّت صامِتة حتّى انفجرت: أنا مش فاهمة حاجة.. أنت مش قلت إنّك ما تعرفهوش؟

أجابها بدون أن يلتقي بعينيها: أنا فعلًا ما كنتش أعرفه.. دي أول مرّة أقابله.

- إزاي أول مرة تقابله وسمعاك من برّه قبل ما أخُش كِركِركِر معاه؟!

أشعل «طه» سيجارته في عصبية: هو ده اللي بنتدرّب عليه في الشركة.. نعمل علاقات بسرعة مع الدكاترة.

- أنت مِش مُتخيّل ضيّعت مِني إيه.. أنا اكتشفت إن «محروس برجاس» ما كانش الحالة الوحيدة.. إيه رأيك؟ في أشخاص ماتوا بنفس الطريقة.

تسارعت نبضات قلب «طه»: أشخاص مين بالظبط.

- اكتشفت مثلًا بالصدفة إن «موسى عطية» المحامي مات بنفس الأعراض.. مش بس هو.. «سليمان» بتاع محل «اللورد».. ودلوقتي «مَحروس برجاس».

- إنتي بتتفرّجي على كورومبو كتير؟

- أنا مش بخرّف.. اتفضّل.

قالتها وفتحت حقيبة يدها.. أخرجت أوراقًا ودسّتها في يده.. مَجموعة تقارير تصف أسباب وفاة كُل من ذكرتهم.. قرأ «طه» حين أردفت: الموضوع بدأ صدفة لمّا سمعت من واحِد إن «موسى عطية» ما ماتش موتة طبيعية.. رحت قابلت مراته.. رفضت تعلّق وقعدت تدعي على «مُرتضى منصور» و«فريد الديب» وكل المُحامين الكبار.. بصراحة سِمعت الأسماء قلت بس.. قضية الموسم.. جريمة قتل بين أكبر مُحامين.. رُحت بطريقتي جبت التقارير من واحِد معرفة.. لفت نظري كلمة أجسام غريبة مغروسة على طول المرّيء.. في نفس الوقت بدأت أسأل على علاقته بالناس اللي مراته بتدعي عليهم.. اتّضح إن التلاتة سَمن على عَسل.. كبّرت دِماغي وقلت الموضوع مات.. بَعدين لقيت تليفون من نفس المَصدر بيقول إن فيه حالة تانية جت بنفس الأعراض.. المرة دي كان «سليمان اللورد».. نفس التشخيص بس المرّة دي كان فيه تفاصيل أكتر.. الأجسام الغريبة طلعت بودرة ماس.. بدأ الشك يشتغل تاني.. مَعقول صُدفة؟ بَعدين سمعت عن تصريح دكتور «سامي» بخصوص «برجاس».. هو اللي كان بيتابع حالته هنا في مصر.

قطرات متناهية الصغر من العرق برزت على جبينه: إنتي متخيّلة إن كُل اللي بيموت وراه سِر!! باين عليكي اتجنّنتي.

- يا ابني افهم.. الأعراض دي مش طبيعية.. كمان في حاجة مُشتركة.. حالات الوفيات في نفس المنطقة.. التلاتة عانوا فترة

حوالي تلات أشهر.. التلاتة موتتهم مؤلمة جدًّا.. اتنين منهم ماتوا بنفس المادة في المريء.. والتالت أنا متأكدة انّه مش هيختلف عنهم.. فيه نمط مشترك.

– التلاتة وسخين.

– بالظبط.. وده يدل إن اللي ورا موتهم شخص واحِد.

– أنا شايف إن دي مُجرّد صُدف.

– أنا مش مؤمنة بالصدف.. أبوك وفاته ما كانتش...

قذف «طه» السيجارة والتفت لها مقاطعًا: مالكيش دعوة ببابا.

احتدّت: إيه.. عايزني أسكت زي ما سكت لمّا التحقيق قفل ضد مجهول؟

عليت نبرة صَوت «طه»: إنتي مُستفزّة.. فيه إيه كنت أعمِله وما عملتهوش؟

– تبطّل سَلبيّة.. تدوّر على الحقيقة.

– أنا سلبي؟!!.. إنتي عشان صحفية هتعيشي علينا.. كُل حاجة عندك تحقيقات تحقيقات.. إنتي عُمرك ما هتفهمي حاجة.. عارفة ليه؟ عشان فاكرة كُل الناس مِستنّية نصايح مِنّك.. روحي فوّقي نفسك الأوّل.

– ليه شايفني سكرانة.

– لأ.. لا سمح الله.. أنا اللي سكران. كانت تلك آخر كلمة.. فتحت باب السيارة وابتعدت.

رجع «طه» شقّته مُحاولًا إسكات ذلك الطرق الذي يدُكّ ثنايا رأسه من الداخِل.. قرع الباب فلم يجبه أحد.. بدا أن «ياسر» قد اتخذ طريقه إلى القهوة ليرصّ حجرين ضبطًا للطاسة.. أولج مفتاحه.. وضع حقيبته وخلع ملابسه ثم توجّه للمطبخ وفتح الثلاجة ملتمسًا بعض الماء حين رفع ذراعه لأعلى مشتمًا تحت إبطه.. تجرّع جرعة ماء أخيرة ثم خلع فانلته الداخلية قبل أن يذهب في اتجاه الحمّام حين سَمع الجرس.. أمام الباب نظر من العين السحرية.. كانت الرؤية مَعدومة كمدخل كهف.. وضع يده على المقبس ملتمسًا النور فلم يتلقَ أي بصيص: يخرب بيت أم اللمض الصيني.. زفر بها في صوت خفيض.

تلقّت أذنيه قرعة أخرى وصوت مبهم لم يتبيّنه.. فتح فُرجة صغيرة تارِكًا السلسلة الحديدية تقوم بعملها حين امتد فكّا كمّاشة حادة لتقضمها بلا مقاومة.. حدث كُل شيء بعدها كحِلم شحيح التفاصيل.. حاول «طه» إغلاق الباب حين أتته دفعة صارِمة من الظلام أطاحت به أمتار إلى الوراء فارتطم بحافة المِنضَدة وسقط على ظهره.. فتح عينيه فلم تسعفه حدقتيه على تبيّن التفاصيل بدون نظّارته التي طارت.. اهتز كُل شيء كنجفات لحظة الزلزال.. فقط خيال ضخم اقترب منه وأمسك بتلابيبه وناوله لكمة قضت على رغبته في المقاومة.. سقط أرضًا فأطبق الشخص على قدميه وجذبه.. سحله حتّى الغرفة الثالثة وألقى به على الأرض المخلوعة.. حاول «طه» أن يستوعِب ما جرى حين تلقّى لكمة إضافية وضعته بجدارة خارِج نطاق الخِدمة.

* * *

- «طه».. «طه»... «طه»..

صوت آت من الجحيم.. طعم مملّح يملأ فمه.. وغشاوة على عينيه من ضوء ساطِع أجبره على الإغماض.. وذلك الصُّداع الكريه يشق دِماغه.. عندما فتح عينيه ثانيًا تبيّن بعض التفاصيل.. شخص يقف أمامه في الغُرفة.. اتّخذ الأمر منه بضعة ثوان إضافية ليستوعِب أنّه يجلِس مقلوبًا على كُرسي والده ورأسه للأسفل.. سَاعده شخص آخر جاء من الخارِج على الإفاقة حين طس وجهه بدفقه ماء آسِن من دلو كان تحت حوض الحمّام: إعدِله.

كان ذلك أمرًا للشخص صاحِب الدلو الذي لبّى النّداء بدون كلِمة.. اقترب من «طه» وقلبه كالدجاجة: يا ابن الشـ(...).

أعقب تِلك السبّة العامِرة التي ميّزت صوت «السيرفيس» لكمة صرخت لها خصية «طه» الذي لم يخرُج صوته بسبب الشريط اللاصِق الموضوع فوِق فمه.. علاوة على ذلك السّلك الرفيع المثبّت لكفّيه في مسانِد الكُرسي: بس يا خره.. اهدأ عشان يعرف يتكلّم.

ميّز «طه» صوت «وليد سلطان».. بدأت الرؤية تتّضِح رويدًا رويدًا.. كان «السيرفيس» واقفًا أمامه كحائط ينتظِر التنكيس.. باديًا على وجهه المُرهق أقصى آيات الوعيد.. ينهج في عُنف مُمسكًا في يده بالكمّاشة التي قضمت سلسلة الباب منذ قليل.. أخذ يصكّها في عنف قبل أن يقترب من «طه».. مد كمّاشته لِما بين رجليه فانتفض: إيه! الحمامة طارِت والا إيه؟

قالها وأحاط سبّابة «طه» بفكّي الكمّاشة الصدئ وهو يرفع كفّه اليسرى مُبرزًا مكان العقلتين المفقودتين، في حين وقف «وليد

سلطان» يشعل سيجارة وهو يتابع الشارع من النافذة: ما جرّبتش أنت قطف الصوابع. ألقاها «السيرفيس» ضاحكًا وهو يهم بإطباق الفكّين المعدنيين حين صرخ «وليد»: سيرفيييييس.

كانت الصرخة مدوية، جعلت «السيرفيس» يتراجع عن قراره بقضم أصبع «طه» الذي انهمر عرقه البارد فوق جبينه: روح اعمل لنا كوبايتين شاي.

- شاي؟ يا باچا...!!

- سُكّرك إيه يا «طه»؟

لم يجِب بطبيعة الحال فتولى «وليد» الرد: معلقتين.. أنا فاكِر.. أو خلّيهُم تلاتة يا «سيرفيس».

انسحب «السيرفيس» حانقًا.. ثوان وجر «وليد» كرسيًا ليجلس في مواجهة «طه» وفي يده دفتر «حسين الزهّار»، ما أن رآه «طه» حتّى هرب من وجهه ما تبقّى من الدماء.. أطلق «وليد» دخان سيجارته إلى السقف ثم مد يده للشريط اللاصِق ونزعه بسرعة فتألّم «طه»:

- غبي «السيرفيس».. كان جاي يموّتك الليلة دي.. والله العظيم.. أنا لو مِش هِنا!! الله أعلم كان إيه اللي هيحصل.

- ياسِر فين؟

- صاحبك! ادعي إنّه ما يجيش دلوقتي. هرش ذقنه ونظر للدفتر.. فر صفحاته ثم توقّف: حاج «حسين»!!! مش مُتخيّل يطلع منه كُل ده.. ده بطل.. آه والله.. سيبك من القانون والكلام الفاضي ده.. الراجِل ده خدم البلد أكتر من أي واحِد من الـ(...) الكُبار.. بُص..

بُص كاتِب إيه: هل أصبحنا عميان؟ فقدنا القدرة على استئصال بؤر متعفنة تسوقنا لبتر مُحتم.. إن لم يُوجد من يتحرّك فأنا بلا عاهة.. لأكونن نقمة القدر عليهم.. سأنتزع جذورهم التي ماتت منذ سنين.. شجرتهم التي تساقط علينا فضلات الطيور.. شجرة السموم.. لن أكون جزءًا من هذا العالم.. سأطرق أبواب الجحيم بيدي.. سأكون «يحيى بن زكريّا».. حتّى ولو قطعت رأسي.. فالقتل قد يصبح أثرًا جانبيًا لدواء يشفي بلد يحتضر.. شوف الجمال!! مِش مُمكِن.. أسلوبه حكاية.. بُص الحِتة دي كمان: شخصيات عفِنة وأرواح ميتة.. أرى ذر التراب في أفواههم خلاصا من نفايات.. شُفت ذر التراب في أفواههم دي؟ جامِدة جامِدة.. بالصُّدفة بفتح الكُرسي عشان أقعدك عليه لقيت المفاجأة دي محشورة فيه.

أحدق «طه» فيه بذهول.. لم ينبس بكلمة حتّى أكمل «وليد»: «السيرفيس» حكى لي قِصّة.. مِش هتصدّقها.. الواد ده عارِف إنّه بيخلّص.. بس عليه قوّة!! ابن كلب حيوان.. هو عارِف اللي أنت عملته على فِكرة.. أصل ده طول عُمره في الشارِع.. مِش أنت اللي هتلِف عليه.

- قتل أبويا.

- حقّك.. العين بالعين.. قانون ربنا بيقول كِده.. محدّش يقدر يلومك.

- كُل ده عشان عملت محضر لمّا كسر الصيدلية.

هز «وليد» رأسه نافيًا: تؤ تؤ تؤ... الموضوع أكبر من كِده بكتير يا «طه».

في تِلك اللحظة برز «السيرفيس» من الباب يحمِل كوبين من الشاي على صينية ويده الثانية تحمِل كيس بلاستيك أسود: الشاي.

رشف «وليد» رشفة ثم أمسك بكوب «طه» ووضعه في اليد المربوطة في المسند: اشرب يا «طه».

على بُعد خطوات وقف «السيرفيس» يأكله بنظره: اشرب يا ابن المـ(...).. ده أنا هطلّع ميتين أمّك.. تِسمّني؟ عايز تقتلني؟ «السيرفيس»!! لعلمك بقى هعمِل عملية وأرجع بُمب.. مِش هتشوف أنت اليوم ده يا ابن الشـ(...).. هتحصّل أبوك ابن الحِشرية اللي ودّا نفسه في داهية.

- «سيرفيس».. خلاص.. زجره «وليد».

لم يقو «طه» على الكلام.. كان الأمر أشبه بكابوس لا فِكاك مِنه.. انخفض ضغطه وانهارت أعصاب يده فسقط الكوب منها بعد رعشة ألمّت به فأردف «السيرفيس»: أنا هخلّيك تشُخ على روحك كمان.

في تلك اللحظة انسحب «وليد» ناحية الباب واضِعًا يديه في جيبه ينظر إلى «طه»: «السيرفيس» زعلان أوي.. مِش عارِف أعمِل إيه؟ أفكّك، والا أسيبه ياخُد بتاره؟ قالها ثم ابتسم ووجّه كلامه للـ«سيرفيس»: أول مرّة يا «سيرفيس» أشوف واحِد بياخُد تاره مقدّمًا قبل ما يموت.

اقترب «السيرفيس» من «طه» وفض الكيس الأسود: إن شاء الله يا مَعالي الباجا مفيش موت ولا حاجة.. أستأذنك دقيقتين برّه سعادتك.

لم يجبه «وليد».. فقط انسحب.. أمسك «السيرفيس» بالكيس ورفعه أمام وجه «طه»: المرّة دي كيس.. عشان أبوك زروط الدِّنيا المرّة اللي فاتِت.. أبقى سلّم لي عليه.

انفجر العرق من جبين «طه» حتّى اختلط بخط الدماء النازِل من شفتيه، اصفر وجهه وتعالت أنفاسه وكاد يسمع نبضات قلبه بأذنيه، وقبل أن يتفوّه بكلمة كبس «السيرفيس» كيسه على رأسه وأغلق الحواف بيديه مُحاصرًا الرئتين، حاول «طه» الاحتفاظ بأكبر كَم من الهواء، ذلك الكم الذي لن يبقيه دقيقة، خوفه جعل القلب يركض فتحرّرت أنفاسه المحبوسة، شهيق مبتور وزفير يائس، فقط الكيس يتحرّك أمام فمه جيئة وذهابًا بلا جدوى، تشنّج وهز رأسه بين القبضة المُحكمة، كمسمار بين فكي كمّاشة تضغط شريانيه السباتيين في جانبي الرقبة لتسحبه إلى القاع، أخذت عينيه تُظلِم تدريجيًا، أصابعه تزداد تشنّجًا، وأرجله ترفس الأرض في جنون حتّى باتت روحه في حلقه، ثم دززززتت..
توقّف كُل شيء بعدها بغتة، تحرّرت رقبته وشعر بوقع ارتطام عنيف بجانِبه، ثوان وانفك الكيس عن رقبته، سحب نفسًا عميقًا أعقبه سُعال عنيف كاد منه أن يتقيأ، عِندما فتح عينيه كانت تنتظِره مُفاجأة، تحت قدميه كان «السيرفيس» راقدًا على بطنِه جاحِظ العينين هامِد الحركة تسيل من بين شفتيه رغوة بيضاء، يده اليمنى تشنّجت للحظة قبل أن ترتخي ثانيًا، و«وليد سلطان» واقِفًا بجانِبه مُمسِكًا بجهاز أسود يشبه ماكينة الحِلاقة الكهربائية، ابتسم وضغط زِر فيه فأصدر صوت صرير كهربائي حاد وشرارة زرقاء متراقصة: ما تخافش ده مسدّس كهربا.. مِش بقول لك غبي «السيرفيس» ده.. الحيوان نسي إن أنا ظابِط.. عشان عندي قضية افتكرني وسِخ زيّه!!

قالها ثم أخرج من جيبه مِطواة سويسرية حمراء واقترب من «طه»، أمسك بالسّلك الذي يكبّله وقطعه فقام «طه» والتصق بالجدار: مات؟

اقترب «وليد» من «السيرفيس» وركله فلم يحرّك ساكنًا: جاموسة.. تعالى يا «طه».. أقعد.

قالها وسحب الكُرسي الخشبي وجلس واضِعًا حذاءه بجانب رأس «السيرفيس» بعدما أزاحها بكعبه جانبًا، اقترب «طه» وجلس على كُرسي أبيه: افتكرت إنّي كنت هسيبك؟

- مِش فاهِم.

- لقيت «السيرفيس» بيخبّط علينا في نُص الليل.. زي ما أنت شايف حالته بقت عاملة إزّاي.. دخّلته وعزمت عليه بسيجارة.

أخرج «وليد» علبة سجائره وأشعل واحدة لطه ثم أكمل: حكى لي إنّه اتسمّم بالبطيء.. الدكاترة قالوا له إن بودرة غريبة دخلت جوفه عملت له أورام وقرح.. وإن الأمل معاه ضعيف.. لمّا سألهم بودرة إيه؟ قالوا له عملنا مزرعة وتحليل وطلعت «بودرة ماس».. ماس؟!! سمِعت الموضوع ده فين أنا قبل كِده؟ آه.. حكى عنّه مرّة قدّامي الخـ(...) اللي ماسِك الدايرة.. اللي قعّدني في البيت.. كان قال لي إن أبوه مات بنفس السبب.. «بودرة ماس».. الله.. طب بتّهم مين يا «سيرفيس»؟ قال «طه».. «طه»!! بتاع الأجزخانة؟ الواد الذوق الهادي المُحترم ده!! إشمعني يا «سيرفيس»؟ عشان الواد ده مرقّد من ساعة موضوع أبوه وحاطِطني في دماغه.. المُهم حكى لي عن التركيبة وإن مفيش غيرك أنت اللي مُمكِن تعمل فيه كِده ومِش عارِف إيه.. بيني

وبينك الموضوع شدّني.. جرجرته في الكلام.. فَهِمته إنّه لو عايزني أساعده يحكي لي الموضوع من طأطأ لسلامو عليكو.

في تِلك اللحظة زمجر «السيرفيس».. شيء أشبه بتثاؤب سيد قِشطة.. مد «وليد» يده للمسدّس الكهربي وعاجله بشحنة خلف أذنه قضت على ثورته في مهدها، فغط ثانيًا في سبات عميق، قام «وليد» وأطفأ نور الغُرفة ثم مشى حتى المكتب ليضع الدفتر ورفع النظارة المُعظّمة أمام عينيه يتابع الشارع: الموضوع مش زي ما أنت متخيّل خالِص يا «طه».. الموضوع أكبر من خِناقة بينك وبين عيّل صايع.

لم يستطِع «طه» الخروج من صمته فأردف «وليد»: أنا وافِقت آجي معاه لكذا سبب.. أولًا الواد ده كان ناوي لك شر وأنت ابن ناس.. أنا أصلي حبّيتك.. ثانيًا عشان أفهم إيه موضوع أبوك.. وموضوع "تراب الماس».. وبعدين لقيت الدفتر اللي فسّر لي كُل حاجة.. أبوك كان كاتِم سِر كبير ما ينفعش أنت بس تشيله لوحدك.. والا ليك رأي تاني؟

– أنا شايِف إن معرفتك بـ«السيرفيس» مِش زي ما كنت متخيّل!

– طبعًا.. أنت عارِف «السيرفيس» ده إيه؟ ده أهم واحِد في بلدك.. تعرف السبّاك؟ أهه «السيرفيس» ده زي السبّاك بالظبط.. فِكرك فيه حد يقدر يعيش من غيره؟ أنا نفسي بحتاج له في شُغلي.. لازِم يبقى فيه وصلة ما بين عالم فوق وعالم تحت.. حد يسلّك البلاعات اللي ما تقدرش تمِد أيدك فيها.. يقفِل الغطيان المفتوحة.. يشوف لك حاجة ضايعة.. يجيب لك صرصار مضايقك.. تستحمِل ريحته وقرفه وشايه وسجايره وسرقته لصابون حمّامك طول ما أنت عايز مِنّه حاجة.. عارِف العيب إمتى بقى؟ لمّا تطلب من السبّاك ده إنّه يعمل

لك ديكور شقّتك.. تخيّل.. سبّاك ومُهندِس ديكور!! هِنا الغلط إنّك تكلّفه بحاجة هو مِش قدّها.. أشار «وليد» للشبّاك: أبوك من كام شهر كان قاعِد في نفس المكان ده.. بيسلّي نفسه.. مِش عيب.. طول ما النور مطفي.. لغاية ما مرّة فيه حد شافه لمّا نُور الأودة نوّر.. شافه زي ما بيشوف الناس.. أصل زي ما بتراقِب الشبابيك.. مُمكن كمان الشبابيك تراقبك.

انتابت «طه» حالة من الجزع حين تذكّر الشخص الوحيد الذي كان يُضيء النور: أنا اللي نوّرت النور!! خرجت مِنه بصوت متحشرج خفيض.

– مِش ذنبك إنّه شاف حاجة مِش المفروض كان يشوفها في الفيلا.. حاجة خلّت «السيرفيس» ياخُد أمر يسكّت أبوك.. وكان.. «السيرفيس» ما كانش جاي لك أنت.. «السيرفيس» كان جاي لأبوك يا «طه».. وجودك في نفس الوقت كان مُجرّد غلطة.

ابتلع «طه» ريقه: وإيه اللي يخلّي «السيرفيس» يحكي لك كُل ده؟

– «السيرفيس» حكى لي لمّا الكُل باعه، لمّا يئس، مجرّد ما تعب وعرفوا إنّه هيموت الكُل استغنى عن خدماته، والسبّاك لمّا مايخودش حقّه، يسدّ لك مواسيرك قبل ما يروّح عشان تحتاجه تاني.

– وأنت قرّرت تساعده؟

– طبعًا.. «السيرفيس» كان جاي يضرب عصفورين بحَجر.. يقول لي على سِرّه وأساعده على الانتقام مِنك.

– وسِرّه ده يخصّك في إيه؟

- سؤال وجيه.. اللي بعت «السيرفيس» لأبوك كان «هاني برجاس».. نفس الشخص اللي خرّجني من الخِدمة.. مصلحتنا واحدة.. فِهمت؟

- يعني «هاني برجاس»...؟

قاطعه «وليد»: هو اللي طلب رأس أبوك.. واضِح إنّه كان في الفيلا ساعة ما النور نوّر.. شاف أبوك وعِرف إنّه بيراقبه.

- فيه إيه بيحصل جوّه الفيلا؟

- ده اللي هنعرفه بعد الفاصِل.

قالها وانحنى على «السيرفيس».. جس نبض رقبته قبل أن يردف: «البغل ده نفسه ما يعرفش أكتر من كِده»، ثم أخرج من جيبه سرنجة فارِغة: «طبعًا لا يُفتى ومالك في المدينة.. بس المرّة دي اسمح لي أنا عازمك».. فك «وليد» سيلوفانة الحقنة وركّب الإبرة.. سحب الضاغِط مُستضيفًا ١٠ سنتي من الهواء بداخِلها ثم جذب رأس «السيرفيس» الذي بدأ يئن مُصدرًا حشرجة.. دس الحقنة في وريد نافر وأفرغ حمولتها أمام ذهول «طه» الذي تخبّط حتّى اصطدم بالحائِط.. فعلها مرّة أخرى ثم وضع يده على عُنُق «السيرفيس» لدقائِق كانت كافية لصُنع جلطة ذات شأن.. تشنّجت أصابع اليد في حركة عصبية حين انقطع سير الدورة الدموية فاختنقت الرئتان ليسكن القلب الذي لم يتوقّف منذ لحظة الميلاد.. قام «وليد» بهدوء.. فك الإبرة ووضعها في منديل ثم في جيبه: إيه يا دكتور.. ما شفتش واحِد ميّت قبل كِده في الكليّة؟.

- مات؟

- مصر دلوقتي ٨٠ مليون.. ما أعتقدش فيه حد هيوحشه «السيرفيس»!!

ثُم اقترب حتّى التصق ظهر «طه» بالحائِط: مِستغرب؟! مش هو ده اللي أنت كُنت عايزه؟ مِش هو ده اللي أبوك كان عايزه؟

انساب خط دِماء رفيع من أنف «طه».. ذلك العَرَض الذي بات مزمنًا منذ الحادِث.. شعيراته الدموية الهشّة تنفجر نزيفًا عند التوتّر.. أخرج «وليد» منديلًا ومَسح أنف «طه»:

- مش هنعرف نتكلم وأنت بالحالة دي.

- نتكلِم نقول إيه؟

هرش «وليد» أنفه: لا ده إحنا عندِنا شُغل كتير أوي.. لازِم تبقى هادئ.

- أهدأ...!!

قاطعه «وليد»: أنا عملت لك خِدمة.. كان ممكن تكون مطرحه دلوقتي.. هكلّمك بُكرة عشان نتقابِل.

ثم سحب دفتر أبيه: وده هيفضل مَعايا شوية.

وضعه في جيبه ومَسح كوب الشاي وبعض الأماكِن التي لمسها.. ثُم أخرج تليفونه المحمول وعبث به لثوان قبل أن يرفعه في مواجهة «طه» المتيبس قُرب جسد «السيرفيس» ويلتقط صورة: ما ضحكتش ليه؟ قالها مبتسمًا..

- أنت هتسيبني كِده؟

- وأنت صغيّر؟ أنت دكتور ما أخدتش تشريح؟! قطعه أربع تربع واستنى مني تليفون بكره...

بعصبية ركض «طه» نحوه.. جذبه من ملابسه فاستدار الأخير ولوى مِعصمه في شِدّة تأوه لها «طه»: هنهطّل ونزيّل من الأوّل!! افتكر حاجة واحدة بس.. رقبتك في إيدي.. ورق أبوك معايا وصورتك منوّرة الموبايل.. أعقل وأوعى تفكّر تبلّغ.. دي قضيّة خلصانة.

قالها ودفعه ليسقط قرب باب الغرفة: بُكرة معادنا.. وافتكر.. لو اختفيت هجيبك.

طل برأسه ليتأكّد من خلوِ المدخل قبل أن يرحل في هدوء.. ظل «طه» على الأرض لخمس دقائِق محاولًا استيعاب ما حدث.. بحث عن نظّارته حتّى وجدها ملقاة في رُكن بعيد وتناول قرصين من دوائه بحثًا عن بعض الاتزان.. لم يقو على دخول الغُرفة فجلس على مِنضَدة السفرة المتهالكة لوقت بدا طويلًا حتّى سمع مفتاحا يولج في الباب.

* * *

الفصل التاسع عشر

- إيه يالا اللي مقعَدك كِده؟ أنت عامل كده ليه ياض؟ إيه اللي في وِشّك ده أنت اتخانِقت؟ إيه ده مين اللي نايم على الأرض؟ يا نهار أسود.

- اقعد يا «ياسِر».

لِنصف ساعة سرد «طه» حكايته لـ«ياسِر».. سِر أبيه.. «وليد سلطان» و«هاني برجاس» و«السيرفيس» الذي يستلقي حاليًا على أرض الغُرفة منتظرًا قرار الإزالة.

قام «ياسر» مصعوقًا يدور حول «طه» كالمجنون.. ألقى نظرة خاطفة بداخِل الغُرفة ثم: أحّه.. إحنا رُحنا في ستّين داهية.. الله يخرب بيتك أنت وأبوك في يوم واحِد.. أنا ما يخصّنيش حاجة من الكلام ده.. الليلة دي ما تلزمنيش.

احتد «طه»: عايز تمشي غور في داهية.. هتقعد وتبقى راجِل إهدا عشان أعرف أفكّر.

- أنت لِسّه هتفكّر.. ما تمشيش غير دِفاع عن النفس.. أنا بوجودي معاك هبقى مشترك.. مادة ٤٠ يا معلّم.. بتقول من أعطى الفاعل سِلاحا أو آلة أو أي زِفت آخر مما استعمل في ارتكاب الجريمة أو ساعده بأي طريقة أخرى في الأعمال المجهزة أو المسِهلة أو المتممة لارتكابها.. يبقى مشترك في الجريمة وِش.

- ما ينفعش دِفاع عن النفس.. فيه مليون حاجة دلوقت تؤكّد الدافع.. أوّلها شهادة «وائِل».. الواد اللي معايا في الأجزخانة.. أنا لو حلفت على الميّة تِجمد محدّش هيصدّقني.. غير إن «وليد» هدّدني ما أبلّغش.

همّ «ياسِر» بالاقتراب من باب الشقّة ثم تردّد.. خبط جبهته ثم عاد إلى حيث يجلِس «طه»: هنتعدِم الله يحرقك.. دي البراءة بتاعتها بالميت خمستاشراية.

سكت «طه» للحظات دار فيها عقله كطاحونة هواء في قلب عاصفة: ولو مفيش جُثة؟

- مفيش قضية من أساسه.

- طب قوم معايا.

جرّ «طه» و«ياسر» الجثّة من قدميها.. كان وزنها يقارب طِنًا أو هكذا شعروا وهُم يضعونها داخِل البانيو.. نزل «ياسر» لشراء أكياس ملح ونشادِر بناء على طلب «طه» الذي أفرغها فوقه حتّى توارت ملامِحه، ثم جذب ستارة الحمّام وغطّاه: كِده هيستنّى شويّه للصُّبح من غير ريحة.

- وبُكرة نحطّه في بقسماط والا هنِعمِل عليه طاجِن؟

-وبُكرة يِحلّها ألف حلال.

انقضت الليلة في صَمت.. بلبع «ياسر» بعض الأقراص حتّى هزمه النوم جالسًا.. تصعد مِنه بين الحين والآخر رعشة وكلمات غير مفهومة.. في حين جلس «طه» في غُرفته يُحدِّق في السقف حتّى الساعات الأولى من النهار: «ياسِر».. «ياسِر».. قوم.

كان «ياسر» نائِمًا في الصالة فاغرًا فاه على طرف الكنبة يصنع اللعاب مُستنقعًا صَغيرًا على ملابسه.. وصف له «طه» المحلات التي تبيع الكيماويات بشارِع «الجيش».. طالما كان زبونًا لديهم أيّام الدراسة بالكليّة: اشتري عشر أزايز ميّة نار صودا كاوية، واحدة أو اتنين بالكتير من كل محل عشان بيدقّقوا دلوقتي.

- واشمعنى أنا؟

- خلاص خلّيك أنت مع «السيرفيس» وأنا أنزِل.

- أنا نازِل.

- اركب تاكسي وما تتأخّرش.. لو سألك لإيه.. اغمزه بعشرة جنيه في إيده.

بعد ثلاث ساعات حضر «ياسر» يسُب ويلعن ويحمل كرتونة من السائِل الحارِق.. أغلق «طه» الحمّام على نفسه مُنفردًا بضيفه الذي تحوّل لونه لأزرق باهت مائل للاخضرار.. بحِرص فتح أوّل زجاجة ثم تردّد وأغلقها قبل أن يتّجه للمطبخ.. فتح درجًا وأخرج ساطورًا ثم رجع.. انحنى على «السيرفيس» والتقط يده.. كفّه الناقصة عقلتين..

علامته المميزة.. ثبّتها على طرف البانيو ثم رفع يده بالساطور غير المَسنون وهوى بكُل عزمه مُغمِضًا العينين.. طرقات متتابعة حتّى انفصلت مُصدِرة طرقعة عالية مِن تأثير تهشُّم عِظام الرُّسغ.. حَملها من الخنصر وألقاها في كيس بلاستيك بعدما أحاطها بالملح ثم وضعها في الفريزر.. عاد بعدها رابطًا أنفه بفانلة قديمة لدرء الرائحة وأفرغ الزجاجات الحارقة الواحِدة تِلو الأخرى فوق الجسد المسجى بعدما جرّده مِن ملابسه ومتعلقاته.. تركه يتآكل في هدوء وأغلق الباب حين دق الجرس فانتفض «ياسِر»، جذبه «طه» من مرفقه: اتتيل خُش جوّه.

أغلق «طه» الستائِر لتعتيم الشقّة واطمأن أن كُل الغرف مُغلقة.. اصطنع وجهًا نائمًا ثم فتح الباب.. كانت «سارة»:

- ما عندكش شغل النهارده والا مقموص من امبارح؟

- لا ده ولا ده.. كنت نايم.

اقتربت «سارة» فلاحظت وجهه: إيه اللي في وشّك ده أنت اتخانِقت؟

- نتكلّم بعدين.. ماشي.

انتابها القلق فأحاطت وجهه بيديها تتفحّص عينيه: إيه اللي حصل؟

- يوووووه ولا حاجة قلت لك.

مَطت شفتيها مُستنكرة إقصائها: أنت مش شايف وشّك عامِل إزّاي؟!

- اتخانقت.

ألقت نظرة من فوق كتفه على المحتويات المبعثرة: إمتى؟!

- امبارح.

تأمّلت الفوضى العارمة بالشّقة فأراد «طه» أن يوضِّح: «أم فتحي» بتنضّف.

تظاهرت بالمُضي وحين هم بغلق الباب: فيه حاجة مِش مظبوطة.

دفعته ودخلت إلى منتصف الصالة: أول مرّة أخُش شقّتك.

كانت تنظر لمنضدة السفرة المقلوبة من أثر مقابلة أمس: هو الـ(Alien) فين؟

حاول جذبها مِن رُسغها: مش هِنا.. ما ينفعش اللي إنتي بتعمِليه ده بطّلي غلاسة يا «سارة».

- أمّال مِين اللي منوّر نور الحمّام؟

- قلت «أم فتحي» جوّه.. «سارة»...!

صرخ فيها حين فلتت مِنه وقفزت كصابونه مبتلّة: إنت قافش كِده ليه؟!

- عشان خاطري سيبيني دلوقتي.

- اتخانقت مع مين؟

لمحت بعينيها ملابس غريبة لا تبدو من طراز «طه» أو حتّى صديقه.. قطب وجهها في استفهام: وإيه دول؟

قبل أن تشرع في سؤال جديد جذب ذراعها بأصابع ستترك علامات: «سارة».. إنتي ما تعرفنيش لمّا بتنرفز.

نظرت له في حِدّة قبل أن تنتزع نفسها مِن يده لتتركه في غضبة أنثوية لترحل وعيونها مُعلّقة بالملابس التي أزاحها بقدميه تحت الكنبة.

* * *

اتّخذ الأمر من «السيرفيس» تسع ساعات ليمر أغلبه عبر البالوعة.. مع التقليب.. ترك أبخرة كريهة لا تطاق وطبقة من الريم أشبه ببهاريز شوربة كوارِع بجانب بقايا عظمية تأبى الرحيل تحامل «طه» ليخرجها.. وضعها في كيس أسود ونظّف الحمّام بثلاث زُجاجات فنيك.. ثم استلقى على الكنبة بجانب «ياسِر»: مِش مصدّق إن بين يوم وليلة يحصل كُل ده.

– ولا أنا مِصدّق إن أبوك الراجِل البركة يطلع مِنّه كل ده.. وأنت إيه!! قتّال قتلة.. ميّة نار وملح وشغّلت دماغك زي خُط الصعيد.. عيلة بنت كلب مجرمين.

– ما كنتش مِصدّق لمّا كُنا على القهوة.. أديك إتأكّدت إن البغل هو اللي قتله.. وأبويا كان ليه أسبابه.

– يقوم يقتل!! تلاتة.. أمّال لو مش قاعِد على كُرسي كان عمل إيه!! كان طار زي «إزبايدر مان».

– البلد سايبة ناس عايزة الحرق عمالة تهبِش فينا ما تفهمش ليه.. أبويا كان عنده حق.. الناس دي أوسخ من اليهود.. زي السوس..

يَعني بزمّتك خنزير زي اللي جوّه ده يستحِق يعيش؟ وغيره.. ده اللي بيجيله غرغرينة ما فيش غير البتر.. تخيّل لو رفض!!

– وهو مااااااله.. هيغيّر الكون؟ فاكِر نفسه «جرندايزر»!! ده إيه النيلة السودة دى.

– اللي حصل.

– وموضوع التراب ده حقيقي؟

– على النِّت مصادِر بتأكّد ومصادِر بتقول أساطير.. بس على كلام أبويا واللي شفته.. الكلام ده أقرب للصح.

– والبت الزفتة بتاعتك دي شكلها حسِّت بحاجة.

– هِيَّا فعلًا حاسة بحاجة.. بدأت تشم موضوع التراب من برّه.

– يعني لوكلوك لوكلوك.. هتودّينا في ستِّين داهية.

– اللي هيجنّني دلوقتي موضوع «هاني برجاس» ده.

– دي اشتغالة.

– وعِرف منين «وليد سلطان» موضوع النور اللي نوّر!! برضه أنا ما كنتش مُقتنِع إن خناقة بسيطة بيني وبين «السيرفيس» توصّلنا لكُل ده.. «السيرفيس» مِش غشيم.. الموضوع أكبر من كده بكتير.

– إعمل لنا فيها «أحمد السقّا» وفجّر البلد كلها.. «السيرفيس» وربّنا يستر وتعدّي.. وأبوك قبل كِده مخلّص على تلاتة.. حِلو أوي لغاية كِده وربنا يرحمنا جميعًا.. أنت تسيب الشقة دى.. أنا بقيت أخاف مِنها أكتر من الأوّل.. أنا راجِع لمراتي يابا.. خرتيت خرتيت

بس أرحم من بيت الرعب اللي أنت عايش فيه ده.. وأنت تشوف لك أي مُكنة لغاية ما ربنا يسهلّك وتهِج برّه والا تروح في أي نصيبة بعيد عن هِنا.

- لازِم أعرف اللي حصل لأبويا.

- يا ابن الحلال أنت اللي حصلك امبارح مش مكفيك.. ده بواقي الديناصور اللي في البانيو لسه مش عارف توديها فين؟

- نحطّه في شنطة سفر ونرميه في أي حتّه.

- أنت بتتكلّم بالجمع ليه!! نحطّه ونرميه.

صرخ «طه»: مِش عايز تتنيّل تساعِد.. امشي من دلوقتي.

- أنا فعلًا ماشي.. ده أنا لو عَملت قرد.. لابساني لابساني.. سبق إصرار ودافِع وإخفاء أدِلّة.. لأ وسكّان العماير شايفيني نازل طالِع بكراتين وأكياس.. و«ياسمين»!! هتقول عليّا إيه؟ أَحيه.. لأ وكنت مرسّيها إنّي وكيل نيابة!!

- ولاه.. أنت زهّقت أهلي.. مِش وقت صويت ونسونة.. غور وهبقى أكلّمك.. أنا هتصرّف.

- وهتعمِل إيه مع الزِّفت «وليد سلطان»؟

- مِش عارِف.. أهه ده كان آخر واحد يخطر على بالي.

- هتقابله؟

- تفتكِر عندي حل تاني؟

* * *

في نفس المساء وبعد مُكالمة قصيرة مع «وليد سلطان».. اتّفقا على مُقابلة بالمقطّم.. مرّت نصف ساعة لم يظهر خلالها.. كان «طه» جالسًا على حقيبة سفر قديمة بمكان ظاهِر بميدان «النافورة» حين لاحت سيارة دورية قادمة من شارِع ٩.. لمح «طه» النقيب يشير للسائق بعلامة أن أبطئ قليلًا.. ارتعدت فرائِصه ودارت في رأسه حِسبة بسيطة أدرك مِن خِلالها أن أي تحرّك سيكون مُكلِّفًا، فاكتفى بالجلوس مكانه واضعًا قناع اللامُبالاة حتّى توقّفت السيارة ونزل مِنها النقيب يتبعه عسكري: مساء الخير.

وقف «طه» يتصنّع هدوءًا لا يملكه حين عاجله النقيب: البطاقة لو سمحت.

أخرج بطاقته وهو يضم الحقيبة بين أرجُله: اتفضّل.

تفحّص النقيب البِطاقة ثم رفع رأسه: أنت من الدقّي يا «طه»؟

- أيوه.

- جاي المُقطّم تزور حد؟

- يعني.

لم ترق للنقيب تِلك اليعني فابتسم: يعني إيه يعني؟

- مستنّي واحِد صاحبي.

- واللي بيستنّى صاحبه بيجيب معاه شنطة هدومه!!

- لا دي مِش هدوم.

من هو صاحِب مقولة لِسانك حُصانك؟

اقترب النقيب مِن «طه»: أمّال الشنطة دي فيها إيه؟

- إيه يا سيادة النقيب.. هتخوّف الناس ليه من المُقطّم.. كان ذلِك صوت «وليد سلطان».. قالها من خلف زُجاج سيارته التي توقّفت بجانِبهم فترك النقيب «طه» وتوجّه إليه: مساء الخير..

- مُقدّم «وليد سلطان».. رئيس مباحِث قسم الدقّي.

- أهلًا يا باشا.

- «طه» أخو المدام.. جايب لها شوية حاجات من عند الحاجة.. فيه أي مَشاكل؟

- إطلاقًا يا باشا.. سيادتك عارِف المُقطّم بس لبش وفيه تعليمات...

- أنت تبع الخليفة؟

- تبع الخليفة سيادتك.. نقيب «حاتِم نِجم».

- عندكو اللي ماسِك.. أأأ.. أفتكِر «مُعتز بيه حسن» باين؟

- مظبوط سعادتك.

- هوصّيه عليك.. ده حبيبي. ثم أشار لـ«طه»: يلّا يا «طه».. الأكل زمانه برِد.

ركب «طه» بعدما وضع الحقيبة في صندوق السيارة الخلفي.. اتّجها للكورنيش حيث نِسمة الهواء الباردة والقبلات المُختلسة وراء زجاج السيارات الداكن.. و شلة تعبث في صخب، وأغنية لـ«حماقي» وأضواء القاهرة المغبرّة.

في ركن بعيد جلسا أمام ڤيلا عتيقة غير مَسكونة.. قريبة من الجرف.

طوّح «وليد» سيجارة كانت في يده: ما جيتش بعربيتك ليه؟

- جاية طرمبة بنزين.

- اطلع قدّام شوية.

تقدّم «طه» في الكُرسي.. مرّر «وليد» يديه على صدره وتحت إبطه وظهره ثم على ساقيه في تفتيش سريع نابع من حِس أمني قبل أن يسترخى في كُرسيه: في إيه في الشنطة اللي معاك؟

- «السيرفيس».. قذفها «طه».

- نعم!! أنت بتستعبط.. صاح «وليد» قبل أن يخفت درجة صوته حين نظر حوله: إيه اللي أنت عملته ده؟

- كُنت عايزني أسيبه في الشّقة.

أشعل «وليد» بعصبية سيجارة أخرى: قطّعته؟

- لأ...

- يبقى ميّة نار؟

- واضِح إنّك عملتها قبل كِده.. زي حقنة الهوا.

- عارِف أنا عدِّيت على كام قسم؟ سيّدة، حلوان، درّاسة، دقّي.. يعني عشت قد عمرك أربع مرّات.. شفت اللي مش هتشوفه.. مَوضوع ميّة النار ده بتعمِله النسوان البلدي مع اجوازها.. وبعدين أنت صَيدلي.. دِماغك مش هتجيب أحسن من كِده.. أيًّا كان.. الزِّفت ده زي ما جبته زي ما هتاخده في ايدك وانت نازِل.

– مُمكِن أعرف أنت عايز مِنّي إيه؟

– خدمة قصاد خِدمة.

– أنا ما طلبتش إنّك تقتله.

– إنت ما طلبتش.. إنت قتلته فعلًا.. أنا جرّيت الشريط بس.

– وسبتلي المصيبة أشربها لوحدي؟

– كُل واحِد يمسح قدّام بيته.. أنا كتّر خيري إنّي ما سبتوش يفوّرك.

زفر «طه»: عاوز منّي إيه؟

– ولا حاجة.. تنفّذ وصيّة الوالِد.. تريّحه في تربته.

– أولًا دي مش وصية.. ثانيًا أنا عملت كِده مع «السيرفيس» عشان متأكّد أنّه قتل أبويا ومَحدِّش صدّقني.. سَمّيه تار.. سَمّيه أي حاجة.. لكن أنا مش هكمّل.. أبويا كان عنده دوافعه وأسبابه.. وأديك شُفت وصّلتنا لإيه.

– حتّى بعد ما عرفت إن «السيرفيس» كان مجرّد سكّينة في إيد حد تاني.

سكت «طه».. انحشر الكلام في حلقه قبل أن يردف: إيه اللي يخليني أثق فيك؟

– أنا ما يهمنيش إنك تثق فيا.. أنت ما عندكش اختيار أصلًا.

قالها «وليد» وخرج.. اقترب من سيارة على مقربة تحمِل شابا وفتاة، صفّق بيديه فانتفضا ثم أشار لهما: ولاه.. خُد المومس اللي

معاك واتّكِل بدل ما أنزل بيك أنت وهي على الخليفة.. يلّا.. بفزع أدار الشاب المحرّك الذي أطلق زمجرة وانطلق.. أولى وجهه للفراغ أمامه قبل أن يشير لـ«طه» بسبّابته أن تعالى: أخبار «سارة» إيه؟ باغته «وليد».

– «سارة»!! كان سؤالا غير متوقع لـ«طه».

– إنت ما لك ومال الموضوع ده؟ وبعدين إيش عرّفك بيها أصلًا؟

– أنا مَوقوف عن الخِدمة.. مؤقتًا.. مش برّه الخِدمة.. سألت عليها واحد أمن دولة دفعتي.. قلت له دي تخص ابن أختي وعايزين نطّمِن عشان داخل على جواز.

– جواز إيه؟ مُمكِن ما لكش دعوة بيها.. خلّيها برّه الموضوع.

– الحق عليّا.. مِش عايز تِعرف قال عليها إيه؟

– بلاش شغل الظبّاط ده معايا أنا.. ماشي.

قالها وهم بالرحيل حين أخذ «وليد» بتلابيبه ودفعه دفعًا إلى الجرف.. توقف بالكاد قبل أن تصل أقدام «طه» إلى طرف المنحدر.

– يا ابن الـ...

بتر «طه» سبتّه حين سَقط ذلك الحجر من جانِب قدميه إلى الظلام.. استغرق الأمر ثلاث ثوان حتّى سَمعا صوت الارتطام المكتوم.. كانت المسافة أطول من أن تحتمل سقوطا.. اقترب «وليد» بوجهه من «طه» وهمس: فاكر نفسك دكر؟ أنا سألت عليك

وعرفت إنك مندوب شاطر وحِرِك.. بس مش عليّا.. أنا مُمكِن أنسِّيك اسمك.. ومِش اسمك أنت بس.. اسم كُل اللي بتحبُّهم.. أوعى تفتكر عشان برّه الخِدمة أبقى عاجز.. أنا دلوقت معنديش حاجة أخسرها.. وصَدّقني مفيش أسهل مِن الأذى.. وابقى دوّر على اللي هياخُد لك حقّك.. فاهِم؟!

بعيون جاحظة هز «طه» رأسه إيجابًا فترك «وليد» ياقته بعدما هندمها له.. استند «طه» على مقدمة السيارة مُحاولًا تمالك نفسه حين أردف «وليد»: عارِف المُشكِلة إيه؟ الناس فاهمة غلط.. الظابِط ده أغلب واحِد في البلد دي.. برواز.. وانت فيه انت كُل حاجة.. بس برّاه أنت ولا حاجة.. يعني أنا مثلًا باشا في حدود مكتبي والكرسيين اللي قدّامي.. ودايرة كبيييرة حواليّا وأنا داخِل أي حتّة.. برّه الحدود دي صِفرع الشمال.. في بلدك من غير سُلطة أنت في الهوا.. لعلمك مرتبي كلام فاضي.. آه عندي عساكِر بتخدِم في البيت قبل المكتب وعربية ببونات بنزينها واشتراكات نوادي وفيز بنوك ببلاش.. ما بدفعش حاجة.. غير البرستيج والعلاقات والكبير يخدمني قبل الصغيّر.. بس أنا كمان بخدِم الكُل.. ما بنامش.. من غير واحِد زيي إنت كمان ما تنامش..

نظر له «طه» ولم يعقب فأكمل: الناس ما بينفعش مَعاها غير أسلوب واحِد.. الخوف.. مِن أيام «موسى» عليه السلام وهي بتتحِكِم بيَّه.. خدوا على كِده خلاص.. كُل نبي كان بينزِل للناس.. إلا «موسى».. هو الوحيد اللي نِزل لـ«فرعون».. ليييه؟ عشان ما ينفعش تكلِّم الناس.. في مصر تكلَّم الكبير يظبّط الصغير!!

ظل «طه» صامتًا لثوان ثم استطرد: أنت فعلًا طلعت من الخدمة بسبب رشوة جنسية؟

ضحك «وليد» بملء فمه: جنسية!! يا ابني دي مرة رفق.. هي اللي جريت ورايا.. كانت مريّلة.. مشيت معاها؟ آه مشيت معاها.. طلبت خدمة عشان جوزها خدمتها.. مش عيب.. نُص البلد ماشية خدمات.. جت عليّا أنا!! وبعدين لقيتها محرومة والبيه مش مقضّي طلباتها الخاصة قلت أسدّ مكانه.. أتاري بنت الكلب بترقّد لي عشان أطير.. شكرًا.

- «هاني برجاس»؟

- مش لوحده، معاه واحدة عقرب، القانون يلِف حواليها وعُمره ما يطولها، طبخوها سوا بعد ما قرصت على واحِد يخصّهم، همّا كسبوا المرّة دي، بس مش على طول.

أجابه «طه» بابتسامة من جانب شفتيه: شكلك مظلوم.

- أنا مش أوسخ واحِد في الناس دي.. المنظومة مترتّبة من فوووووق أوي.. ليها دِماغ وإيد ورِجل.. أنا مجرّد ترس صغيّر ما يوقّفش قطر.. يا تِمشي معاه يا تتكسر.. مفيش حل تالِت.. الكبير هيفضل ياكُل في الصغيّر.

- «أدهم الشرقاوي».

- نعم؟!

- هو الوحيد اللي وقّف قطر.

– وهو ده اللي عجبني في أبوك.. هو الوحيد اللي شاف الحل التالِت.. التنضيف.. هو ده اللي يمشي في بلد القانون فيها زي الخيشة المقطّعة.. الموت ساعات بيكون أنسب حل.. يعني فِكرك العيال اللي بنموتهم في الحجز دول لو طلعوا هينصلح حالهم؟ أبدًا.. بيخرجوا ألعن مِن الأول.. موتهم في الوقت ده بيبقى راحة لينا وللناس.. لأن كُل دقيقة بجريمة.

– يعني مش هترجع تاني للخدمة؟

– طول ما «هاني برجاس» في الدايرة.. وحتّى لو رجِعت.. هدومي اتوسّخت خلاص.. إنت فاكِر إن اللي أذاني واحِد.. لأ.. أنا عشان أنزاح مِن مكاني فيه ناس كتير أوي خدِّمت عليّا.

– أبويا شاف إيه؟

– كُل حاجة في وقتها.

– أنا مِش مِرتاح.

– يبقى فكّر في رد مقنع على مذكّرات أبوك.

أخرس التهديد «طه».. رمقه في غِل، فأردف وليد: أبوك الله يرحمه عمل اللي عليه وزيادة.. ساب لنا كُل ماضيه في كُراسة.. وأنت كمِّلت مع «السيرفيس».. أبوك خلاص.. إنت لسّه الطريق قدّامك.. أنا بس بفهّمك وضعك.. بعرّفك إنت واقِف فين بالظبط.. إنت دخلت جيش؟

لم يجبه فتابع: ما دخلتِش.. في الجيش يقول لك اتصرّف.. أول حاجة بيعوّدوك عليها إنّك تطيع في إطار الظروف اللي إنت مَحطوط

فيها.. يعني تقول حاضِر ونعم وتنفّذ.. أنا مش عاوز أكتر من كِده لغاية ما المشكلة اللي إحنا فيها دي تنتهي.. وإذا كنت فاكِر إن موت «السيرفيس» حل نهائي تبقى غلطان.. «السيرفيس» مجرّد بداية.

سَكتا لخمس دقائِق.. تركه «وليد» حتّى تكلّم: أنا همشي معاك عشان حاجة واحدة بس.. أعرف أبويا شاف إيه قبل ما يموت.

ربت «وليد» على كتفه: يمكن أنا دلوقتي أسوأ حاجة ممكن تحصل لك.. لكن صدّقني أنا أحسن الموجودين.. أبوك.. الله يرحمه.. كان آري الليلة صح.. البلد دي فعلًا عايزة الحرق.. تِتعشّى؟

لم ينتظِر «وليد» ردًا: فيه واحِد بتاع كباب هايل في شارِع ٩.. وهحكيلك هِناك على حدّوتة.

* * *

في مطعم «الخديوي» أكل «وليد سلطان» كمن سيجوب الصحراء الغربية مشيًا في حين تناول «طه» كوب بيبسي بينما كان أوّل ما نزل معدته منذ الصباح.. بدا على الأوّل علامات الاسترخاء ففك حِزام بنطلونه وأصدر تكريعتين وأخذ يعبث بدخان سيجارته في الهواء وهو يلتهم بعينيه فتاة تجلس بعيدًا: تعرف إيه عن الشواذ؟ سأل «طه» بدون أن ينظُر له.

تنهّد «طه» وهز رأسه: أعرف أنهم كتير.

– ده يعرفه اللي شافوا «عمارة يعقوبيان».. لكن اللي ما حدّش يعرفه إن الناس دي دنيا كاملة.. طوايف ومُستويات.. لمّا كنت ماسِك «الحسين» كان فيه فندق نِجمتين اسمه «اللؤلؤة».. كبست عليه مرّة

ولمّيت العيال اللي فيه.. كانوا نايمين على جرايد في عِز البرد.. عارِف إيه دول؟ عيال من الأرياف.. سَلبيين.. تلات تربعهم اتنط عليه وهو صغيّر.. الواد مِنهم ينزِل القاهِرة ويفضل يتركب لغاية ما يبوظ ويدلدل.. يدمن الجنس زي المخدّرات لغاية ما يتملي أمراض ويطفح.. الزباين تبتدي تقرف والكُل يبعِد عنه.. وفي نفس الوقت مفيش مَصدر دخل ولا يعرف يرجع بلده.. يترمي جنب الحيط زي المنديل الوِسِخ.. تلاقيه ممصوص زي القصب وأصفاااار ودراعه مخرّم.. الواد فيهم يتخانق مع التاني، يضربه بالمطوة في وشّه يتفلق نصّين ما ينزِّلش نقطة دم.. زي مصّاصين الدم في الأفلام.. عارف ليه؟

– ليه؟ أجاب «طه» بزفرة ملل.

أردف «وليد»: عشان كُل يوم بيتحلبوا زي البقر.. يدخل على أي مركز تبرّع بالدم.. يعصروه سَاعة لغاية ما ينز اللتر.. ياخُد واحِد وتلاتين جنيه وعلبة عصير وتي شيرت وكُل سنة وأنت طيب.. بيسمّوا العملية دي «طمبرة».. يعني طرمبة دم.. بسأل واد مِنهم مرّة اسمه «سوسن».. أصلهم بينادوا بعض بأسماء نسوان.. كان أكبر واد فيهم.. بقول له إيه اللي جابرك على كِده؟ قال لي: لمؤاخذة يا باشا عُمرك نِمت مع دكر؟ قلت له: لأ يا روح أمّك.. قال لي: مش هتِعرف غير لمّا تجرّب!! ده النوع اللي في القعر.. فيه مِنهم نوع تاني وسط.. العيال الفافي.. شوية شباب بيتّاكِل مِن وهو في المدارس.. نصّهم متربّي في الخليج ربابة الحمّامات.. الواحِد مِنهم بيرافِق صَاحبه ويخاف عليه من الهوا الطاير.. أكنّه البت بتاعته.. همّا دول بقى اللي باينين.. جزم حمرا.. بنطلونات محزّقة ساقطة واللباس باين وتلاقيهم مرمّيين

في الحفلات والكافيهات المشبوهة.. أكتر القواضي بتيجي مِنهم.. زي موضوع «ناريمان كوين بوت».

– لزمتها إيه المُحاضرة الممزلقة دي؟

– أنا بحكيلك كُل ده عشان النوع التالِت اللي يهمّنا.. النوع اللي وصل أعلى المناصب.. وكِلمِتهم بقت مسموعة زي الطبل.. مِش هتصدّق لو سِمِعت الأسماء.. كعوب عالية على الآخِر.. زي «هاني بِرجاس».

قطب جبين «طه»: المفروض أعمِل إيه؟

– زي ما عملت مع «السيرفيس».

– إنت متخيّلني إيه؟ بقتل اتنين على الريق كُل يوم؟ «السيرفيس» كان ليه ظروفه.. لكن ده...

– أنا متابِع «هاني برجاس» مِن ساعة القضيّة.. عايش في فندق على طول.. ما بيحبش البيوت.. هو ده المفتاح.

ظل «طه» يرمقه بلا كلمة فأردف: اسمع وركّز.. سيب لي أنا ترتيب كُل حاجة.. هكون وراك خطوة بخطوة.. في اللحظة المناسبة هحرّكك.. كُل ما عليك آنّك تنفِّذ.. أنت صيدلي وأكيد عندك ألعاب سحرية.. خِلِصنا.. مُذكِرات أبوك تتحرق.. صورتك اللي على الموبايل تتمسح.. أنت من طريق وأنا من طريق والكُل يمشي مَبسوط قالها وابتسم.

– وأنت بعيد عن الليلة خالص!

- زي ما قلت لك قبل كِده.. خياراتك محدودة.

أشاح «طه» بوجهه يبحث عن نفس: وإيه اللي يضمن لي أنّي هخرج مِن كُل ده سليم.

مَسح «وليد» على شعره: نفس اللي هيضمن لي إنّك ما تفكّرش تِلعب.. سَحب نفس مِن سيجارته ثم أردف: شفت فيلم أجنبي مرة على «الـشانل تو».. بتاع الواد الجِرِم اللي شبه الواد بتاع فيلم «بريف هارت».. اتنين ما يعرفوش بعض اتقابلوا في بار.. كان عندهم مشكلة مع نسوانهم.. بعد ما سِكروا.. اتّفقوا إن كُل واحِد فيهم يقتل مرات التاني.. الأولاني نفّذ.. بس التاني نخ.. وطبعًا هو اللي انتصر في الآخِر!! أمريكاني.. هجص.

شرد «طه» بعينيه بعيدًا فأرجعه «وليد»: أَحِب أطمِّنك إن ده ما بيحصلش في الحقيقة.

لم يعقب «طه» على كلامه.. انتهت المقابلة.. نزلا بالسيارة من «المقطّم» وعِند مدخل «تُرب الإمام» توقّف «وليد»: انزل.

- أنزِل هِنا؟

- إنت نسيت؟ خُد الزِّفت اللي معاك ده وعدّي عند «تُرب الإمام» الناحية التانية.. خُش ارميه في أي حِتّة وأوعى حد يشوفك.. وما تِعمِلش حاجة تاني مِن غير ما أقول لك.

- بالسهولة دي.. هيلاقوا العضم.. وهيعرفوا إنّه «السيرفيس».. الـ(DNA)...

- ليه.. «تامر حسني».. عضمه منقوش عليه اسمه؟ وبعدين ده ما عندهوش (DNA) أصلًا.. لمّا بنلاقي حاجة كِده بنبقى عارفين إنّها مِش جاية.. ومالهاش ديّة.. ده إذا حد بلّغ أصلًا.

- يعني إيه؟

- «تُرب الإمام» دي كُلّها دواليب مُخدّرات.. محدِّش ليه مصلحة الحكومة تخُش جُوّه.. اللي هيلاقي حاجة هيداريها.. المُهِم محدّش يشوفك.. طول ما أنا بعيد أنت كمان بعيد.. افتكر دي.

قالها وأدار موتور السيارة: الأيام الجاية ما تتحرّكش كتير وما تتصلش بيا أنا اللي هاتِّصِل بيك.

نظر له «طه» نظرة فارِغة حين أردف «وليد»: لِسه مِش عاوز تِعرف حاجة عن «سارة»؟

تسلّلت إلى «طه» دبابير الشك.. ذلك الأزيز المهلك.. اقترب من الزجاج: احكي؟

- البت دي أمن الدولة حطّين عِينهم عليها.. مُسجّلة عنصر نشِط في المظاهرات.. مال النِّسوان ومال السياسة؟! أنا مِش فاهم!! حركات الحرية والاعتصامات والكلام الفاضي اللي شغّال الأيام دي.. لو أتشدّت هتتشد معاها.

تدلّى فك «طه» وتوتّرت أصابعه في حين أكمل «وليد»: غير إن البت دي لو شمّت خبر هتبيعك في أول محطّة.. أنا بظبّطك عشان ما تنضربش على قفاك.. دي بت طقّة وبتاعت مَشاكِل.

هم «طه» بالرحيل مُعطيًا ظهره لـ«وليد» الذي مال بجسده ناحية الشبّاك وهو يبتعِد: نسيت أقول لك كمان أنّها بتتردِّد على شقّة مَرصُودة في «وِسط البلد».. بتقعُد فيها بالتلات ساعات.

ثم ابتسم ساخرًا وأضاف: مع إن الموضوع كبيره نُص ساعة.

لم ينبس «طه» برد.. اكتفى بالوقوف ساكنًا تعصف به الأفكار حتّى اختفت السيّارة.

كانت الساعة قد تعدّت الرابعة صباحًا حين عبر أسفل كوبري «السيدة عائشة»، دخل منطقة «تُرب الإمام» تتبادل يداه الحمل الثقيل.. بدأت الخيالات المُبهمة تُلاحِقه، تحوّلت كُل شجرة وشاهِد قبر إلى كائِن يتربّص، تحاصره ظُلمة لم يفلح الهِلال الهزيل في كشف سَترها فزادته جنونًا فوق الجنون، ابتلّ كفّاه عَرَقًا تحت وطأة «الأدرينالين» المتدفِّق في دمه، خمس دقائِق من المشي تيهًا لا يكاد يُصدِّق أنّه يحمِل «سيرفيس» في حقيبة، يبحث بعينيه عن رُكن أو مدخل يَصلح لمُواراة غريمه التراب: إيه يا كابتِن.. بتدوّر على حاجة؟

رفع «طه» رأسه منتفِضًا ليجِد رجُلًا طويلًا محني الظهر يرتدي جِلبابًا فِضفاضًا، يقِف على بُعد أمتار قليلة تحت لمبة صفراء بجانِب مدخل حوش قديم.. بدا كنسر جيف أصلع.. لم يستطِع «طه» تبيّن مَلامِحه لوقوفه عكس الضوء.. كرّر الرجُل نِداءه وهو يقترب: بتدوّر على حد يا عسل؟

تسمّر «طه» في مكانه فازداد الرجُل اقترابًا بخطوات هادِئة حتى أصبح أمامه: أي خدمات؟

نظر «طه» في ملامح وجه تعاركت مع الزمن: شُكرًا.

تفحّص الرجُل هيئة «طه» ثُم بادره: شكلك دكتور.

انتفض «طه»: عِرِفت إزاي؟

- سِر المِهنة.. مَحسوبك «جابِر».. «جابِر غزال».. أقدم تربي في «الإمام» كُلّه.

- أهلًا وسهلًا.

اقترب «جابر» بأنفاسه الأقرب لجِبنة روكفورد مُعتّقة: تِب «القاهِرة» والا تِب «عين شمس»؟

استدرك «طه»: «القاهِرة»..

- عندك امتحان؟ يلزمك قِطع غِيار؟

التقط «طه» الخيط: لا أنا معايا حاجة عاوز أرجّعها.

- مُرتجع!! البضاعة المباعة لا تُرد ولا تُستبدل.

- خلّصت تشريح وصِعِب عليّا المنظر.. الطلبة أصلهم بيلعبوا بالحاجات دي.. ده برضه كان بني آدم.. لحم ودم.

رمقه جابِر بنظرة خالية مِن التعبير: والمطلوب؟

- إكرام الميّت دفنه.

- وليه ما دفنوهوش فِي مقابِر الصدقة؟

تلعثم «طه» وهرش في مؤخِرة رأسه بحثًا عن مخرج فأراحه «جابِر»:

– الموضوع ده يلزمه تساريح وأوراق.

قرأ «طه» ما يرمي إليه «جابر» فدس يده في جيبه وأخرج ورقتين فِئة عشرين جنيهًا: البركة فيك.

– ما ينفعش يا دكتور.. دي فيها سين وجيم.

أخرج «طه» آخِر ورقة في جيبه.. كانت مِن فئة العشر جنيهات: ما فاضلش معايا غير تلاتة جنيه عشان أروّح.

مَد جابِر يده وأمسك بالحقيبة: اسم الكريم إيه؟

– أأ.. كريم.

– ماشي يا عسل.. لحظة أفضّي لك الشنطة.

استوقفه «طه»: لا مفيش داعي.. خلّيها.

– لو احتجت مراجعة نِهائية قبل الامتحانات اسأل بس على «جابِر غزال».

– إن شاء الله.. سلامو عليكو.

تركه ورحل، أسرع خطاه وسط متاهة الشواهِد والأبواب الموصدة بالسلاسِل الصدئة، شاعرًا بمن يتبعه يكاد يَسمع حفيف جلباب خلفه، ملفوفا بالظلام الذي أكل المعالِم والتفاصيل حتّى باتت كل الطرقات متشابهة، يتلفّت بغتة فلا يجِد أحدًا، يتخبّط بحثًا عن مخرج للشارع حتّى وقعت عيناه على سبيل مِياه معطوب كُتِب عليه:

اقرءوا الفاتحة لصاحب هذا السبيل.. «حنفي الزهّار»..

توقّف.. ذلك الصبّار الظمآن وتلك الدرجات المتآكِلة.. تسللت عيناه إلى بوّابة حديدية غاطسة في الأرض تعلوها لوحة جيرية مَطموسة.. اقترب ببطء ومَسح ترابها بكفّه.. مَدفن عائِلة «الزهّار».. كان يَحتاج دومًا لخريطة حتّى يصِل: الله يرحمك يا بابا.. تمتم.. الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.. ما لك يا دكتور.. أنت تايه؟

هرب لون «طه» من ذلك الفحيح الذي لم يشعر باقتراب صاحبه فأصدر شهقة ورجع للوراء: إيييه يا عم «غزال».. مش تعمِل أي صوت؟

ابتسم «جابر» من جانب فمه المَهجور: أنت من عيلة «الزهّار»؟

سكت «طه» لثوان ثم أردف: لأ..

قالها وابتعد حتّى عانق الأسفلت..

* * *

الفصل العشرون

وصل «طه» بنايته حيث وجد «ياسر» مُنتظرًا في المدخل: إيه اللي جابك!!

–حسيت بتنانة إني سبتك في ظروف زي دي، وبعدين مراتي سافرت عند أهلها في «المنوفيّة».

– هي من «المنوفيّة»؟

نكس «ياسر» رأسه في إيجاب بائِس فأردف «طه»: معلش.. ما طلعتش ليه؟

– مش ناقصة عفاريت.

بعد نِصف ساعة كان «طه» يستلقي على أرضية غرفته وبجانبه «ياسر» يلف سيجارة حشيش: «جابر غزال».. يا ريتك قُلت له بس إن «ياسِر» يبقى صاحبي.. كان شالك مِن على الأرض شِيل.. ده حبيبي.

– يا بني آدم هو أنا رايح أخطُب بِنته؟

– بس ما تخافش.. ده صاحِب دولاب كيميا ويخاف من الحكومة.. المهِم.. بُص يا معلِم.

قالها وجلس مربعًا: أنت تبيع الشقّة.. إعلان في «الوسيط» وهيطلع لك مِنها عكمة حِلوة.. تضرب الباسبور وتهِج على الخليج.. هتلاقي هِناك «فايزر» و«كايزر» و«كتافلام».. وكُل الشركات اللي قلبك يحبّها.. تنسى جو «ريّا وسكينة» وترشق مع حِتّه عربي تركّبك الـ(BM) وتأكّلك الشهد.. مات الكلام.

– مِش قبل ما أعرف إيه اللي حصل لأبويا.

– أنت هتعمِل لي فيها «جميلة أبو حميد».. اسمع يله.. أبوك مات والله يرحمه.. وأنت بقى كفاية عليك كِده.. أنت يدوبك تعرف تتجوّز بدماغك دي.. أنت راشِش دواخِل والشاسيه مفتول يا «طه».. فوق.. أنت زوّدتها.

– اللي إيده في الميّه مِش زي اللي إيده في النار.

– «وليد سلطان» ده هيشتغلك لغاية ما يلبّسك في الحيطة، وأنا أهه وأنت أهه.

سلت «طه» السيجارة من يد «ياسر» ونظر لها قبل أن يَسحب نفسًا حين أكمل «ياسِر»: مِش هتعرف إمتى غير بعد ما السكّينة تسرقك.

قام «ياسر» متّجهًا للثلاجة فتح بابها: وساعتها.. شُكرًا.. هي مال التلاجة عاملة زي الخرابة كِده!!

لم ينتظِر إجابة «طه» الذي حاول تحذيره قبل أن يفتح الفريزر ليتراجع مترين: مفيش حاجة سائعـ... يا نهار اسود.. الله يخرب بيت أمّك.. ما تقولّيش.. إيد الحُمار؟!!.. سايبها هِنا ليه.. بتخلّلها.

لم ينزِل «طه» عينيه عن نار السيجارة: الناس لازِم تعرف اللي حصل للـ«سيرفيس».. عشان يبطّلوا يخافوا.. يعرفوا إن كُل مفتري ليه نهاية.

- آه وتروح أنت في ستّين داهية.. يا بني آدم إحنا ما صدّقنا غوّرنا الشاسيه.. تقوم تسيب لنا ديل!! أنت فِكرك عشان مجمِّدها لهم «حلواني إخوان» خلاص مِش هيعرفوا يجيبوك.. الله يحرقك.

أغمض «طه» عينيه بعدما استلقى على الأرض ثانيَة: مُمكِن تسيب الموضوع ده عليّا.

- لأ، أنا هسيب الموضوع ده خالِص.. وأنا اللي قلت بلاش أسيبك لوحدك.. الضرب على راسك باينّه جاب لك تخلّف.

- عمرك ما هتفهم.

- صوابِع زينب دي لازِم تشوف لك فيها صِرفة.

هز «طه» رأسه ولم يعقِّب.. متابعة الدخان الأزرق حتّى السقف كان له وقع خاص.. سحبه إلى فضاء ساكِن يعانق رئتيه.. ذلك الخِدر.. تلك الرائحة.. سَعلات خفيفة أعادته ثانيًا إلى أرض الغرفة حين استطرد «ياسِر»: قوم لِم هدومك ويلّه مِن هنا.. الشقّة دي ملبوسة.

قام «طه» فجأة وخرج مِن الغرفة بلا كلمة.. تبعه «ياسِر» حتّى الصالة: أنت سامِعني؟

- لأ يا «ياسِر».. قالها «طه» بدون أن يلتفت..

- عليّا النِّعمة مِن نعمة ربّي لو ما اتلمتش الليلة هتتجاب.. ساعتها يا زميلي مِش هيبقى لو شفتوه في المعركة اقتلوه.. هتبقى اغتصبوه.

- طب هات أي حاجة من اللي بتبلبعها.

دس «ياسِر» يده في جيبه فأخرج عِدّة شرائِط.. فتح كف «طه» ووضعها كُلّها: مِش هتعمل لك دِماغ أكتر مِن اللي أنت عامِلها لنفسك.. أنا ماشي.

سحب «طه» زجاجة مياه ودخل غُرفة والده.. كانت مُظلِمة إلا مِن نور خافِت متقطِّع آت من الميدان.. خلع قميصه وجلس على الأرض مُستندًا بظهره على المكتب في مواجهة الشبّاك المفتوح.. حرّر عدّة أقراص من شرائِط «ياسر» وقذفها في فمه ثُم وضع الزجاجة على الأرض بجانبه ورجع برأسه إلى الوراء متأمِّلًا تِلك الشجرة العِملاقة المواجِهة لنافذته.. يتابِع أغصانها المضطربة مِن أثر نسمات صيفية هزيلة تعبث بأوراقها.. لم يدر كم مر من الوقت حين التقطت أذناه صوت رفرفة جناح.. انتبه فوجد الغُراب.. منذ وفاة والده لم يأت.. كان يَعبث بمنقاره الحَاد في حَلق الشبّاك.. حين نظر باتّجاه «طه» توقّف.. ظل يرمقه بمَحجريه شديدي السواد لدقيقة بدت دهرًا قبل أن يثب إلى أرض الغُرفة.. يتقافز بأرجله الجافة بين حطام الأرض المَخلوعة مُصدرًا نقرًا جافا حتّى اقترب من قدمي «طه» المفرودتين.. لعجب لم يبد الأخير ردة فِعل تذكر.. كان يتنابه إحساس أقرب لغيبوبة واعية.. خدر في الأطراف صاحبه تنميل ممتع أشبه بفوران فقاقيع من الصودا تحت الجِلد.. ظل الغُراب يرمقه قبل أن يَسمع ذلك الصرير مِن رُكن مُظلِم قرب الشبّاك.. صريرًا رتيبًا يعرفه جيدًا.. طلب من والِده مرّة أن يستريح يَومًا في الفراش حتّى يُصلحه.. ذلك المسمار الذي يحتك بالعجلة الأمامية للكرسي المتحرك.. انزعج الغُراب وطار مُصدرًا غواقا حادًّا حين ازداد الصوت إصرارًا

مع خروج مُقدّمة الكرسي من حيّز الظلام إلى دائرة النور الباهتة.. التصق «طه» بالدولاب بعدما رأى مَلامح قدم تعتلي المسند السفلي.. تلك اليد التي امتدّت لتسحب العجلة دافعة الجالِس في اتّجاهه.. انساب العرق على جبهته في لحظات.. رفع عينيه متبيّنًا السَّاكِن فوق الكُرسي.. لكن نور الشارِع المُعاكِس أخفى الملامح.. مع اقتراب الكرسي البطيء ازداد «طه» التصاقًا بالرُّكن.. الصَّرير يشق رأسه كحدّاد يشحذ سيفًا.. تهدّجت أنفاسه ففتح فمه في مُحاولة لصرخة فلم يعثر على أحباله الصوتية.. أحاط يديه برأسه ودفن وجهه بين ركبتيه.. كان كمن يَغرق فيبتلع المياه كُلّما فتح فاه.. ثوان ولامست عجلات الكُرسي قدميه.. تزلزل كيانه وانتابته رعشة من عانق سلك كهرباء عارٍ: «طه».

لم يَحتج وقتًا ليميّز الصوت.. صوت أبيه.. رفع رأسه فلم يجِد ما ظنّه.. لاح أمام عينيه تلألؤ غريب.. شيء أشبه بنجوم متناهِية الصغر تنفجِر في حدقتيه قبل أن تنطفئ التفاصيل بغتة.

بعد وقت غير معلوم أفاق.. كان لا يزال في نفس المكان الذي جلس فيه.. انقلبت زُجاجة المياه بجانبه فبلّلت بنطلونه.. قام يلتمس نورًا.. نظر للرُّكن المُظلِم.. اقترب يتحسّسه.. كان خاليًا كما عهِده.. مَسح عرقه ووقف قِبالة الشبّاك.. نظر في ساعته.. كانت الرابِعة والرُّبع صباحًا.. الميدان ساكِن كقرية مهجورة.. أمسك بالنظّارة المُعظّمة يبحث عن ساهرٍ فلم يجِد.. ترك النظّارة وخرج إلى الصالة.. اقترب مِن الثلاجة.. فتح الفريزر وأخرج ذلك الكيس.. كان الثلج يكسوه.. بحث عن ورقة ثم قلم.. خط بِضع كلمات في جملة قبل أن يفتح

الكيس ويُسقط الورقة بين الأصابِع الزرقاء.. أسرع لغرفته وبحِرص فتح ضلفتي الشبّاك في فُرجة متوسطة.. خلع فانِلته ومسح الكيس ثم صافح كف «السيرفيس» في سلام لم يحدث مِن قبل ورجع خطوتين ثم طوّح به بعزم قوّته إلى الخارِج.. طار الكف مترنّحًا إلى وسط الميدان.. اصطدم بجِذع شجرة قبل أن يسقط فوق مُقدِّمة سيّارة ثُم على الأرض.. رمقه «طه» للحظات قبل أن تعلو شفتيه ابتسامة.. أغلق بعدها الشبّاك واستلقى حتّى غرق في نوم خال مِن الأحلام.

بعد ثلاث ساعات استيقظ على صوت خبط بالباب تلاه اغتصاب للجرس.. قام «طه» يترنّح.. أسقط زهرية في طريقه وتعثّر في سجّادة قبل أن يفتح الباب: يا ابن المجنونة.. كان صوت «ياسِر».

خبط «طه» جيب قميص «ياسر» فطارت علبة السجائر إلى يده قبل أن يسأل: هي الساعة كام؟

- تمانية ونُص وخمسة ثُمّ صرخ: رميت الكيس في الشارِع يا عم الأمّور؟ البرشام لحس لك دِماغك.. قلت هيهِدّك تقوم عامِل لِنا نصيبة تانية.

انتفض «طه»: إيه اللي حصل؟

- هِزّها وبُص مِن الشبّاك.

قفز «طه» إلى الشبّاك وفتح ضلفتيه في فُرجة تسمح له بالتلصص ووضع النظّارة على عينيه.. كان الميدان مُزدحمًا كيوم حشر.. التف العامة في دائِرة يَهمسون حول نقطة في المُنتصف.. اشرأبت أعناقهم كالزراف مُحاولين الحصول على تفصيلة تصلُح لكسر ملل أربعة

من موظفي الحكومة درجة ثالثة أثناء إفطار الفول على مكاتبهم.. يبعدهم أفراد أمن بحواجز مرور وأيادي مشتبكة.. كم لا بأس به مِن الضبّاط حول رُتبة عالية المقام بزيها الرسمي ورجُل آخر يرتدي بذلة داكِنة بدا مُهمًّا وسط دائِرة الرهبة المحيطة به.. ورجال الطب الشرعي بقفازاتهم البيضاء وأكياسهم الشفّافة وانطباع اللامبالاة الموجّه للغوغاء من حولهم: أنت متأكّد إن...؟

قاطعه «ياسِر»: هي يا عم الحِلو.. هو فيه حد عنده كف زي كف «السيرفيس».. نازل المحكمة الصُّبح سِمِعت الناس بتتكلّم عن الزبال اللي لقاها.. الدنيا مَقلوبة تحت، الله يحرقك.

- أنا مِش فاكِر...!!

صرخ «ياسِر»: ما طبعًا.. أنا غلطان إنّي خلّيتك تعلّي الطاسة امبارح.. قوم لِم هدومك.. تبعد كام يوم لغاية ما الدنيا تهدا.

- ما ينفعش.

اقترب «ياسِر» منه: «طه».. أنا عارِف اللي جوّاك.. بس ورحمة أبوك ابعد.. رُوح عند عَمِّتك.. عَشان خاطري.. عَشان خاطِر أبوك.. أنت مِش قد الناس دي.. ولا قد أي حد أصلًا.. وما تِعرفش حاجة في القانونٌ وعامِل حادثة.. «سُلطان» هيلاعبك زي ما الرفاعي بيلاعِب تعابينه.. هيحطّك في كُمّه ويوهم الناس كُلها إن هو اللي طلّعك من الجُحر.. هيدخّلك في الحيطة.. أنت مش شايف نفسك بقيت عامِل إزّاي.. أنت بدأت تتجنّن يا «طه».

نظر له في صمت.. تداعت بداخله ذِكرى كتابته لكلمات على الورقة لم يفلح عقله في استرجاع فحواها.. فقط كان يتذكّر أصابعه

وهي تخطّها.. تطوي الورقة وتدسّها أمانة في يد «السيرفيس»: «ياسِر».. أنا كتبت ورقة وحطيتها في الكيس.

انبعج «ياسِر» كمنديل ورقي مُستعمل.. وضع يده على جبهته وسأل: كتبت فيها إيه؟

- مِش فاكِر.. أجابه «طه».

أخذ «ياسِر» نفسًا عميقًا: يا رَب ما تكونش كتبت رقمك القومي.. عَشر دقايق تِلِم هدومك.. الشقّة دي تنساها.. اللي فات ده كلّه تنساه.. «طه» أنا مش هعرف أقف جنبك أكتر من كِده.. ومش هقدر آجي هِنا تاني.. أنا عندي بنت عاوز أربّيها.

قالها ورحل.. دخل «طه» غرفته كالمجنون.. التقط حقيبة سفر كانت فوق الدولاب.. فتحها وبدأ يكدّس بداخِلها كُل ما وصلت إليه عيناه حين سمع طرقات بالباب.. طرقات عالية نسبيًّا.. تيبّس في مكانه لحظات ثم اقترب من الباب على أطراف أصابعه.. نظر من العين السحرية فوجد رجلًا في العقد الرابِع.. شارب عريض وأكتاف مفتولة وبذلة سفاري لم يتبيّن لونها.. بدا مُخبرًا.. انسحب «طه» في خِفّة مع ازدياد الخبطات وطأة.. في الغرفة لملم سَريعًا بقايا شرائِط البرشام من الأرض.. أسقطهُم في الكابينيه وشد السيفون ثم أخذ نفسًا عميقًا وفتح الباب بعيون ناعسة متصنعًا الجهل: نعم.

أجابه الرجُل بصوت مبحوح: كام واحِد في الشقة؟

هز «طه» رأسه: أنا لوحدي.. خير.

- بعد إذنك عايزينك خمسة تحت.. رئيس المباحِث هيسألك شوية أسئلة.

- فيه حاجة؟

- هتِعرف تحت.

ارتدى «طه» بذلة وسَحب حَقيبته مُحاولًا إضفاء بعض الهيبة لدرء الشبهات.. ابتلع قرص «ستجرون» للحفاظ على اتزانه قدر الإمكان ونزل.. في مدخل البناية كان رئيس المَباحِث الجديد جالسًا على كُرسي بلاستيك وأمامه مِنضَدة صغيرة عليها فنجان قهوة.. اتّخذ من العِمارة مكتبًا مؤقتًا لمتابعة قضية اليد.. يقِف بالقرب مِنه بوّابو العِمارات المُحيطة وبعض السُكّان وبينهم كانت «سارة» وبجانبها أخيها الهش.. حين التقت عيناها بـ«طه» أشاحت بنظرها إلى الشارِع.. اقترب مِنها ببطء مُحاولًا عدم لفت الأنظار: لسّه زعلانة؟

- أزعل ليه، هو أنت عملت حاجة؟

- «سارة»..

بصوت خافت قاطعته: من يوم ما عرفتك وأنت عامِل بيننا سور.. دايمًا فيه حاجة أنا مش فاهماها.. دايمًا فيه سِر.. عاوزني أشوفك مضروب وما أسألكش.. أسألك عن حادثتك ما تردِّش.. تعرف عنّي كُل حاجة وأنا ما أعرفش عنّك أي حاجة.. أنا مش فاهمة أنت عاوز إيه.

أحنى رأسه في الأرض يبحث عن إجابة.. العثور على رد مناسِب كان كالعبث بِمسمار مَغروس في قدم.. مِسمار مُلتو.. اكتفى بالصمت ولم يعقِّب.. سكوته في الظروف العادية كان يعدّ بداية لجدال لن ينتهي لصالحه.. إلا أن عينيه كانت تحمِل وهنًا وضعفًا أصعب من

أن تتحمّله «سارة».. أطالت النظر في عينيه فضم شفتيه كأنّما يَمنع نفسه عن الإفصاح: إيه حكايتك؟ همست فأجابها بابتسامة مبتورة حين ناداه المُخبر: يا أستاذ.. اتفضّل.

تركها واقترب من المنضدة، كان خليفة «وليد سلطان» الجديد في العقد الرابِع من العُمر، يشرب قهوته في هدوء مُبالغ، رفيع وسيم خمري البشرة حليق الذقن، يرتدي بذلة رُمادية داكِنة قميصها مفتوح، يضع رجلًا على رِجل متفحصًا الناس حوله بعيون تتصنّع اللامبالاة: اسمك؟

أجابه: «طه».. «طه حسين الزهّار».

رفع الرجل عينيه مُتفحصًا وجه «طه» وهيئته: ساكِن في الدور الكام يا «طه»؟

- التاني.

- بتشتغل إيه؟

- في شركة أدوية.

- إيه اللي في وشّك ده؟

- اتخانِقت مع سوّاق تاكسي امبارح.

- امبارح الساعة كام.

- حوالي الساعة عشرة.. رمقته «سارة» باستغراب.

أردف رئيس المباحث: عملت محضر؟

رفع «طه» رأسه مُستدعيًا إله الإجابة الذي يسكن سقوف فصول الامتحانات: لو كُل واحِد اتخانِق مع سَوّاق على الأجرة عمل محضر.. البلد كُلّها هتبات في القسم.

ابتسم رئيس المباحِث وهو يتابع ملامح «طه» ثم سأل: عندك فِكرة عن اللي حصل؟

– سِمعت زيطة الصبح.

– تِعرف «السيرفيس»؟

– أسمع عنّه.

– فيه زبّال لقى كفّه محطوط في كيس ومرمي النهارده الصُّبح جنب عربية.

تصنّع «طه» أقصى آيات البلاهة.. لم ينبس بكلِمة فتابع الرجل: ما شُفتش أو سِمعت أي حاجة بالليل أو الفجر؟

هز «طه» رأسه نفيًا وسأل: وحضرتك عرفت منين إن دي إيد «السيرفيس»؟

أجابه: عشان دي إيد مفيش زيّها اتنين.

قالها وفتح كراسة.. قرّبها لـ«طه» وناوله قلما: أكتب اسمك وعنوانك ورقم تليفونك وبعدين هملّيك جملة تكتبها لنا.

وضع «طه» حقيبته على الأرض وانحنى ليكتب اسمه حين أخرج رئيس المباحِث من جيب قميصه ورقة صغيرة مَوضوعة في كيس شفّاف.. حين لمحها «طه» ومض شيء في رأسه.. تذكّر فجأة.. رأى

يده المَهزوزة تكتب.. يُطبّق الورقة ويضعها بين الأصابع.. كفّ تنقصه عقلتان.. بأقصى قوّته يقذف.. يتابعها حتّى تلامِس الأرض.. فاق من شروده حين ناداه الضابِط: إيه.. نسيت اسمك؟

ابتسم «طه» وهز رأسه نافيًا ثم أمسك القلم بيده.. التي لا يكتب بها.. أخذ نفسًا وثبّت رسغه وبهدوء كتب اسمه.. جاء الخط باليسرى مُبعجًا يُعاني من دوار بحر.. إلا أنه وفّى الغرض.. لم يشر بالقرابة لخطّه الأصلي.. حين انتهى سأل رئيس المباحِث: حاجة تاني؟ نظر الأخير في الورقة الصغيرة ثم طلب من «طه» أن يكتب وراءه:

غلطة صغيرة نصلّح بيها غلطات أكبر..

وكأنّه يسمعها لأوّل مرّة كتب.. انتهى وناوله الكراسة.. ألقى الرجل عليها نظرة متفحّصة قبل أن يغلق الصفحة: لو افتكرت حاجة تطلع على القسم على طول.

هز «طه» رأسه: أكيد.. ثم استأذن رئيس المباحِث ورجع لـ«سارة» التي بادرته: ما كنتش أعرف إنّك أشول.

افتعل «طه» ضحكة: أنا كمان ما كنتش أعرف.

– صدّقتني لمّا قلت لك الميدان بتدور فيه حاجة غريبة.. أهه «السيرفيس» كمان اتقتل.

– «السيرفيس» اتقطّع.. يعني مش على نظريتك.

نظرت في عينيه ثم أمالت رأسها متمعّنة في مَلامِحه: حاسّة أنّك مبسوط والا متهيأ لي.

داري «طه» ارتباكًا: وأنا أنبسط ليه.. هو كان جوز أمّي!!

– أنت امتى اتخانقت مع سوّاق التاكسي ده؟

– مش فاكر يا «سارة»...

كان ذلك حين رنّ هاتِفه برقم غير مُسجّل.. وضع السمّاعة على أذنه فأتاه صوت: ما اتّفقناش على كِده يا دكتور.

ميّز بسهولة صَوت «وليد سلطان» فاستأذن «سارة» على عجل وخرج من البناية مبتعدًا: غلطة.

صَرخ «وليد»: أنت بتستعبط.. يَعني إيه غلطة.

– يعني غلطة!!.. ما كنتش في وعيي.

– بتتكلّم وأكنّك عارف بتعمِل إيه.

– أنا طالع ألِم هدومي دلوقت.

– لو سبت الشقّة هتشكّك طوب الأرض فيك.. همّا مِستنّيين ده.. واحِد من الميدان يخاف.. يمشي فجأة أو يغيّر رُوتينه.. انزل شغلك عادي وأرجع في مواعيدك الطبيعية.. مش عاوز أسمع أي حركة جِنان مِنّك.. مفهوم؟

رفع «طه» وجهه للسماء: أنا ما بقتش قادِر أقعد في المكان ده.

– صدّقني.. أنت مِش في وضع تتفاوض فيه.. انتهت المكالمة.

وضع «طه» هاتفه في جيبه وأشعل سيجارة.. مشى في خطى واسِعة كمن سَيفوته قِطار.. قادته قدميه إلى الكورنيش.. شاردًا تتصاعد أبخرة عَرَقه على عدسات نظّارته حتّى التقى بـ«البرنسيسة».. مَرسى

صغير يَحتضن ثلاثة مراكِب ذات أشرعة عالية.. نزل بضع درجات تفصله عن المياه.. بالأسفل كانا اثنين.. أحدهما نائِم على كُرسي يشخُّر بصوت عال والآخر كان جالسًا القرفصاء قرب المياه يدخّن الجوزة.. حين لمح «طه» ببذلته وحقيبته قام مُهرولًا يستعيذ في سرّه من البلدية والتأمينات والمحافظة والحي والضرائب: أؤمُر يا باشا.

أجابه «طه»: مَركِب.

– كام ساعة؟ سأله الرجل..

سكت «طه» لثوان تأمّل خلالها الموج الهادئ قبل أن يجيب: تلات ساعات.. أربعة.. أي حاجة.

أجابه الرجُل: أحلى مَركِب للباشا اللي أوّل مرّة يشرّفنا.

ثم صاح في الفراغ: واد يا «عربي».. تعالى طلّع «تيتانيك» للباشمهندِس.

– «تيتانيك»!

بَعد دقائِق دفع «عَربي» «تيتانيك» إلى وَسط المياه.. فتى أسمر نحيل له كلمة مَسموعة على الأشرعة.. فك أسرها فشهقت مُستضيفة الهواء قبل أن تأخُذ طريقها بعدًا عن الشاطئ.. وضع «طه» حقيبته بجانب كنبة مشجّرة وجلس.. بعد دقائِق فتح الفتى الجالِس القرفصاء علبة خشبية تحوي كمّية لا بأس بها من شرائِط الكاسيت.. أخذ يبحث عن ضالته حتّى وجدها.. أغنيّة «اجرح» لـ«طارق الشيخ».. استشف من مَجيء الزبون وحيدًا أنّه يعاني فراق حبيبة ما فأراد تظبيطه صانعًا جوًّا من التطهّر المستكوفي حوله.. ثوان وصَدح

التسجيل العتيق بنواح عقيم: اجرح.. مش هقدر اشكي ولا حتى عيوني تبكي ولا حتى اعتب يووووم عليك.. أغمض «طه» عينيه ثم لوّح للفتى أن شكرًا على الواجِب المتين.. أوقف الأخير الأغنية وأشاح بوجهه للأشرعة فخلع «طه» حذاءه ونظّارته واستلقى على الكنبة متكئًا برأسه على الحقيبة وأطلق عينيه للسحاب حين سأله الفتى: تحِب تلِف في حتّة معينة يا باشا؟

أجابه «طه»: أي حتّة بعيد عن هِنا، ثم أغمض عينيه مع حركة المركِب المُتمايلة..

ينتظِر الاصطدام بجبل الجليد..

* * *

الفصل الواحِد والعشرون

في نفس الليلة..

سيداتي آنساتي سادتي.. في خِتام كلمتي يُسعدني أن أدعو زميلة عزيزة كان لها أثر عظيم في دفع مَجهودات النادي وتأكيد الأهداف اللي كلنا نسعى ليها من خِلال مُشاركتها الفعّالة في خدمة الحياة المجتمعية ودورها الرائِد في تنمية المرأة على جميع المستويات.. نستمع لكلمة السيدة .. «بُشرى صيرة»..

دوى التصفيق حادًّا في قاعة «كليوباترا» بفندق «سَميراميس» قبل أن تتقدّم «بشرى صيرة» إلى المنصّة مخترقة الموائد، تأكلها عيون الحاضرين بفستانِها الأرجواني مفتوح الظهر ومؤخِّرة تستلزِم تأمينًا ضد الحوادِث.. ضرب كعبها العالي الأرض الرخامية في مشية عارضة أزياء متمايلة قبل أن تقف أمام الميكروفون، رفعت خُصلة شعر منسدلة أمام رموش عينيها البارزة وأمسكت الأوراق وبدأت تقرأ بابتسامة كشفت أسنان متناسقة:

– السادة الحضور.. لا أستطيع أن أصف سعادتي بلقائكم اليوم.. فاليوم تتويج لمَجهودات سَنوات في دفع مُشاركة المَرأة في تنمية

المجتمع.. أتذكر حين انضممت إلى الجمعية عام ١٩٨٤ كعضو مؤسس.. أتذكّر مشروعنا الأوّل وكان عن الحد من ظاهرة الدعارة بين الفتيات.. يومها سَألت نفسي.. ما هي أسباب تلك الظاهرة؟ الجهل أم الفقر؟.. على مدار السنوات بدأت الرؤية تتّضِح وينكشِف السبب الأكثر تأثيرًا.. الحرمان.. الكبت.. لا يمكن لأي مُجتمع من المُجتمعات أن يحقق الرقي والتقدم الذي ينشده في الوقت الذي يُعاني فيه أكثر من ثمانين بالمائة من شبابه الانغلاق وعدم الإشباع الجنسي.. مُعطلًا عن المشاركة تعرقله التابوهات الدينية المتطرفة والتقاليد البالية.. اليوم نحن على أعتاب عَصر جديد.. عَصر من الانفتاح والتحرّر.. عصر ينزوي فيه الحرمان حين يَصطدِم بالحرية والمصارحة والأفق الرحِب والفهم الأوسع لمشاكِلنا...

حين رفعت عينيها بين الجملة والجملة لمحته واقفًا في آخِر القاعة.. يَستنِد الباب مبتسمًا بجانب فمه.. سبع دقائق وأنهت كلمتها: ... ووسط مناخ الحرية الذي نعيشه سنعبر نحو غد أكثر تفاهمًا وإشراقا.. شكرًا.

نزلت من المسرح تُحيّي الجمهور بابتسامة عريضة قبل أن تتّخذ طريقها إلى الخارِج.. كان ينفث دخان سِيجارته ناظرًا عبر الزجاج إلى النيل حين وقفت بجانبه.. بدون أن تتكلّم سحبت السيجارة من يده.. سحبت نفسًا ترك أثرا أحمر على الفلتر ثم أرسلته للسقف: مفاجأة!! ما كنتش أتوقّع إنّي أشوفك.

التفت إليها بابتسامة: لسّه بتخدمي المجتمع؟

ضحكت: لسّه فيك حيل تهزّر؟

- عاوزك في موضوع.. خدمة عشان العِشرة الحلوة.

- موضوع إيه؟

- مش هينفع هِنا.

نظرت له بعمق قبل أن تغمِد السيجارة في مِطفأة رملية: أنا مش فاضية؟

أجابها: هستنّاكي لمّا تخلّصي.

تركته ورجعت القاعة لتندمج وسط البذلات الفخمة والفساتين الزاهية، بدأ الحفل بوليمة على شرف المؤتمر، تكفي فضلات طعامها قرية، تلاها تكريم لأبطال مسلسل رمضاني وبعض المطربين، تسلّموا فيه دروع الشرف بوجوه بلاستيكية ومجاملات متكلفة، ثم بدأت فقرة الراقصة الشهيرة «مُهجة» على خلفية مُوسيقية ذابت أنغامها وَسط الضحكات وقرع الكئوس، قبل أن يخِف الضجيج تدريجيًّا وينتهي الحفل، خرجت تبحث بعينيها عنه فلم تجده، تنهّدت واستقلّت المِصعد حيث البهو، مشت إلى سيّارتها «الكريسلر» العالية وفتحت الباب لتجد «وليد» جالسًا بانتظارها، رمقت وجه السائِق في المرآة فهز رأسه مُحاولًا توصيل رسالة فهمتها جيدًا قبل أن يتكلّم «وليد»: عب عظيم راجِل محترم.. صمّم أستنّاكي هنا بدل ما أفضل واقف جنب العربية.

جزّت أسنانها ثم ركبت حين وجّه «وليد» كلامه للسائِق: اطلع بينا على بوّابات الصحراوي يا عب عظيم.

نظر لها الرجل فأجابته بهزّة رأس موافقة.. قرب البوّابات توقّفت السيّارة على الرصيف المواجِه للمَحلات الشهيرة.. أخرج «وليد»

من محفظته خمسين جنيهًا ووضعها في جيب السائق: عب عظيم.. شيّش وظبّط نفسك لغاية ما نندهلك.

نظر الرجل لـ«بُشرى» فوافقته مطمئنة.. نزل تاركًا زجاج السيارة الداكِن يضفي الخصوصية على اللقاء: أخبارك إيه؟

أجابته: على فكرة أنا وافقت آجي معاك هِنا بمزاجي.

- مزاجِك عالي.

- خش في الموضوع.

- سمعتي طبعًا عن قضيّتي؟

- رشوة جنسيّة؟

- إنتي أدرى!

وضعت ساقًا على ساق ورمقته بتعجّب: يعني إيه؟

تأمّلت عيناه وركيها المضيئتين قبل أن يتكلّم: في عرف الحياة أنا هعتبر اللي فات ده تصفيات (business).

- بتتكلّم عن إيه أنا مش فاهمة؟

اقترب مِنها وأحاط خصرها بيده: «بُشرى»!! صدّقيني أنا مش واخِد الموضوع بشكل شخصي، بجد، أنا لمّا حسبتها بالورقة والقلم لقيت إنّ عندك حق في كل اللي عملتيه.

لم تقو على النظر في عينيه مباشرة فتابعت وجهه في مرآة السائق حين أردف: أي حد مطرحك كان هيعمِل كِده، أنا كنت السبب في موت حصان كسبان بالنسبة لك، حصان فاتح لك لينك مع (VIP)

ما يتفاتش، (VIP) كشفت سرّه وقلّيت أدبي عليه وخلّيته يضطر يقتل حبيب القلب اللي بيهنّيه، أقل واجِب تلبسيني تهمة، وطبعًا لازِم تكون جنسية عشان من عندِك، أنا شربتها الصراحة ما اكدبش عليكي، والبت فرس ودايبة ومش طايقة جوزها، وقعت على سناني.

ابتلعت ريقها في عصبية فتابع: أنا مش جاي أبكّتك ولا أهدّدك.. الحركة كانت حلوة.. كنت متوقِّع رد فعل منّك أو من البيه اللي خايف على سمعته.. بس إنتي طلعتي أصيع.. جبتيها من بعيييد.

حاولت التماسك: أنت جايبني هنا عشان تهدّدني بالكلمتين دول.

- خالص.. أنا جاي أفهّمك شويّة نقط غايبة عن دماغِك.. «بُشرى».. من غير زعل أنت في الآخِر عاهرة.. شيك.. بس معرفتك مع الوقت تهدّد.. بالذات لشخصية عامة يهمّها تفضل وساخِتها في الدولاب ما تخرجش.. «هاني برجاس» لو حَسّ بتهديد مش هيتردد يتخلّص منّه.. ومتهيأ لي ده كان واضِح مع «كريم».. المرّة الجاية الدور هيكون عليكي.. ده راجِل بيبني نجاحه على سمعته.. واحدة زيّك تشبهه.

تابع ملامِحها التي تشرد.. عينيها تزيغ وحدقتيها تتّسعان فتابع تحليله: وجودِك مرهون بغلطة.. مسألة وقت.. بس كِده كِده رايحة.. الغلطات مش صعبة.. بالذات في المواضيع النِجسة دي.. خبر في جرنال عن موتك مش هياخُد أكتر من خمس أسطر.. كُل اللي إنتي فيه ده مش هيساوي حاجة.. ها.. لسّه مصرّة إنّ أنا اللي بهدِّدك؟

- عاوز توصل لإيه؟

– مش عاوز أكون سبب في موت حد تاني.. خلّي مصلحتنا واحدة.

نظرت له في حيرة فأردف: لسّه ليكي شغل مع «ابن برجاس»؟

– وافرض.

اقترب مِن أنفاسها: الاتفاق كالآتي.. هتجاوبيني على شوية أسئلة.. وقصاد ده أوعدك تفضلي بعيدة.

جحظت عيناها في شرود.. صمت ليسمح لكلماته بترك العلامات على ظهرها.. أخذت تنقر بأظافِرها طرف الزجاج.. أشعلت سيجارة ثم أطفأتها و التفتت إلى «وليد»: عاوز تِعرف إيه؟

ابتسم لها: عُمرك ما خيّبتي ظنّي.

* * *

بعد أربعة أيّام..

كان الميدان قد هدأ وبدأت الألسنة في صِياغة البيانات حول الأصابِع الأربعة والورقة: تسليط أبدان على أبدان.. في داهية خلّي الميدان ينضف.. تسلم إيد اللي قطع إيده ده كان ابن وِسخة.. شعور عام بالارتياح ووجود أمني وترقّب في الوجوه.

في شركة الأدوية بات «طه» شبحًا يتحرّك، استعاض عن هبوط أدائه في المبيعات بحرق كمية من البضاعة (بيعها للمخازن الخاصة) لم يجرؤ رئيسه المباشِر على لفت نظره للحالة التي وصل إليها، مَظهره كان أشرس من أن يُنصَح، تجهّمه ومِزاجه الحاد وجروحه مَجهولة المصدر أضفت عليه نوعا من الرهبة، حتّى الأطباء الذين يتعاملون

معه باتوا يتزلفون له بمجرّد أن يَدخُل عليهِم، كان كالمحكوم عليه بالإعدام، لا شيء لديه ليخسره، حتّى «سارة» تجنّبها منذ غرس «وليد سلطان» تلك الفحمة الملتهبة في جوفه، فحمة شك بثّت سخونتها وأبخرتها الحارقة رغم ما يتجرّعه مِن الأقراص المُخدّرة التي باتت جزءًا منه، ومع ذلك لم تبرح خياله، تطارده كأنّها مربوطة إلى جفونه يراها حين يصحو وقبل أن ينام إذا نام، حتّى انتظرها يومًا أمام الجريدة بوسط البلد، جرفته الأفكار كجِذع شجرة في قلب نهر ثائِر وهو يراقِب باب المبنى، تذكّر أمّه، شيئًا ما بداخِله بدأ يغلي، يلِحّ عليه، لِم لم تنتظِر؟ لِم لم تتحمّل؟ يَصرُخ فيه، لقد فضّلت نِصفها التحتاني عليك!! انتشلته «سارة» من أفكاره حين خرجت، كان ينتظِرها على مَسافة بعيدة نِسبيًّا تسمح له برؤيتها، وربّما مُراقبتها، كانت تتحدّث في تليفونها مُسرعة الخُطى، همّ بالاقتراب لكن شيئًا منعه، بخطوات باردة تابعها حتّى وصلت لشارِع «هُدي شعراوي»، عِمارة عتيقة ذات قباب قريبة مِن بنك (CIB)، دلفت المدخل ثم المصعد الذي حملها إلى أعلى، لم يُدرِك «طه» ما ينبغي فِعله، الشيطان كان على حق، دقائِق ثقيلة مرّت قبل أن يدخُل وراءها حين برز له بوّاب من حيث لا يدري: أؤمُر يا أستاذ.

– دكتور.. أحمد.

– أحمد إيه؟

– بحث بعينيه عن يافطة نحاسية حتّى وجد: دكتور أحمد مهنّى أخصّائي...

– الدور الأوّل.. على اليمين.

ابتسم «طه» ودلف المصعد حين قال البوّاب: لا يا باشمهندس اطلع على رجلك.. الأسانسير ما بيطلعش الأوّل.

كانت البناية من ستّة طوابق.. لم يكُن مِن السّهل مَعرفة أي شقّة تُخفيها، ظل تائهًا حتّى انفتح باب بجانبه وخرجت مِنه سيدة مُسنّة رمقته بنظرة أشعرته بالحرج، أزكتها هيئته التي تبعث على الشك من دون بذل أدنى مجهود، فنزل السلّم وخرج للشارِع مُستسلمًا للانتظار.

مرّ الوقت عليه كعجلات سيارة نقل بطيئة، شعر بالجوع فتناول سندوتش كِبدة من عربة يعافها التيتانوس، ثم نظر في سَاعته فوجد عقربها الأصغر قد دار مرّتين حين لاحت أمام الباب، لم تكُن وحدها، كان بجانبها شاب غريب يرتدي (T-Shirt) أسود يطوّق يده بثلاث حظّاظات ومَغروز في حاجبه حلق صغير ويحمِل حقيبة ظهر مهترئة، حين لمحهما «طه» اختبأ حتّى أخذا اتجاه شارِع «قصر النيل»، مَشى وَراءهما إلى فندق «أوديون» بجانب السِّينما التي تحمِل نفس الاسم قبل أن يدلفا البناية ذات الثلاثة نجوم، انتظر لحظات ثم تبعهما، كان البهو خاليًا إلا مِن رَجل سَمين يَجلس على مقعد، حيّاه «طه» وتلفّت حوله بحثًا حتى لمح عدّاد المِصعد الذي يشير للدور العاشر، ضغط الزِّر فنزل الصندوق الخشبي ضيقا مَكتوما تفوح مِنه رائحة كريهة مركّزة، يبدو أن شخصًا ما ضل طريق المبولة، كتم أنفاسه وضغط الزر حتّى خرج، كانت الإضاءة خافتة، ديكورات طراز السبعينيات، شباب منزلِق في كراسيه يهمس وصوت «منير» يصدح.. «مِشيت وياكي للآخر، أتارى أولك آخر، عنيكى خدتنى للحلم اللي مابيكملش».. بحث بعينيه بين الوجوه حتّى وجدها في الجزء الخارجي المُطل

على الشارِع، تحت شمسية مُلاصقة للسور تحمِل علامة «ستلا»، مُشعِلة سِيجارة ضاغِطة نهديها في المِنضَدة مُنصِتة لحديث بدا باسمًا، انسابت أرجُل «طه» خلفها: مساء الخير.. ترابيزة لوحدك؟

كان ذلك نادلًا بدينًا رغب في تسكين «طه» الذي أشار بيده إلى مِنضَدة خلف ظهرها: مُمكِن هِنا؟

- اتفضّل.. تشرب إيه؟

كان يبدو من كوكب آخر وسط الموجودين ببذلته وحقيبته التي احتضنها بين قدميه: أي حاجة.. عصير.

بَدت «سارة» مُنهمِكة في الإنصات للحديث، تلف خُصلات شَعرها حول أصابِعها وتهِز قدمها، تضحك قبل أن تضرِب كفّها بكف رفيقها، لرُبع الساعة ظل يرمقهما وأمامه كوب ليمونه الذي أسن حتّى قامت فجأة: هاروح التواليت.

وقفت، فرجع «طه» بكرسيه بغتة للخلف فتعثّر ثُم مال وسَقط مُصدرًا ضجّة جعلت الرؤوس تلتفت تجاهه كعبّاد شمس قد فُزِع.. وأول الرؤوس كانت «سارة»، قام ينفض بذلته مُلملمًا شظايا كرامته وسط الضحكات المكتومة ينهمر العرق على جبهته.. اقتربت مِنه: «طه».. أنت قاعد هنا من امتى؟

مَسح على رأسه مُحدِّقًا في عينيها: مِن شوية.

بدا عليها الارتباك: وإيه اللي جابك هِنا؟!

سَحب حقيبته ودس يده في جيبه مُخرِجًا مَحفظته.. ترك عشر جنيهات على المِنضَدة قبل أن يرحل: ولا حاجة.

قالها وخرج.. ركضت وراءه حتّى المِصعد: مُمكِن دقيقة؟

التفت إليها ضاغِطًا على شفتيه في ابتسامة مُصطنعة: عارفة؟

- إيه يا «طه»؟

قاطعهما «مُنير»: «أيوه أنا مليت.. من كتر ما ستنيت.. وتعبت لما داريت إحساسي بعنيكي»...

نظر «طه» للسمّاعات المُعلّقة، وابتسم ثم دلف المِصعد النتِن.

في المساء كان قد أنهى آخِر جولاته في العِيادات، تلقّى خلالها عشرين اتصالا مِنها ولم يجِب، توجّه للبيت واستسلم لحمّام بارِد حاول به الحصول على بعض الاسترخاء حين دق جرس الباب، خرج بمنشفة حجبت نِصفه السفلي واقترب من الباب يَحمِل في يمينه نبّوت بلدي اشتراه من بائِع متجوّل بعد الزيارة الأخيرة، نظر في العين السِّحرية فرآها منتظِرة تهتز في عصبية، تردّد لحظات قبل أن يفتح لها الباب: نعم؟

- ما بتردِّش عليّا ليه؟ قالتها ودفعت الباب براحتها: «ياسِر» هِنا؟

- لأ.

دلفت وألقت حقيبتها على المِنضَدة ثم ارتمت على الكنبة المتهتّكة.. مدّت يدها وخلعت حذاءها ثُم ثنت ساقها اليمنى تحتها في استرخاء: كنت بتستحمّى؟

- إنتي عايزة إيه؟

أشعلت سيجارة: مُمكِن نتكلِّم؟

- اتفضّلي.. قولي.

- ممكِن تقعد جنبي.

زفر «طه» في حنق: أنا هِنا كويّس.

- ما تبقاش قافِش كِده.

يئس مِن إلحاحها: هلبِس هدومي وآجي.

دخل غُرفته.. قلّب بعض الكراكيب حتّى عثر على مَلابِس مَكوية، أزاح فوطته ورفع البنطلون إلى خصره حين شعر بذلك الهفيف بجانِب أذنه فانتفض، سحب بنطلونه والتف ناحيتها!!!

لم تتكلّم.. اقتحمته.. توغّلت في مياهه الإقليمية وألقت مرساة.. نظرت في عينيه فهرب: يا «طه» أنت فاهِم غلط، ده مُجرّد صديق مِش أكتر، وبعدين أنت محسّسني ليه إنّي كُنت معاه في شقة؟

- شقّة «هُدى شعراوي»؟

ابتسمت «سارة»: أنت بتراقبني؟

- ما تهربيش من السؤال.

- قلت لي أنت مولود سنة كام؟

أزاح يدها.

- أصل اللي يشوفك بتتكلِّم كِده يحِس إن عندك ستّين سنة.

أشاح بوجهه عنها باحثًا عن شيء يرتديه حين لمحت ظهره الذي يقطعه خط متعرِّج مِن الغُرز.. اقتربت مِنه برفق ومشت بأنامِلها تتحسّس فتوقّف عن البحث والتفت حين قالت: فيه شقّة في الدور

التاني عاملينها مقر مؤقت للحركة بنتقابل فيه.. شلة الجُرنال على شوية أصحاب من التكعيبة و(After Eight).. كتّاب وصَحفيين.. بتتكلِّم في السياسة والبلد وحكايات تانية.. وعندنا مُظاهرة بعد كام يوم في التحرير عشان فلسطين.. إذا حبّيت تيجي.

ظل «طه» يرمقها بلا كلمة فأردفت: قلت لك مِن زمان أفكاري مِش الكُل بيستوعِبها.

– ده على أساس إنّها أفكار أعلى من المستوى!!

– من غير تريقة.. أنا عارفة إن ده بيزعّل مِني البشر كُلّها، بس أعمِل إيه، أنا رافضة حاجات كتير أوي في مُجتمعنا بس ساكتة عشان مش هحارب جوة البيت وبرّه وشكلها هتبقى مَعاك كمان، لازِم تتغيّر، كُل زمن وليه ظروفه، اختلاف أفكارنا...

قاطعها «طه»: اختلاف؟ إنتي بتنزِلي مُظاهرات وبتشربي حشيش وبيرة وبتسهري للصبح.. لأ والكوميديا محجّبة!!

– ونزولي المُظاهرات من ضمن الحاجات اللي تخلّيني (Prostitute) طبعًا.

– أنا ما قلتش كِده.. أنا عاوز أقول لك إنّك بتناقضي نفسك.

– شايفاها في عينيك.. لعلمك نُص أفلام السِّكس على الموبايلات بتبدأ بمنقّبات.. ده اسمه دين ده؟

– وده يخلّي منّك ست الشيخة؟!

– على الأقل أنا صَريحة.. لهو أنت يعني ما بتشربش سجاير؟ ما شربتش حشيش؟ قولي.. لو نِمت مَعاك دلوقتي مين فينا هيبقى

غلطان؟ طبعًا أنت النِمس بين أصحابك وأنا الـ...

– البنت عُمرها ما هتبقى زي الولد يا سُعاد يا حسني.

– في المُجتمعات الشرقية بس.. وعارِف فين بالظبط.. في راسك دي..

قالتها وأشارت بسبّابتها إلى رأسه.. فأمسك رسغها بقوة: دلوقتي أنا اللي متخلِّف!! إنتي ناسية نفسك.. فوقي.. إنتي عايشة كِدبة كبيرة أوي.. الحياة اللي إنتي عايشاها دي مش هي اللي هتصلّح البلد.. مش هي هتحرّر فلسطين؟

– آه صح.. الحياة اللي أنت عايشها.. القفص اللي حاطِط نفسك فيه.. هو من إمتى الحريّة بقت حرام.

– بتسمّي دي حُرِّية!!

– مِش أحسن ما أكون حياتي مقفولة ومَفيش هدف.. على الأقل بأعمِل حاجة.

– وإنتي مؤمِنة إن العيل أبو حلقان ده هو اللي هيعمِل حاجة!!

رمقته بنظرة حادة: دي حرية شخصية.. وبعدين «إبراهيم» بغض النظر عن شكله شخص مُجتهد وعنده قضية.. إحنا بنعترض عشان نصلّح.. بنصرخ عشان نغيّر.. مش مهم الشكل.. إحنا في يوم جمعنا سبعتاشر ألف توقيع عشان...

قاطعها: كلام فاضي.. اللي زي سيادته وسيادتك بيرفّسوا.. بيهزوا.. بيعضّوا في حيطة أسمنت.. مش دريان بالناس المَكفيين

على وشهم زي الجاموسة الحامِل مش فايقين يهرشوا.. دول طبعًا اللي بتسمِّي حياتهم مقفولة ومن غير هدف.. لكن إنتي بقى من طبقة المثقفين.. اللي همّا نفس العيال الجربانة اللي ما بتستحمّاش ومهيّشين شعرهم ولابسين حظّاظات واللي فاهمين كل حاجة.. سهرات ودخّان وشرب وحقوق إنسان ومُحاربة فساد على شوية قضية فلسطين.. تفّي على قبري لو واحِد فيهم عمل حاجة.. الوقت ده مش وقت كلام.. العيال دي آخِرها تبص عليكي وإنتي ماشية قدّامهم.

ابتسمت «سارة» ونظرت للأرض ثم في عينيه: عارِف إيه اللي شدّني ليك؟ أنّك واقِف على رجليك لغاية دلوقتي.. (survivor).. ما كنتش مِصدّقة إن واحِد يشوف اللي شفته ويفضل يتنفِّس.. وهي دي برضه الحاجة اللي هتخلّيني أستحمِل كلامك.. بس عاوزاك تفتِكِر حاجة.. وجِّه غضبك للمكان الصح.

تركها وابتعد شاردًا إلى النافذة: بتحبّني يا «طه»؟

كان السُّؤال مُباغتًا كضربة سَوط سوداني على وَجه.

هز أكتافه: وافرضي؟

نقعت السَّوط في زيت وملأته عُقدًا: عَارف إنت مشكلتك إيه؟.. إنّك مِش عارِف إنت عاوز إيه.. حتّى كِلمة بحبك مِش خارجة مِنّك.. بتخاف منها يا بُرج الدلو.. بتخاف حد يشوف مشاعرك.. شوف بقالنا قد إيه مع بعض وعُمرك ما قلت اللي جوّاك.. مع أنّه طافح في عينيك.. بتخاف حتّى من نفسك.. عاوزني أفضل قريبة.. بس مش قريبة أوي.

ظل يَرمقها تقرأ روحه قبل أن يرجِع بظهره إلى الحائِط ويَستند..

اقتربت مِنه ببطء ونظرت في عينيه: اللي بيحب حد يحبّه زي ما هو يا «طه».

- إنتي مش فاهمة حاجة.

- فهّمني.. قول لي أنت مين؟!

لم يعقّب فأردفت: مش بقولك!!

هربت عيناه إلى الحائِط المُواجِه.. كانت هُناك صورة صغيرة في إطار بائِد.. صورة لأبيه يَحمِله في حديقة مَجهولة.. يضحكان كأن الدنيا لهما.. ترقرقت عيناه فأغمضهما في صمت.. حتّى رحلت حين أدركت أنّها لن تجد لديه إجابة.

لِنصف ساعة ظل جالسًا غير قادِر على الاستيعاب.. كلماتها تطرق رأسه بلا توقّف.. وسؤال ينهشه بصوت مسموع.. من أنا؟ للحظة شعر أنّه نسي.. نظر لوجه في المرآة لم يتبيّنه.. ابتلع قرص صُداع وأطفأ نور الغُرفة لوقت غير معلوم فقد فيه الإحساس بالزمن حتّى ومض تليفونه برقم «ياسر»:

- لمّيت هدومك؟

- مش هينفع أمشي.

- ليه؟!!

- قفلت زي الدومانا.

- أودتين و«سارة» وعفشة ميّة؟

مَدّ «طه» يده إلى عقب سيجارة يحمل بصمات روج: لأ.

كان عليه أن يحكي مكالمة «وليد سلطان» قبل أن يجيبه «ياسِر»: بُص.. ورق أبوك ده يلبِسه ولا ليه لازمة.. المحكمة ما تاخُدش بالصور.. كُل ده شفوي.. العملي إنه يقدر فعلًا يأذيك.. رئيس مباحِث برّه الخِدمة يعني ألعن مِن «السيرفيس» ذات نفسه.. مفيش غير أنّك تسافِر قبل ما الريحة تفوح.. عندك باسبور؟

- مش هسافِر.

- إيه يا سِت «شيرين».. «ما شربتش من نيلها».. والجو ده!! تأشيرة وتِخلع من المخروبة دي.. والله أنا لو كان عندي شهادة عِدلة إن شالله صيدلة السِّنغال كُنت كتّيت من زمان.

- مش هفضل عايش وأنا عارِف إن اللي قتل أبويا حُر.

- واضِح إن مش «وليد سلطان» هو اللي عاوزك تقعد.. أنت اللي عاوز تكمِّل للآخِر.. مش شفِيت غِلّك في «السيرفيس»؟! إيه!! هتقتل البلد كُلّها؟!

سكت «طه» حتّى أنهى «ياسر» المكالمة: أنت حُر يا «طه».

* * *

الفصل الثاني والعشرون

تأخذ خِدمة توصيل صُباع حَشيش من «صُبحي» حَوالي نِصف السَّاعة ليَصِل إلى شارِع «هُدى شعراوي»، يَقرع المندوب الجرس ويُسلّم الأمانة إلى أهلها ويَرحل في سَلام، البرتيتة كانت مُسترخية في دائِرة على الكنبات المهترئة، صُور تجريدية ومقالات مقطوعة من الجرائد فوق جدران متّسخة بالبصمات، أوراق وكتب متناثرة وبقايا وجبة سَمك وزجاجات ستلا فارغة، الجو كان مَكتومًا لأقصى حَد، لا تكد تنقشع سَحابة الدخّان حتّى تبدأ فعاليات لفّ جديدة، أربعة شباب وثلاث فتيات، «سارة» إحداهن، جَلست إلى الحائِط مُربّعة سَاقيها تجادِل شابًّا خمريًّا يواجِهها حين أتاها نصيبها، قرطاس مبروم بحرفة، سَحبت منه نفسًا عميقًا قبل أن تتكلّم: أنا شايفة أنّها رواية هايفة جدًّا.

- عشان مش فاهماها.. قالها الشاب مُستفزًا «سارة» التي تحفّزت:

- مش فاهمة إيه؟ الرواية أنا بلّعتها بميّة عشان أكتِب عنها مقال.. يا ابني ده كاتِب عنده كبت جِنسي.. باين في كتابته.. بين كُل فصل

وفصل جنس مَحشور حشر.. والشذوذ عنده عادي.. ده غير إن مفيش أسلوب أصلًا.

قاطعها الشاب: إنتي عاوزة رقابة على الإبداع.

- بُص.. أنا ضِد الرقابة من أي نوع.. ومعنديش مشكلة أكتِب في الجنس وأنت عارف.. بس ده فيلم سِكس يا «هيثم» مش رواية.. ده عامِل فصل كامِل عن العادة السرية وفصل تاني عن واحدة شغّالة مع نفسها.. إيه ده؟

- طب ما «باولو كويلهو» في إحدى عشرة دقيقة...

قاطعته: استنّى، استنّى، استنّى، أنت بتقارن مين بمين؟! يا بابا الجنس عند «باولو كويلهو» موظّف.. البطلة اضطرّت تشتغل عاهرة وبتكشف عوالم مختلفة من خلال تجربة.. وفي الآخر فيه معنى.. التاني ممكن يغيّر العنوان لأحسن عشر طرق لممارسة العادة السريّة.. فيه عيال في ثانوية عامة بييجوا يشتروا الرواية بالاسم ولو مش موجودة بيسألوا إذا كان فيه حاجة زيّها.. مش بييجوا يسألوا على «باولو كويلهو»!!

- أنا رأيي إن الكاتب بمنتهى البساطة حاول يكسر التابوهات اللي إحنا عايشينها.. الكبت.. وبعدين هو اللي قاله ما بيحصلش؟

- وهو كل حاجة بتحصل نكتبها.. وبعدين كبت إيه؟ الشارع كُلّه هَيَجان.

«هيثم» بسخرية: باين الحجاب قفل على دماغِك.. ما تتنقّبي أحسن.. الهيجان ده يا ماما عشان العيب والكِخ والحرام.. لو كُل

حاجة بقت متاحة مش هيكون فيه كبت ولا حرمان.. زي الـ(Open) بوفيه والناس شبعانة.. كُل واحِد ينأنأ ومفيش خناق على حاجة.

- على كِده لو اشتغلت في مطعم هتبطّل تأكل؟ الجوع جوع.. ولسّه التحرش والاغتصاب برّه أكتر من هِنا رغم الإنفتاح.

- دي حالات شاذّة.

- يعني أنت رأيك إن التناول المفضوح في الرواية دي إبداع؟

- طبعًا.. وحقق تأثير معيّن أنا حسّيته.. وبعدين مش المفروض الكاتب يكتب عشان يصلّح مُجتمع.. لو فكّرتي بالشكل ده أحسن لك تكتبي موضوع إرشادي في مدرسة.. الرواية حرّة.. إبداع غير مقيّد برسالة.. إفراز...

قاطعته: إفراز.. بطّيخ.. برضو أنا شايفة إن ده كاتب تعبان وعامل «بورنو» غير موظّف.. ولو عمل ندوة يوم الأربع هقول له الكلام ده قدّامكم.

- وكتبتي عنها ليه لمّا هي مش عاجباكي؟

- عشان مُدير التحرير طلبها بالاسم.. الكاتب صاحبه يا سيدي.

- عشان كِده نقلتي لصَفحة المُجتمع.

- لأ.. قلت بس أغيّر مود.. أنزل الشارع شوية.. بغطّي نقابات ومجتمع.. تحقيقات وجرايم.. كِده.

- أوعي تغطّي بعد كِده وفيات.

- أضحكتني.. هاهاهاها..

تدخّل «إبراهيم» الذي كان يجلس في الركن صامتًا: أنا من رأي «سارة»، شايف إن الكاتب زوّدها فعلًا، ومش عارف أنت ليه متحمس أوي كِده، واضِح إن المود ده بيعجبك..

احمر وجه «هيثم» وهم بالبحث عن رد حين قاطعه رنين هاتف «سارة».. بحثت في حقيبتها وقرأت الأرقام قبل أن تقوم تستند إلى الحائِط مُبتعدة حين اختلس الشباب مُؤخّرتها من البنطلون الساقِط.. دخلت المطبخ وأجابت: صباح الخير يا باشمهندسة «سارة».

بصوت خافت أجابت: صَباح الفُل يا «رضا».. إيه الأخبار.

- جبت لك التقارير الطبية وشهادات الوفاة اللي طلبتيها.

- «مَحروس برجاس»؟ تقدر تقرأ لي مَكتوب فيهم إيه؟

- لا دي كُلّها موستلحات تبّية.. ده أنا طِلع عيني والله عشان...

أدركت «سارة» ما يرمي إليه: هظبّطك لمّا آجي.. أقدر أعدّي عليك النهارده.

- هستنّاكي.

- شكرًا يا «رضا».

رَجعت لجلستها شاردة وسط الدخّان، سقط بجانبها رماد سِيجارتها بدون أن تسحب نفسًا واحِدًا، حاول أحد اللزجين جذب أطراف الحديث ثانيًا عن الجنس في الرواية حين قامت فجأة وكأن عقربًا لسعها ورحلت قبل أن يَستوقِفها «إبراهيم»: رايحة فين أقعدي شوية.

- عندي مشوار تبع الجرنال.

أمسك يدها واستطرد في همس: مالِك مش عاجباني؟

- مفيش يا «إبراهيم».. عندي بس شغل.

- هتيجي «الجريون» بالليل.

- أكيد.. لو خلّصت بدري.

- نازلة المظاهرة؟

- (Sure)..

- خلّيكي دايمًا جنبي عشان لو حصل حاجة أعرف أخلّصك.. إنتي وراكي رجّالة.

هزّت رأسها متعجِّلة: أوكيه.

تركته واستقلّت تاكسيًا إلى مكتب الصحّة.. انتظرت حتّى خرج لها الرجل من غرفة السِّجلات.. رحّب بها وناولها ملفًّا مغلقًا في ظرف حين كرمشت هي ثلاثين جنيهًا ودسّتها في راحته: خلّيهُم خمسين يا دكتورة.

قطبت جبينها: ليه يا «رضا»؟! ما إحنا متّفقين.

- والله الملف ده بالذات أنا جايبه بطلوع الروح.. ورحت صوّرته مُستندات في الدور الأخراني.

- خلاص يا «رضا» قالتها وأخرجت من حقيبتها عشرين جنيهًا حين لمع ذلك الوميض في عقلها: استنّى.. أنا عاوزة حاجة كمان.. فيه واحِد عاوزة أتأكّد بس من الملف بتاعه.

- مُستشفى إيه واسمه.

نظرت للسقف مُستجمعة ذاكِرتها قبل أن تجيبه: «عادل بكر».. شهرته «السيرفيس».. كان في مُستشفى القوات المُسلحة في العجوزة من حوالي يمكن شهر.

أجابها: أشوفهولك.. بس ده مش تبع العشرين جنيه.

- قصّر يا «رضا».. الشغل لسّه جاي كتير.. أنا عاوزاه دلوقتي.

غاب «رضا» عشر دقائق قبل أن يَعود بملف.. ناوله لسارة وطمع في عشر جنيهات إضافية قبل أن ترحل.

* * *

في تِلك اللحظة كان «طه» يتّخِذ طريقه إلى ميدان لبنان.. انتظر قليلًا قبل أن تقترب السيّارة.. أنزل «وليد سلطان» الزجاج وأشار له أن يركِب قبل أن ينطلقا.. ظلا صامتين لعشر دقائق كاد عدّاد السرعة فيها أن يُتم دورة ثانية قبل أن يتوقّف في بقعة مظلمة بجوار بعض الأشجار.. أطفأ الأنوار فباتت السيّارة كتلة من العتمة.. التفت لـ«طه».. نظر في وجهه لثوان وابتسم قبل أن يكوّر قبضته ويقذفها.. لكمة ملاكِم عتيد أطاحت بذقنه فارتطمت مؤخرة رأسه بالزجاج قبل أن تطير النظّارة إلى التابلوه وتنغرس قواطِع أسنانه العلوية بشفته لتنفجِر الدماء ملوّثة القميص.. طنين النحل انطلق في رأسه.. تأوّه بشدّة ورفع يديه بعد فوات الأوان حين اعتدل «وليد سلطان» في جلسته وسَحب منديلًا ورقيًا مَسح به قبضته في هدوء قبل أن يسحب واحد آخر ويناوله لـ«طه» الذي رمقه بنظرة حادة ثم أطاح بيده وشرع يصيح حين أسكته «وليد»: دي عشان إيد «السيرفيس».

سَكت «طه» وتحسّس شفتيه مُحاولًا إيقاف النزيف ثم وضع نظّارته على عينيه حين ضغط «وليد» زر الكاسيت.. «البرنامِج العام» كان يذيع أنغامًا كاريبية.. قرع الطبول كان هادرًا.. تضاعف الألم بداخِله كضربات الرعد حين أردف «وليد»: فيه طريقتين تنهي بيهم اللي أنت فيه.. يا تخلّيك راجل.. على الأقل قدّام أبوك.. يا تنخ زي النسوان.. صدّقني الطريق الأولاني هيكون أسهل.. عندك استعداد تسمع؟

رمقه «طه» بنظرة اشمئزاز فأكمل «وليد»: هعتبر دي موافقة.. بُكرة بالتحديد لازِم يكون «هاني برجاس» فعل ماضي.

- !!!!

قاطع «وليد» علامات استفهامه: انسى التراب.. التراب ده تخلّيهولك.. حاجة تفكّرك بأبوك.. الراجِل الجدع اللي كان بياخُد حقّه بإيده.. بهدوء.

زاده قرع الطبول جنون: مش فاهِم!!

أشعل «وليد» سيجارة وسَحب نفسًا ثم أردف: بُكرة «هاني برجاس» على معاد مع الواد بتاعه.. واد اسمه «أمير» أنت تعرفه.. مَطرود من مطاريد ستار ٢٠٠٨.

ومضت لحظة الاستبعاد من مُسابقة الغناء في رأس «طه».. تذكّر ملامِحه قبل أن يكمل «وليد»: بيقابله في «الفورسيزون» بتاع شارع «مراد».. بُكرة مش «أمير» اللي هيقابله.. أنت اللي هتروح.

سَكت «طه» ليستوعب ثقلًا ألمّ برئتيه.. تعالت الطرقات وهو يحاول تمالك نفسه: وأنت هتكون فين؟

– ما ينفعش أظهر في الصورة.. ده شرطي الوحيد.

– يعني إيه؟ أنا ما أقدرش أعمِل ده لوحدي...

قاطعه «وليد»: أنا راسِم لك كُل حاجة.

– مفيش جريمة كاملة.

– الكلام ده في الكُتب بس.. أنت فكرك كُل الجَرايم اللي بتقراها في الجرايد دي بنلاقي لها حل.. يا حبيبي لو حَصلت عشرين قضية سرقة عربية بيشيلها أوّل واحِد يتقبض عليه.. قضيّة قتل لو طوّلت نبعت أمين على البيت يجيب فانلتين لأقرب مشتبه مَحجوز ويلبسها...

– واشمعنى قضيتي أنا.. ما «السيرفيس» كان عنده دافع.

– و«برجاس» طلّعه زي الشعرة من العجين.

جز «طه» على أسنانه: اشرح.

– أنا هوفّر لك وصول للهدف وخروج نضيف ما يخرّش الميّه.. امسك.. قالها وأخرج من سترته كارت أبيض يحمِل شعار الفندق وناوله إيّاه ثم أردف: أنا عازمك على ليلة في «الفورسيزون».. يوم مجّاني مع الحيتان اللي عمرك ما بتشوفهم.. غرفة في الدور العشرين بتطل على الأهرامات.. إيه رأيك؟

– كَمِّل.

– ده الكارت بتاع الباب.. مش هتعرف تطلع بالأسانسير من غيره.. غرفة ٢٠١٦ في الدور العشرين.. «هاني برجاس» هيكون جنبك في ٢٠١٧.. وتحت درج الكومودينو هيكون ده مستنّيك كان

يشير للصاعِق الكهربي الموضوع تحت ناقل السرعات: بلكونات الأوض بيفصلها قاطوع خشب سهل تعدّيه لو ما بصّتش تحت.

قالها وفتح تابلوه السيارة وأخرج زجاجة صغيرة تحتوي على بودرة بيضاء: ده مش تراب من بتاعك.. ده ترابي أنا.. عارف الرخامة الصغيرة الموجودة في طرف بوچيه العربية.. حرامي العربيات يطحنها ويرشها على الإزاز.. يسرطن في ثواني.. ده هيفتح لك باب البلكونة.. كِده أنت بقيت جوّة.. تخلّص وترجع زي ما جيت.. تلم حاجتك وتنزل بهدوء وشكرًا.

– أخلّص..!! إزاي؟

أردف «وليد»: دي أنا هسيبها لك.. يا ريت تكون طريقة شيك.. الصيدلي زي الساحر.. أكيد نيه مفاجآت في جرابه.

كانت سَاحر هي الكلمة المنطقية الوحيدة في تلك الليلة.

شرح «وليد» بقيّة خطّته بالتفصيل ودون أن يترك ثغرة للخطأ، خلاصة سنين من الخبرة والاحتكاك اكتسب فيها من اللصوص والقتلة ما لن يدرّس في الأكاديميات، قبل أن يفترقا على اتصال لتلقي الأمر، أمر الإعدام.

جلس «طه» ليلته في السرير، يضم إلى صدره قدمين وجرح جديد إلى جروحه التي لا تنوي الاندمال، ينتزعه الألم من غياهِب الحِلم كطرقات مِعول تهشّم جفنيه لتحيلهما ترابًا، يدور كالثور في الشقة يبعثر رماد سَجائره، يعض أنامله حتّى تنفجر دمًا، يتجرّع أقراص اتّزانه وصُداعه وأشياء أخرى بلا ماء، مُسكنات ومُهدّئات لن تجدي أمام هذا الكم من الجنون، يرمق تلك الصُورة التي تتوسّط الصالة،

تلك العيون التي تخترقه من داخِل البرواز، عيون أبيه، تتابعه أينما ذهب، تراه في كُل زاوية، حتّى عِندما يطفئ الأنوار، اقترب مِنها ببطء يتحسّس تلك الابتسامة الساخرة، أمسك الإطار وأدار الوجه للحائِط حين شعر بجلده يحترق، خلع قميصه وفانلته الداخلية قبل أن يدخل غرفته ويسحب عصيّه ليبدأ قرع طبوله، أغمض عينيه وانساب في إيقاع مُدَو أصدر الزجاج له أزيزًا، يفكِر في واجبه المدرسي، امتحان الغد الذي يحمل من أجله برشامة، ضمانته الوحيدة للنجاح قبل النتيجة التي لن ينتظِرها، كان ذلك حين رن جرس الباب فأسكت أفكاره وضرباته، رن ثانيًا فاقترب من الباب ينظر في العدسة، كانت «سارة»، حين همّت بضرب الجرس لثالث مرّة فتح: أنت لوحدك؟

بعيون زائغة هز رأسه إيجابًا.

– هنتكلِّم على الباب؟

أفسح لها فدخلت.. جلست في أقرب كرسي: «طه» أنا عرفت النهارده حاجة وعاوزة أتأكِّد مِنها.

لم يعقِّب فاقتربت مِنه تتفحّص مَلامِحه:

– أنا مش هسألك عن نفسك.. مش هتدخّل في حياتك.. أنا حبّيت بس أقول لك إن أنا جِبت بالصدفة تقرير طبي عن «السيرفيس» وعرفت إنّه كان عيّان بنفس العرض اللي مات بيه كُل اللي قبله.

– وده يخصّني في إيه؟

– «طه» أنت قبل ما يلاقوا إيده بيوم كُنت متخانِق.. ومش مع سوّاق تاكسي زي ما قلت قدّام الظابط.. أنت كنت معايا في العيادة.

ابتسم وبدون أن ينظُر لها: يبقى أكيد أنا اللي قتلته.

– ويومها كانت الشقة مكركبة وفيه هدوم غريبة و...

قاطعها: بعد ما سبتك نزلت مشوار بتاكسي.. فيها حاجة دي؟ الشقة كانت مكركبة عشان فيه مسح والهدوم هدوم «ياسِر».

– «طه».. قول لي حاجة واحدة بس.. قول لي إن أنت مالكش دعوة باللي بيحصل في الميدان.

ضيّق عينيه في استخفاف: إذا كان ده هيطمِّنك...

قاطعته «سارة»: احلف.

– وحياة «ياسِر».

لمحت عينيها صورة أبيه المقلوبة فأردفت: احلف ورحمة أبوك.

ظل صامتًا: يا «طه» أنا مش تلميذة.

– إنتي عاوزة توصلي لإيه بالظبط؟

واجهته فلاحظت جرح شفتيه: من يوم ما شفتك وأنا بقول إن فيه وراك سِر كبير.. موضوع والدك مش مجرد سوء حظ.. فيه شيء جوّايا بيقول إن الموضوع أكبر من كِده بكتير.. ما تكدِبش عليّا.. إيه اللي بيحصل؟

– بطّلي شغل صحافة.

– «طه» دي مش صحافة.. الورق اللي معايا بيقول إن فيه حاجة غلط ورا...

- وافرضي إنّي ليّا علاقة.. هتِعمِلي إيه؟

نظرت في عينيه نظرة طويلة قبل أن تجيبه: هاكتب موضوعي واللي يحصل يحصل.

- إنتي بتدوّري على سبق صحفي عندي هِنا في الشقّة؟

انتظرت من وجهه علامة لم تحصل عليها: مصدّقاك.

تحسّست شفتيه بأنامِلها فأغمض عينيه وابتعد، اقتربت منه وأمسكت يده، سَحبته إلى الحمّام، أجلسته أمام المرآة، بلّلت منشفته بمياه ساخِنة ومسحت على ظهره، أكتافه وذراعيه، غرزه المتعرجة، خفّفت من حرارة المياه وأنزلت رأسه في الحوض، أغمض عينيه في استرخاء وسرى الخدر في أعصابه، سكن وهدأ قبل أن يلتفت إليها مبتلًا ويغوص في حضنها.. احتوته وقبّلت رأسه وهي تتأمّل غياب ستارة الحمّام ومثبتاتها المكسورة، خرجا إلى غرفته، جلس على سَريره صامتًا حتّى قالت: أحسن دلوقتي شوية؟

ابتسم في صمت قبل أن يرتفع أزيز هاتفه المحمول: مش هترد؟

هز رأسه نافيًا لمّا ظهر رقم «وليد سلطان»: طيب أنا هسيبك تريّح وبكرة نتكلِّم همّت بالرحيل ثم توقّفت مبتسمة: بقولك.. ينفع أستغلّك.. اكتب لي حاجة للقولون. لاحت بين شفتيه ابتسامة وبحث عن ورقة وناولته قلما.. كتب لها اسمًا: خدي قرص بعد الأكل.

وجمت فجأة ورمقته بنظرة حادة: أنت مش أشول!!

تيبّست ملامِحه.. لم يجِد أفضل من رد فِعل شجرة ساكنة.

- أنت كدّاب.. كتبتها على جبينه ثم وشمتها على جلده.

وضع كفًّا على وجهه وأخذ نفسًا عميقًا وهو يسمع دقات كعب تبتعد وبابا ينغلق.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

مساء اليوم التالي..

رن هاتف «طه».. مُكالمة قصيرة كان في انتظارها، على أثرها ثبت حول خصره حقيبة صغيرة واعتمر قبعة أخفت نِصف وجهه قبل أن يركب تاكسيًّا حتّى فندق «الفورسيزون».

دلف الباب الدوّار، مر أسفل بوّابة كشف المعادِن فلم يُصدر الجِهاز صفّارة، تجنّب لقاء أعين فتيان الاستقبال المبتسمين دائِمًا اللامعة شعورهم قبل أن يصعد السلّم يسارًا حيث المصاعد.. أخرج الكارت المُمغنط من جيبه ودسه في الفتحة الرفيعة ثم ضغط رقم.. انطلق المصعد في سلاسة إلى الدور العشرين.. ثوان قليلة أحسّها دهرًا قبل أن ينفتح الباب، خرج يتابع أرقام الغرف حتّى وصل أمام ٢٠١٦، مرّر الكارت ودفع الباب بكوعه تلافيًا لبَصمة ودخل، لم تتحمّل قدماه الإثارة فجلس على الأرض يلتقط أنفاسًا متلاحِقة.

كانت الغرفة فخمة بحق، على اليسار حمّام واسِع مريح من الرخام، وفي الأمام غرفة بها سَريران ملكيان بلوني النبيذ والذهب

وتلفزيون (Plasma) كبير، قام وخلع حقيبته من حول وسطه ووضعها على الفراش، اعتصر قبضتيه يمنعهما من الاهتزاز قبل أن يخرج قفازين طبيين وحذاء من النايلون كالذي يستخدم في غرف العمليات. لبسهما وربط حقيبته ثانيًا قبل أن يتحسس أسفل الكومودينو ليلتقط الصاعِق الكهربائي الذي كان مربوطًا بشريط لاصِق، دسّه في حقيبته ثم ألقى نظرة على المرآة ليرى وجهًا كساه عرق الخوف. ابتلع ريقه بصعوبة ملطّفًا حلقًا متشقّقًا قبل أن يطفئ النور ويدلف إلى الشرفة، كان المنظر من أعلى مبهرًا بقدر ما كان النظر إلى أسفل مرعبًا، تأمّل يَساره حيث غرفة «هاني برجاس»، كانت مظلمة لا حركة فيها، وضع يده على الفاصِل الخشبي ورفع قدمه بحرص فوق السور العريض، أخذ نفسًا عميقًا ثم دار بجسمه نصف دائرة استمات خلالها حتّى لا يفقد توازنه قبل أن ينزِل في الجهة الأخرى، انتظر ثوان في الركن حتّى تأكّد أن كُل شيء لا يزال هادئًا. لم يكن هناك سوى صوت الرياح تصفِّر في عنف، فتح حقيبته الجلدية وأخرج الزجاجة، أنزل كمية لا بأس بها من المسحوق في يده ثم نثرها على الزجاج فالتصقت به كمغناطيس، عشرون ثانية ثم سمع الشروخ تتمشّى فوق السطح الناعِم، ازداد الصوت حدّة وتقاربت طقطقاته قبل أن يضرب النافذة بقدميه لينهار الزجاج دفعة واحِدة في حبيبات صغيرة، قبل أن يمد يده ويدير المقبض ليصبح في الداخِل، شد الستائِر ثم تمشى بحرص حتّى استقر في ركن بجانب خزانة الملابس، ركن يصعب على الداخِل مُلاحظته، سَكن ليلتقط أنفاسه الثائِرة مستميتًا للحفاظ على أعصاب قد تعرّت قبل أن يخرج من حقيبته علبة أقراص ليضع واحِدة تحت لسانه، بعد دقيقتين اعتاد الظلمة وإن رفضت ضربات

قلبه الإيقاع الثابت، عرقه سال من فروة رأسه العارية مخترقًا رموشه ليحرق عينيه، يجاهِد ألا ينهار عصبيًا ويتراجع، ظل على هذا الوضع لساعتين قبل أن يَسمع احتكاك قرب الباب، انفجر «الأدرينالين» في عروقه دفعة واحِدة فتوتّرت خلاياه وتسارعت نبضاته حتّى كاد صَوتها يفضح وجوده، انفتح الباب وأضيء النور، سَمع وقع خطوات تقترب فكتم أنفاسه حتّى لاح أمامه «هاني برجاس»، لم يكن ليخطئه، كان يرتدي بذلة سمنية بلا ربطة عنق، وقف في وسط الغرفة مُوليًا ظهره لـ«طه» ينظر في شاشة تليفون محموله قبل أن يرفعه لأذنه: فين «أمير»؟ الأوضة فاضية!! خمس دقايق ما يتأخّرش.

أنهى مكالمته حين لحظ الهواء الذي جذب الستارة إلى الخارجِ.. اتّجه للنافذة يتفحّصها فلمح ذلك الانعكاس خلفه.. انعكاس «طه».. أطلق صَرخةً مبتورةً والتفت بغتة: (Shit).. صرخها رعبًا وظهره يرتطم بالشبّاك.. سدّد «طه» الصاعق إلى صدر هاني الذي قبض باستماتة على رسغه.. تطوّحا معًا حتّى ارتطما بشاشة التليفزيون التي أصدرت فرقعة عالية حين افترشت بالأرض.. عضّ «هاني» كفّ «طه» فانفلت الصاعِق من يده.. انحنى ليستردّه فتلقّى ضربة في جنبه أسقطته أرضًا.. تبعتها ركلة مؤلمة في منتصف ظهره.. لم يتفادى الثالثة لكنه التقط الشاحِن وقام على ركبتيه.. حين طوّح «هاني» قدميه في ركلة رابعة عانق الصاعِق خصيتيه.. غرس «طه» الصاعق بكل ما يملك من قوّة بين فخذيه.. ثانيتان من الاهتزاز أطلق خلالهما «هاني» صرخة متقطّعة قبل أن يسقط كمكواة.. بصعوبة قام «طه» يلهث.. تأمّل الوجه المتألِّم قبل أن ينحني ويجذبه من قدميه في اتجاه الحمّام.. أقرّه بجانب الحوض وفك حقيبة الخصر في سرعة

فانفرطت منه وسقطت أرضًا.. انحنى بأنامِل مرتعشة يلتقط سرنجة وأمبول عليه حروف حمراء.. يتابع ملامح الأخير التي تيبّست.. خلع عَن «هاني» سترته وقميصه مُصارعًا الوقت قبل أن يستعيد وعيه.. فرد الذراع الأيسر بعيدًا عن الصدر.. كسر رأس الأمبول ثم دس الإبرة بداخِله وسَحب قدرًا من السائِل الشفاف.. أغمض عينيه لثوان مستحضرًا أعَصاب احترقت توتّرًا ثم سحب نفسًا عميقًا وطقطق فقرات عنقه قبل أن يثبّت يَداه المرتجفة ويغرز الحقنة تحت إبط هاني.. مَكان قد يهمله خبراء الطب الشرعي.. أفرغ السائِل ببطء ثم ابتعد مَسافة تسمح له باحتواء المشهد.. لم يكن هاني قد استعاد وعيه كاملًا حين بدأ مفعول السائِل يستبدل تأثير الصدمة الكهربية.. قطرات من العرق اعتلت جبهته حين رَمق «طه» بنظرة فزعة.. فتح فمه بصُعوبة مُحاولًا التغلّب على عضلات وأعصاب يقهرها الشلل: إنت إيه؟

خرجت منه مع زبد من جانب فمه.. انحنى عَليه «طه».. وضع يديه بجوار رأسه حتّى شعر الأخير بأنفاسه: أنا «حورس».

قالها «طه» فاتّسعت حدقة «هاني».. ثلاثون ثانية وبدأ مُفعول مُرخيات العضلات يؤتي ثماره.. احتل السّائِل نقطة التواصل بين العضلة وآمِرها.. لثوان انتابت جسد «هاني» رعشة قبل أن ينقطع خط الإمدادات.. يَسمع.. يَري.. يُدرك.. لكنّه لا يتنفّس.

بدأ الجسم يزداد استرخاء على استرخاء.. جلس «طه» على رُكبتيه بجانبه.. أخرج نشرة كانت مع الأمبول وبدأ يقرأ النِصف الأخير.. النصف الذي يحوي التحذيرات والتأثيرات الجانبية: اللي بيحصل

دلوقتي مرحلة من مراحِل التخدير.. كان المفروض يكون فيه تنفّس صناعي لأن رئتك بطّلت تتنفّس.. الـ(Muscle Relaxant) بيقطع إشارات المُخ للعضلة.

ثم نظر في ساعته: دقايق وهتبدأ وظايف المخ العليا في الضمور لأن الأكسجين مش هيوصل.. اللي أنت حاسس بيه ده عذاب يشبه الغرق.. بعد كِده المخ كلّه هينهار.

بدأ وجه «هاني» في الاحتقان.. جَحظت عيناه وانتفخت أوردته.. ينتظر لدغة عقرب ثوان يسابق حتف مُحتم.. احتلّت الزرقة وجهه وبدأ يختنق حين تكلّم «طه»: السمع هو آخِر حاسة بتفضل واعية في جسم الإنسان.. أنا عارف إنك سامِعني.. أبويا...

تحشرج صوته ولم يكمِل.. جاهد لحفظ أعصابه أمام وجه يرسم بأقصى آيات الألم.. أمسك رسغ «هاني» يستشعر نبضًا قارب الزوال حتّى توقّف.. توقّف كما توقّف «طه» عن التنفّس.. فقط شهيق حارق.. بلا زفير.. سكن الكون حوله كأنّما انتزعت أذناه.. ثوان وسقط على ركبتيه بجانب الجسد المسجي.. يختنق.. يبحث عن الهواء بعينيه.. يتأمّل أصابع لا يصدّق ما فعلته.. لم يفكّر حين رفع بقايا السائِل في الزجاجة ودس الحقنة وسحب الجرامات المتبقّية.. جرامات كافية لتريحه.. شمّر رسغه وصوّب الإبرة إلى وريد نافِر قبل أن يغرسها.. لم يفكّر حين أغمض عينيه وترجّى إبهامه أن يتم عمله ويدفع بالموت إلى قلبه.. لم يفكِّر حين عانده وأبى.. سحب الإبرة من جلده.. ببطء.. دلّك فروة رأسه قبل أن يتحامل ليقوم.. أخذ ينظر حوله كمن استيقظ فجأة ليجد نفسه في قارة أخرى.. انتابته رعشة

فانحنى بسرعة يلملم حاجاته داخِل حقيبة خصره.. يتساقط عنه أكثر ممّا يلتقطه.. نظر إلى «هاني» نظرة أخيرة قبل أن يلقي بفوطة على وجهه ويطفئ النور.. خرج إلى الشرفة ووثب إلى الغرفة المجاورة وكاد يسقط.. خلع قفازه وارتدى حذاءه.. غسل وجهه وكاد يتقيّأ حين قابل انعكاس ملامحه في المرآة.. نظر في ساعته ووضع قبعته الرياضية ثم خرج.. مر من البهو بسرعة يتحاشى إطالة النظر قبل أن ينصهِر بهدوء وسط زِحام شارع الجيزة.

مشى لدقائِق قبل أن يتوقّف أمام كشك.. ابتاع علبة عصير بأصابع مرتجفة بحثًا عن بعض السكّر ليرفع ضغطًا قارب الأسفلت، ثم طلب رقم «وليد» مبتعدًا أمتار تسمح بالخصوصية: خلاص.. قالها «طه».

- متأكِّد؟

- متأكِّد.

- امسح رقمي دلوقتي وما تتصلش بيا.. يومين وهكلّمك.. عيش حياتك طبيعي جدًّا.

- طبيعي جدًا!!

- هقرا الجرايد وأكلّمك.. روّح أنت دلوقتي.. قالها وأغلق الخط.

لم تمر تلك الليلة.. كأن الزمن تجمّد ورفض المُضي.. أو لعلّه عاد إلى الوراء.. دلف «طه» إلى شقّته وأغلق الباب.. أقفل النوافِذ وخفت الإضاءة.. فتح الثلاجة وأخرج زُجاجة مياه وضعها على شق رأسه الأيمن ضاغِطًا عليه مُحاولًا منع نوبة صُداع نِصفي تنوي شرًّا.. أطرق

في الأرض قليلًا ثُم رفع يده وتشمّم إبطه قبل أن يخلع قميصه ويلقيه جانبًا.. دخل الحمّام واقترب من المرآة يتمعّن في وجه جديد يراه لأوّل مرّة.. خلع نظّارته فاندمجت التفاصيل.. قصر النظر اللعين جعله يلتصق بالمرآة أكثر.. مَسح بأنامِله السواد الغائِر ككهف مهجور أسفل محجريه فزال ككحل رديء.. فتح فمه وطالع أسنانه.. صفراء وكأن الفرشاة لم تزرها يومًا.. تأمّل رأسه والغُرز النابِعة مِنها.. أنفه.. وذلك الخيط الأحمر الذي بدأ ينساب في بقع على جدران الحوض.. دخل البانيو ومَدّ يده لا إراديًّا إلى الستارة التي لم تكُن هُناك.. شَخَصَ ببصره للحظات مُحاولًا تذكُّر أين كانت حين لاح أمامه وجه «السيرفيس».. نزل الماء على أذنيه فانطفأ العالم إلا من صوت خرير منتظِم.. على إيقاعه الرتيب جالت في خاطِره أحداث الشهور الماضية.. ومضات مبتورة كشريط ڤيديو سيئ التسجيل.. كان ذلك حين شعر بتلك اليد تلامس رقبته.. فتح عينيه واستدار بغتة فوجدها عارية مبتلّة الشعر:

«سارة».. إنت إزاي..!!

ابتسمت بجانِب شفتيها قبل أن تلثمه بقبلة.. اجتاحت صدره عاصفة كادت تكوي رئتيه.. تسارع نبض قلبه واضطربت أنفاسه وتقاربت.. دفعها للجدار.. أخذ يقبّلها في جنون.. كان احتياجه لها أشبه برغبة مدمن.. أغمض عينيه واستغرق في شفتيها.. ثم أدار وجهها للحائط واحتضنها من ظهرها.. اعتصرها.. أخذت تئِن.. تصرخ في لذّة.. تنطِق اسمه.. دفن وجهه في شعرها حين لاحظ تلك الشعيرات البيضاء.. انفصل بوجهه قليلًا ليجد عددًا أكبر.. توقّف عن احتضانها.. ظلّت تئِن.. لم يكُن صوتها.. ابتعد عنها..

أمسكها مِن كتفها وأدار وجهها ناحيته.. لم يكُن وجه «سارة».. كان «هاني برجاس» يقِف أمامه عاريًا.. أطلق صرخة عالية ورجع إلى الوراء فاصطدمت رجليه بطرف البانيو قبل أن يهوي إلى الأرض.. قام فزعًا يبحث فلم يجد له أثرًا.. خرج عاريًا يدور في الشقة كالمجنون.. في ركن بغرفته جلس القرفصاء ودفن وجهه بين يديه حتّى داعبته أشعة الشمس.. قام مترنّحًا يبحث عن شيء يرتديه حين رن الهاتِف.. بصعوبة عثر عليه وسط الفوضى.. كان الاتصال من الشركة.. وصلة توبيخ تلقّاها من مديره في العمل قام على أثرها وارتدى بذلته ونزل.

(عيش حياتك طبيعي جدًّا)..!!

مرّ على العيادات بعيون جاحظة وملامح شاردة.. كان كمندوب للجحيم.. في المساء أخذ يبحث بين بائعي الجرائد على الطبعات الأولى حتّى وجد الخبر.. عنوان كبير بجانب صورة لـ«هاني برجاس»: وفاة «هاني برجاس» عضو مجلس الشعب وإمبراطور المقاولات في ظروف غامضة.. عثرت الشرطة أمس على جثّته في حمّام فندق شهير بالجيزة.. المعاينة المبدئية تثبت وجود شبهة جِنائية.. جدير بالذكر أن الراحِل يعد من كبار رجال الإنشاء والتعمير في مصر.. ساهمت شركاته في إنشاء...

طوى «طه» الجريدة وأودعها حقيبته حين استقبل مكالمة من «ياسر»: ما كنتش أتوقّع انّك بالجنون ده.

- صدّقني لو قلت لك إن أنا نفسي ما كنتش أتوقّع.

- إنت فين؟

- خليك بعيد الأيام دي.. أنا هبقى أكلمك.. سلام.

أغلق الخط وبدأ حبس أنفاسه.. تلك الفأس المغروزة في الحلق.. شهيقه الحارق بلا زفير.. كان عليه أن يتظاهر بطبيعته.. ذلك الشيء الذي غادره للأبد.. فارقه النوم وبدأ سقف البيت في الهبوط على رئتيه المتخمة بالدخان.. الطعام يأبى مَعدته وجفونه تحرق عينيه بخلًا بظلمة.. الجدران حوله ترمقه.. تراقبه بلا عيون.. تتهامس فيما بينها كنسوة في عزاء السيدات.. تحوّلت كُل الأصوات المُحيطة إلى صرخات تنادي اسمه.. لم تعد أقراص الهلوسة تزيده هلوسة.

ما يفور بداخِله كان أشنع.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

في التاسِعة من اليوم التالي جلست فوق كُرسي مَكتبها بالجريدة.. شاردة عابسة المَلامِح تحت السَّقف العالي والنوافِذ الهائِلة لتلك البناية العتيقة التي تطل على ميدان «طلعت حرب».. خلفها صورة متوسطة لـ«شي جيفارا» بجانب مَجموعة صُور صغيرة تحيط الثائِر الكوبي.. وسط أصدقائها في معرض الكتاب وفي الشوارِع وفي قهوة التكعيبة.. يَحتل العبوس وجهها ترتشِف فنجان نسكافيه بلا سكر وتخبط بسِنّ القلم الجاف على ورقة كانت بيضاء.. قدماها لا تتوقفان عن النقر وهي تنظُر لملف مغلق.. تحقيق مبتور أصبح كابوس حياتها.. كان ذلك حين جاء الساعي وأخبرها أن مدير التحرير يطلبها.. اخترقت المكاتب قبل أن تدلف الغرفة الزجاجية.. كان الرجل جالسًا مشمرًا أكمامه يطالِع بعض الأوراق أمامه.. كيان لزِجا للوهلة الأولى يبدو مناضِلًا.. نظرة غضب وقميص باهِت ومطفأة تتعارك السجائر فيها على مكان: أستاذ هشام.. صباح الخير.

- خشّي يا «سارة» واقفلي الباب.

اقتربت من مكتبه تنتظِر انتهائه من مَراسِم دفن سِيجارته قبل أن يلتفت إليها: التحقيق بتاعك شكله هيقلب الدنيا يا بنت الذينا.. كلّمت رئيس التحرير امبارح.. الموضوع عجبه.. إحنا بقالنا فترة بنتنشّأ على حاجة زي كِده.. هينزِل في باب خاص - «أمل الوطن».. مش هنزّله باسمك طبعًا عشان القلق.. هنبدأ بـ«مُوسى عطية» المحامي.. تقارير الطب الشرعي واللقاء مع مراته.. وبعدين نخش في الحالة التانية.. اسمه إيه ده..؟

قاطعته «سارة»: «سليمان».

أردف: أيوه سليمااااان.. وبعدين نخش على «محروس برجاس».. كُل ده طبعًا بالتقارير، وبعدين نختم بتقرير الواد الصايع اللي مش لاقيين جثته.. عاوزين بس نزوّد حاجة كمان.. إن الموضوع وراه تنظيم كبير...

«سارة» باستغراب: تنظيم؟!!

أردف: أيوه يعني علاقة بتجمع الناس دي مع بعض.. ممكن يكون تشكيل مُعيّن بيستهدِف رموز.. تلوث من مُنتج معيّن.. تار شخصي بين رجال أعمال.. عاوزين حاجة تسخّن.

«سَارة» بشرود: مش نستنى شوية.. يمكن نكتشف حاجة جديدة؟

قاطعها: نكتب الأول وبعدين نكتشف براحتنا.. المهم السبق ما يروحش.. مش هنستنّى لغاية الموضوع ما يتشم!!.. عاوز التحقيق جاهِز ومتراجِع في يومين بالكتير.. ماشي؟

بشرود هزّت رأسها ولم تعقّب حين سألها: نازلة المظاهرة؟

- نازلة.

- طب اندهي زمايلك اللي نازلين وتعالوا لي.

جمعت مُحرري صفحة المجتمع ووقفوا يتلقون التوجيهات: النهارده يا شباب يوم مهم.. بعضكم أول مرة ينزل.. عشان كده بحذّر.. المظاهرة دي بالذات هتبقى عنيفة.. الأمن مُمكن يعمِل أي حاجة عشان موضوع المعابر سخن والدول العربية هات يا شتيمة في الحكومة.. هنصوّر من سَطح العماير زي كُل مرّة.. نركِّز على الأمن المركزي.. أي ضرب أي سحل.. معاهم.. ويا ريت لو حد فيكوا يحتك بس من غير خساير.. اللقاءات مع الناس في الشارع تبقى متنوعة.. حاولوا تجيبوا مُهندسين.. دكاترة.. مثقفين.. عامةً عاوزين نبيّن للشارع إن اللي مش عاجبهم موضوع المعابر المقفولة ناس بتفهم.. وعاوزين نحط في دماغنا حاجة.. إحنا مش نازلين نغطي حدث والسلام.. إحنا بنشارك في القضية.. مفهوم الكلام.. أي أسئلة...؟ همهموا ببعض الملاحظات قبل أن يخرجوا في اتّجاه التحرير.

حيث المظاهرة لأجل غزّة..

في الميدان كان الموقف قنبلةً منزوعة الفتيل.. المتظاهرون كالنمل تحيطهم العصي والدروع الشفّافة والخوذات، وجوه مأمورة سفعتها الشمس فغارت قسماتها وامتلأت غضبًا.. يوم آخر من السنوات العجاف الثلاث.. سنوات الأمن المركزي.. أمواج البشر تغلي كماء في مرجل تحيطهم سيارات مدرّعة كخنافس أبو عيد السوداء.. لافتات ملوّنة عليها صور جثث وأشلاء وكلمات ذات وزن وأوشحة فلسطين تشبه رقعة شطرنج بالية قتل ملكها غدرًا.

– يا هنية يا زهار أنتو أملنا يا أحرار.

في ركن قريب من صُرة الميدان وقفت «سارة» تلتحف الشال الفلسطيني وتمسك بكاميرا صغيرة.. مُحاطة ببعض الأصدقاء.. تلتقط صُورة وتسجِّل كلمة ثم تصيح صيحة مع الموجة العابرة.

– يا زهار قول لهنية أوعى تسيب البندقية.. فتح المعبر للأحياء.. مش للجرحى والأشلاء.

مع انتصاف الشمس بدأت الأدمغة تستعر تحت الخوذ السوداء.

– ارفع إيدك علّي الصوت.. اللي بيهتف مش هيموت.

ارتقى أحد الناشطين القريبين من «سارة» كتف صَديقه.. شاب طويل يرتدي تي شيرت (Nike) يطلق شعره كميكروفون من السبعينيات.. رفع مكبر الصوت أمام فمه وأخذ يَصب اللعنات على الحكومة والأيدي الخفية التي تمنعه من تَحرير فلسطين: لا لا للتطبيع.. مش هنسلم مش هنبيع.. ثم أخذ نفسًا وردّد: يا (...) يا مسطول.. معبر رفح ليه مقفول؟

وكأن تلك هي الإشارة المتّفق عليها.. حين سُمع الاسم انفجر الأمن المركزي.. تلاحمت الأيدي والعصي وتعالت الصرخات التي زادت من ثورة الجانبين.. تدافعت الأجساد وغلظت الوجوه وارتفع طنين الغضب: يالا يا مصري يالا نجاهد... مصر وغزة اتنين في واحد. أغلق الأمن الدائِرة وبدأ التضييق.. لم تتوقّف «سارة» عن التقاط الصور رغم الهرج.. صَرخت وشتمت ثم جُذبت من حجابها.. تبعثر شعرها وسَقطت الكاميرا فانحنت تلتقطها حين تلقّت ضربة عنيفة خلف رأسها.. ألقيت على الأرض وَسط القطيع المتدافِع..

لامس خدّها الأسفلت الساخِن وداعبت الأحذية ملامِحها.. جاهدت لتستعيد وعيها الهارب حين شعرت بتلك اليد.. أصَابع متعجلة تتسلّل تحت قميصها.. تتحسس طريقها نحو هدف مدروس لم تجتهد لتعثر عليه.. قبضت بشدّة على صدرها وفركته في انتقام.. شفت غليلًا مستعِرًا قبل أن تتقهقر إلى مؤخرتها.. لم يسمح وعيها المتآكِل بتفقّد صاحِب تلك الأصابع.. مدّت يدها مُحاولة الإمساك بيده لكنّه كان أسرع مِنها.. نال مِنها وتركها لتكمِل استقبال مَصيرها.. وتوالت الركلات حتّى أطفأ أحدهم نور الميدان.

* * *

في ذلك الوقت تلقّى «طه» المكالمة التي ينتظِرها.. هرع بعدها إلى قلب الطريق الصحراوي.. «واحة عُمر».. ركن سيارته وترجّل مِنها.. وقف بجانبها حتّى أتته مكالمة أخرى من رقم آخر: أقعد اشرب حاجة لغاية ما أجيلك.

بالداخِل كانت القاعة واسعة شحيحة الزوّار.. طلب نسكافيه وأشعل سيجارة مترقبًا حتّى أتاه الصوت من خلف أذنيه: أزيك يا «طه».

كان «وليد سلطان» يلبس نظّارة سوداء وكاسكيتة رمادية حجب ظِلّها الكثيف ملامِحه: زي الزِّفت.. زفرها «طه».

جلس «وليد» أمامه: صدّقني أنا حاسس بيك!!

سكت «طه» ومسح رأسه.. لحظات مِن الصمت لا يتخلّلها سوى صوت أنفاسه: أنت ما بتحسّش.

- أوبا... واحِد تاني؟ فرق جامِد بين «طه» اللي قابلته أوّل مرّة وبين الوحش اللي خد حقّ أبوه بإيده.. أنت نفسك أكيد حاسس بالفرق.

أطفأ «طه» سيجارته بعنف في كوب النسكافيه: فرق!! أنا ما بقتش أنا.. بقيت واحِد تاني.. مش بني آدم.

- وهو مين فينا بني آدم؟ البني آدمين دول عايشين برّه.

رمقه «طه» في غِل: أمّال إحنا بقينا إيه؟

ابتسم وليد: إحنا اللي الملايكة قالوا علينا هنسفك الدماء ونفسد في الأرض...

قالها ونظر للضمادة التي أحاطت رسغ «طه» من جرّاء العضة:

- إنت عملت فيه إيه؟

- يهمّك تعرف؟

- محدّش قادر لغاية دلوقتي يفهم اتقتل إزّاي وليه.

- مش عاوز أتكلّم في الموضوع ده.

- صحيح.. أنت قلت إيه لظابِط المباحِث لمّا سألك يوم إيد «السيرفيس»؟

- قلت له إنّي ما أعرفوش.

- عندِنا مُشكِلة صغيرة.. مش صغيّرة أوي.. أنا عرفت إن مَوضوع «السيرفيس» مِسمّع ولسه بيدوّروا وراه.. سَهل الربط ما بين الجريمتين.. خصوصًا انّك اتّهمته في قضية أبوك.

رد عليه «طه» بصمت فأردف: وجودك في البلد ما بقاش مضمون.. على الأقل دلوقت.. في يومين تكون لمّيت حالك.. هتسافِر.

- أسافِر؟

- إيطاليا.. بلد نضيفة.. بعيد عن الزِّبالة.. تقدر تبدأ مِن جديد.

لطمت المفاجأة «طه» فازداد صمتًا حين أكمل «وليد»: الوقت ضيّق.. بعد يومين هنلاقي المباحِث عندنا.. بلاش بيات في البيت.. أنا بفكّر زي الشخص اللي قاعِد على مكتبي دلوقتي.. موضوع الإيد والرسالة والمسرحية التعبانة اللي أنت عملتها دي تِخُش في البحث الجنائي خانة انتقام.. طالما فيه تمثيل بالجثّة يبقى هيدوّروا على واحِد يكون عنده خصومة صريحة.. أقرب واحِد.. شوف مين بقي اللي قِدِر يشتكي «السيرفيس».. رئيس المباحث بيبقى معاه سجِل بكُل اللي سألهم.. هيلاقي سيادتك بتنفي معرفتك بيه رغم إن فيه بلاغ مِنك ضدّه.. هِنا الشك هيشتغل.. تِحب أكمّل؟

تطلّع «طه» خارج النافذة هربًا فقرع «وليد» أصابعه على المِنضدة:

- ده غير إن فيه زروطة في الفندق والمديرية مش هتسكت.. الرأس كبيرة.. وانت أكيد نسيت حاجة كِده والا كِده.. أي مكان تاني هيكون أحسن مِن هِنا.. ما عندكش اللي تخسره.

قالها وأخرج مِن جيب سُترته مظروفا وناوله لـ«طه» خِلسة.

- إيه دول؟

- خمستلاف دولار.. حُط الظرف في جيبك واسمعني كويّس.

أشعل سيجارة وأردف: بعد يومين تتحرّك على محطّة مَصر.. تركب قطرإسكندرية.. تنزل تاخُد ميكروباص أو بيجو.. قول له عاوز أروح المكس.. بتاع ساعة ساعة ونُص مِن المحطّة.. جنب «العجمي» على طول.. هتسأل على قرية الصيّادين.. هِناك فيه قهوة اسمها قهوة «صبّور».. هتسأل على واحِد اسمه «حسن الجرجيشي».. قول له أنا جاي لك مِن طرف «وليد بيه سلطان» بس.. هو هيتصرّف.. ما تدّيلوش فلوس.. الفلوس اللي معاك دي ليك.

– مركِب؟ أنا مِش رايح.

– براحتك.. أحِب بس أعرفَك إن مُذكِّرة ضبط وإحضار باسمك مسألة أيّام على ما تطلع.. ومُخبر عينه على العمارة لغاية ما سيادتك هتطب.. الموبايل كمان...

لم يتمالك «طه» نفسه فقاطعه: خلاص فهمت.

سحب «وليد» نفسًا من سيجارته: «طه» أنت زي أخويا الصُغيّر.. بنشف عليك لمصلحتك.. هِنا مش زي هِناك.. هِناك فيه فُرصة تعيش.. لو خدت ألفين يورو بأربعتاشر ألف مصري في الشهر.. عُمرك ما هتعمِلهُم.. هِنا أنت ميّت ميّت.. ما تعملش زيي وتدفن نفسك في مكان ما يستاهِلش.. خلّينا نتكلِّم بصراحة.. البلد دي قدّامها ولا خمسين سنة كمان عشان يتعاش فيها.. انت خلّصت على واحِد فاسِد! اتنين!! ألف.. بس الناس دي زي الابراص.. كُل ما تقطع لها رِجل هيطلع لها عشرة.. يعني أقول لك خبر.. «سمير برجاس» ابن عم «هاني برجاس».. نازل الانتخابات في نفس الدايرة.. خِلصنا مِن شاذ طلع لنا مُدمِن مخدّرات.. كُلّه مستنّي

الرش والتظبيط وهايخدها غصب عن عين التخين.. تفتكِر حد هيتكلِّم.. بتدّن في مالطا.. مِن الآخِر بلدك هيّا المكان اللي تلاقي فيه احترامك.. والمكان ده مش هِنا.

ترقرقت عين «طه» بدموع لم تجرؤ على مُغادرتها: مُمكن أعرف أبويا شاف إيه يومها؟

بعثر «وليد» دُخّان سيجارته: مش هتِفرق يا «طه».

– أنا ما عملتش كُل ده عشان تقول لي مش هتِفرق.

زفر «وليد» في حنق: شاف «هاني برجاس» بيتّاكِل في الڤيلا.. يوم ما ولّعت أنت النور.

جز «طه» على أسنانه حين وقف «وليد» منهيًا اللقاء: روّح دلوقت.. نام كويّس.. أبدأ حياة جديدة.. وما تنساش قهوة «صبّور».

قالها ومد يده بالسلام.. نظر له «طه» ولم يتحرّك فعاجله «وليد» بحضن وربت على ظهره هامسًا في أذنه: أنا عارف إنّي ضغطت عليك.. بس مِن أمتى الواحِد بيحدّد قدره.. هتِتعب شوية بس هتفتكرني بعد كِده بالخير.. هتقول الراجِل ده علّمني حاجة.. لو عُزت أي حاجة كلّمني.. احنا اخوات يا «طه».

رحل «وليد» ساحبًا الهواء والألوان تاركًا وراءه أعقاب سجائره والظرف.. فتحه «طه».. النقود كانت بجانب دفتر والِده.. أغلقه ودفن وجهه بين يديه ينصت لأنفاس ظنّها سكتت.. فقط قلبه يهِز جسده كقارِع طبول.. مرّت ساعة تداخلت فيها كُل أحداث الأيام

الماضية معًا لتصنع معرض سريالي لفنّان قرّر الانتحار حرقًا.. كانت كُل الاحتمالات تنصبّ في نتيجة واحِدة.

لم يعُد يملك إلا إتّباع الطريق حتّى نهايته بحثًا عن زفير يريحه من شهيقه المتواصل.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

عدا الخبطة العنيفة التي أفقدتها الوعي لم يكن نصيب «سارة» سوى رضوض وكدمات سَطحية متفرّقة من جراء السقوط بين الأقدام.. استلقت على سرير صغير بمستشفى قصر العيني مربوطة الرأس زائِغة العينين حين دخل الطبيب يحمِل صورة أشِعّة:

– سِت «سَارة» المشاغبة.. أنا كتبت لك على خروج.. ستر ربنا المخ سليم ومفيش ارتجاج.. هاكتبلك على دوا وتبطّلي نزول مظاهرات.. ما تنسيش انك بنّوتة.. أنا بنتي قدّك.

هزّت رأسها في شرود وهي تسمع الدِّيباجة الأبوية المملّة قبل أن تستنِد على اثنين من صديقاتها وتغادر المستشفى.. في الطريق تلقّت اتصالات للاطمئنان على صحّتها وإحداها كانت دعوة من شلّة المظاهرة للقاء ليلي في «كارلتون» تضامُنًا مع معتقلي المظاهرة.. رجعت بيتها.. لم تستطِع النوم.. عيناها جاحظتان تخيف النعاس.. تستعيد تِلك اليد التي اخترقتها ووطئت أرضها في لحظة ضعف.. سلبتها.. قامت إلى المرآة.. نظرت في وجهها قبل أن تتجرّد مِن

ملابسها.. أخذت تنظر لصدرها الذي حمل زرقة بصمات عابثة.. فكّت الشاش السخيف من حول رأسها بعصبية وارتدت ملابسها وهي تنظُر لشاشة تليفونها بَحثًا عن مُكالمة مِن «طه».. في نزولها توقّفت أمام شقّته.. همّت بطرق الباب قبل أن تتردّد وتنسحِب.. نزلت من التاكسي أمامَ سينما «ريفولي» ثم عبرت الشارع في طريقها لـ«كارلتون».. مكان أشبه بمقهى.. صَعدت الدور الثامن الذي تسرّب صَخبه إلى الخارج ودلفت.. شرفتين كبيرتين وبهو واسع يحمه (DJ) متمكّن.. إضاءة خافتة وهواء مَملوء بالنشوة.. استُقبلت «سارة» استقبال بطلة.. التف الأصدقاء حولها يقبلونها ويحيّون نضالها.. حين انفض الجمع كُل إلى مرقصه سحبها «إبراهيم» إلى الشرفة بعيدًا عن الضوضاء: حمد الله على سلامتك.

– الله يسلّمك.

ناولها زجاجة ستلا فأزاحتها برفق: لأ.. مش قادرة.. لسّه حاسة بدوخة.. الصوت عالي أوي.

أحاط وسَطها: لو كنت جنبك ما كانش حصل لك حاجة.

شردت بنظرها في الراقصين بالداخل: إيه اللي بيحصل برّه ده؟

– بتتكلّمي عن إيه؟

– هو ده التضامن مع اللي اعتقلوا في المظاهرات!!

– هي بدأت بتضامُن، بس الشباب تقّل في الشرب حبّتين.

– ده تهريج.

– أنت وراكي حاجة بعد الحفلة؟

– مروّحة.

– ما تيجي معايا.. عندي (stuff) يخبل وعاوز أسمّعِك حاجة من الديوان الجديد.

– فين؟

– البيت.

في تلك اللحظة اقتربت فتاة يملأ وجهها عبوس لا يليق وروح الحفل.. نظرت في وجه «إبراهيم» لثوان قبل أن تشير لـ«سارة» أن اتبعيني.. باستغراب استأذنت «إبراهيم» وتبعتها حتّى الحمّام.. دخلت وأغلقت الباب بالمزلاج وسط ذهول «سارة» وهمست:

– «سارة».. أنا كنت معاكي في المظاهرة النهارده.

– شفتك يا «نهى».

– كنت بصوّر من شباك عمارة في الدور التالت.

– (Ok)!!!

– وصوّرتك لمّا وقعتي.

قالتها ولم تتأمّل مَلامح «سارة» التي انبعجت في ترقّب.. دسّت يدها في الحقيبة وأخرجت كاميرا وضغطت زِر التشغيل.. بتركيز حَملقت «سارة» في الإطار المضيء.. بدأ الڤيديو بلقطة واسِعة للمظاهرات.. دقائِق طويلة قبل أن يحدث الهرج بعد الهِتاف ويبدأ الأمن المركزي في التضييق على المتظاهرين.. هنا اقتربت الصورة

من كتلة بشرية على طرفها كانت «سارة».. تهتف وتلعن وتسب حين وقعت الكاميرا.. انحنت في اللحظة التي اقترب أحد أفراد الأمن المركزي وسدّد خبطة بعصاه السوداء لأحد المتظاهرين الذي تفاداها فارتطمت برأسها.. سقطت.. لم يكِد يلحظها أحد سوى ذلك الشاب القريب مِنها.. شق طريقه نحوها وانحنى عليها.. لحظة سكون وكأنّما الزمن توقّف حين شاهدته يتصنّع مُساعدتها.. يمِد يده إلى صدرها وكأنّه يحمِلها.. يتحسس مؤخّرتها بوجه يحمِل أسفًا.. أسف ذئب..

بهتت «سارة» حين توقّف الفيديو.. جحظت عيناها في شرود قبل أن تحتضِنها صديقتها: الواد ده بيمثّل من زمان.. وَاطي ووسِخ.. مَدسوس علينا ومعندوش قضيّة.. يتقبض عليه في المظاهرات.. ويطلع أوّل واحِد.. وعلى البلوج بتاعه بطل واتعذّب.. «سارة».. لو حبّيتي أحطّها على المُدوّنة هحطّها.

أخرجت الشريط ودسّته في يد «سارة»:

– كلّميني لمّا تفوقي.

تركتها في الحمّام تلملم أشلاءها المبعثرة.. ذابت الماسكاره على وجنتيها في خط أسود كئيب.. نظرت لنفسها في المرآة تستعيد ما رأت قبل أن تخرج في هستيريا وتتّجه للشرفة.. في طريقها التقطت زجاجة بيرة من يد أحد الجالسين واقتربت من «إبراهيم».. كان واقفًا مشعلًا سيجارة يتأمّل الميدان.. حين أصبحت على بعد متر مِنه أحكمت قبضتها على عنق الزجاجة ورفعتها قبل أن تهوي بِها على مؤخّرة رأسه.. تفجّرت الزجاجة بصوت غير مسموع وسط الضوضاء وانهار «إبراهيم» أرضًا.. بعد ثوان توقّفت الموسيقى فجأة وأخذ الكُل

يتأمّل «سارة» التي وقفت تنهج وهي تثقب «إبراهيم» بنظرها.. اقترب مِنها أحدهم يحاوِل فهم ما حدث فنفضت بقايا الزجاجة مِن يديها وبصقت فوق ظهر الراقِد على وجهه قبل أن ترحل وسط الوجوم والتساؤلات..

في ذلك الوقت كان «طه» يلتقط أغراضه من بين حقل كراكيب.. حقيبة واحِدة حَوَت مَلابس وأوراقا وبعض الصور.. وقنينة تراب.. دسّها فِي جيبه ودخل غرفة والده.. وضع الكرسي في مكانه المعتاد ووضع بجانبه النظّارة المعظّمة.. كان ذلك حين سمع الحفيف.. وجده واقفًا حين التفت.. برجليه الجافة ومنقاره الحاد وسواده الفاحم.. يسدّد مِحجريه الغائرين إلى «طه»: هششش.. تلك المرّة لم يفِرّ.. لم يطر فزعًا.. اقترب «طه» فرفع الغراب رأسه في ثبات يرمقه.. انحنى على ركبتيه حتّى بات في مواجهته.. رفع يده بهدوء ولامس طرف جناحه فلم ينزعج.. ملمس قطيفة لا يليق بكآبة يبثّها وجوده.. لكن تلك المرة كان الشعور مختلفًا.. لم يعرف «طه» لمَ لم يقشعِر بدنه.. لمَ لم ينفر.. لمَ لم يغلق الشبّاك على رجليه الجافة حتّى لا يعود ثانيًا.. بدا وجوده حميميًّا كصديق عُمر لم يره منذ زمن.. دسّ يده في حقيبته وأخرج علبة بسكويت اشتراها عفويًّا كما كان يشتريها لأبيه.. كسر واحدة ومد بها يده.. لثوان ظلّ الغراب ساكنًا قبل أن يقفز خطوتين ناحية الكف الممدودة.. تأمّلها لثوان ثم قرّب منقاره والتقط القطعة.. لاكها في سرعة قبل أن يلتقط أخرى.. بغواقه طلب المزيد.. نقر الكف حتّى أنهى ما معه.. هل تلك التي على منقاره ابتسامة!!.. كان ذلك آخر ما لمحه «طه» قبل أن يفرد الغراب جناحيه ويطير مبتعدًا.. بعد دقائِق أفاق من شروده.. أغلق الشبّاك

وسحب حقيبته واستقل حافلة الدرّاسة، اعتلى كوبري المُشاة عابرًا للضفة الأخرى مِن منطقة الحسين حيث الحياة تجري كبيت النمل، بازارات وعطّارين وبائِعي تذكارات، أسماء الأحبة مرسومة بالرمل في زجاجات، كوارِع «العهد الجديد»، فطير «أولاد الحسين»، كباب «الدهّان» وأرز بلبن «المالكي»، مَصاحِف على الأرصفة تباع بالوهبة، وبدلات رقص متلألئة في الفترينات، مَسجِد يملؤه مَاسِحو الأضرحة ومُقبّلو الأقفال، وسَائِحات جميلات السيقان بارزات النهود في المقاهي عامِرة بدخان التفّاح، صَاغة للذهب والفِضّة وشحّاذون ملحّون، عالم صاخِب تديره كلمات الشرف والعهود وبعض اللغة الأجنبية الركيكة، يحمِل متناقِضات بعدد ديانات الهِند.

اخترق «طه» الأزِقّة والحارات المزدحِمة لحي «الخرنفش».. كان العثور على بيت عمّته أشبه بالبحث عن نجم في سماء القاهِرة المغبرّة وسط مُوسِم حرق قش الرُّز.. لم يذكر آخِر مرّة وطئ فيها تلك الأرض.. ساقته أرجله إلى حارة بدت مألوفة.. ناداه بيتها من بين البيوت.. ثلاثة أدوار لا زالت تقاوم الزمن.. دلف المدخل العتيق واستقل السلالم الممسوحة قبل أن يقرع الباب.. استقبلته العجوز بحفاوتها المُعتادة.. طبعت على كُل خد خمس قبلات حارة وطبع هو يدها بواحِدة.. أمسكت بوجهه تتفحّصه وكادت تطمئِن لنظافة أظافِره قبل أن تصنع له ما يرم عِظامه الخربة أتبعته بكوب عِرقسوس مثلّج وبعض العتاب من قلّة السؤال: أنا جاي أبات عندك كام يوم.

لم تشأ عمّته أن تفاتحه فيما يطل من عينيه.. كانت أمارات الإجهاد والقلق تطل من وجهه ويخيّم عليه صَمت مُحكم.. جلست بجانبه على السّرير وأحكمت الغطاء فوقه رغم الحر وسألته: أحكي لك حدّوتة؟

فلتت منه ابتسامة فأردفت: وأنت فاكِر نفسك كبرت يا واد.. هتفضل طول عُمرك عيّل.

- احكي يا عمّتي.

- كان فيه واحِد اسمه «نوح».. ساكِن في بلد الناس فيها نسيت المولى.. كُل يوم كان يصحى الصبح يعِظهم ويهديهم.. لا الناس كانت بتسمع ولا حد استجاب.. وفي مرّة قال ما ينفعش معاهُم غِير الدم.. أقتل الأسياد ينصلح حال العباد.. وعنها.. كُل يوم كان يقتل واحِد.. يقتل واحِد.. لغاية ما خلّص على كُل أوساخ الحي.. بالك إيه اللي حصل؟

- إيه يا عمّتي؟

- مع كُل واحِد كان بياخُد روحه كان قلبه بتموت فيه حِتّة قد العنباية.. في الآخر قلبه مات.. ما بقاش في الحي حد غيره.. افترى وهو فاكِر إنّه بيصلّح.. عمل اللي ما عملهوش اللي قتلهُم كُلّهم.. لحد ما جِه يوم واتلموا عليه جماعة.. كانوا بيسمعوا كلامه الأولاني.. نفّذوا حُكمهم فيه.. قتلوه.. ارتاحوا وارتاح الحي كُلّه.. كان فاكِر نفسه «نوح».. ما كانش يعرف إن «نوح» مش هو اللي انتقم.

- ليه يا عمّتي بتحكي لي الحكاية دي؟

ابتسمت له وربتت على وجنتيه: نام دلوقتي.. النهار له عينين.

لم تكن مُبالغة من «طه» حين شعر أنه نام تلك الليلة كما لم ينم من قبل، صخرة في قاع بَحر لا يقلّبها تيار، استيقظ فقط حين ضربت الشمس نور الشبّاك ولفحت النسمات وجهه، بخلاف صوت مزمار

بائع غزل بنات وضربتين من مفتاح إنجليزي على أنبوبة بوتاجاز وصوت بائع جرجير، نادته العمّة إلى إفطار كلاسيكي، فول بالزيت الحار وبيض مسلوق وجبنه قريش بالطماطم، لم يكِد ينتهي حتّى وضعت في يديه حقيبة قماشية مشجّرة وأحكمت حجابها ونزلت معه إلى السوق، مَشى وراءها يستمع إلى حكاياتها عن كُل بيت يمرّون به، أشارت إلى مبنى وكالة بازرعة: من هِنا كِسوة الكعبة كانت بتخرج على الحِجاز.

ثم لمنزِل آخر: وهِنا كان عايش الريّس «جمال».. جدّك كان بيقابله عند «عبده» الحلاّق اللي على الناصية وبعد دقائق: وهِنا اتولد «نجيب محفوظ» الله يرحمه.. ثم توقّفت عِند بناية حديثة من أربعة أدوار مَطلية بلون فوشيه زاعِق: وهِنا كان بيت جِدّك الله يرحمه.. اشتروه جماعة فلاحين بعد ستّك ما ماتت.

تعلّق نظر «طه» بالبيت الملوّن قبل أن ينسحبا إلى حارة مَكتوب على لوحتها الزرقاء «درب نصير».. مشت لأمتار قليلة وأشارت إلى مَحل صَاغة كبير يُدعى مجوهرات «ألبير»: هِنا كان جِدّك على طول يجالس «ليتو» صَاحبه.

تسمّر «طه» أمام المدخل كمن قابل عفريتا.. أخذ يتأمّل المبنى العتيق الذي لم يعُد يحمِل أثرًا من صاحبه سوى لافِتة مغبرة ظهرت أطرافها من تحت اللافتة الجديدة، كانت تحتفظ بحرفين من اسم «ليتو».. لم ينتشله من استغراقه سوى عمّته التي فاجأته: أبوك حكى لك.

ألجمته الجُملة: حكى لي عن إيه؟

- أنت فاكرني مش حاسّة بيك؟ طالما مبحلق كده عند دكّان «ليتو» يبقى حكى لك.

قالتها وابتسمت.. سَحبته بعيدًا إلى سوق خضار وبدأت تجمع لوازِمها حين استطردت بدون أن تنظِر له: فيه ناس في الدِنيا دي شُغلتها تصعّب على البشر.

اقترب مِنها مستفسرًا: أنت تعرفي إيه بالظبط يا عمّتي؟

ناولته كيس من الخضراوات المشكّلة ليحمله عنها وأجابته: أعرف إن أبوك كان ليه ظروفه وأنت ليك ظروفك..

التف «طه» حولها ليواجِهها: أبويا كان حاكِي لك؟

أشارت «فايقة» إلى بائع: يا عربي.. شوف لي أرنب حلو. وبدون أن تلتفت: أبوك عُمره ما خبّى عنّي حاجة.

- كان مخبّي عنّي أنا.

- أنت اللي كنت فاضل له من الدنيا.. كنت عاوزه يحكي لك إيه!!

هز «طه» رأسه ولم يعقّب فأردفت: أبوك كان بيحارب الكون كلّه من حواليه.. طول عُمره بيدوّر على الدنيا اللي مش هتتوجِد.. وآخرتها أديك شُفت!! عشان تصلح حال الناس اصلح كبيرهم.. يا تسيب المولى ينظّم دنياه اللي خالقها.

سكت «طه» لحظات قبل أن يستطرد: عمّتي.. أنا مسافر.. ويمكِن أطوّل.

- مِش حل يا ابني.. لكن لو أصلح لك ابعِد لغاية ما نفسك تِصفى.

قضى يومه بجانبها، كنس شقّتها وأزال العنكبوت الذي عشّش في ركن لا تستطيع الوصول إليه، صنعت له ملوخية بـ«الأرانِب» وأخرجت من الكنبة الإسطنبولي علبة صاج دائرية كانت معبأة بالحلوى يومًا قبل أن تتحوّل لمخزن صُور، فتحت ظرفا أصفر يَحوي تلالا من الذِكريات: تاريخ العائلة والأصدقاء والجيران، صورا لأبيه وإخوته لم يرها من قبل، صُورة لجدّته، وصورة نادرة لـ«تونا» لوّن أحدهم شعرها بلونه الأحمر، كم بدت جميلة، كم بدت شبيهة بـ«سارة»، لم تمر الليلة قبل أن تتم حكاياتها بقصّة «فوزي» الذي دهسه الترام و«حمدية» بنت الخالة التي هربت مع «صبري ابن سامية الخيّاطة»، كان ذلك قبل أن يستأذنها ويقبل وجنتيها ويدخل الغرفة، بحث عن قلم وأوراق وبدأ يدوّن بعض الكلمات حتّى غلبه النوم.

في الفجر أيقظه صوت الأذان ويد عمّته، توضأ وصلّى واستسلم لبخورها المليء بعيون العفاريت بعدما أصرّت على رقيته وقراءة المعوذتين، ظل بعدها مستيقظًا حتّى أتته مُكالمة «ياسر»، كان قد طلب مِنه أن يقلّه إلى الإسكندرية، حمل حقيبته وودّع عمّته في كلمات قصيرة مُستجديًا دعواتها التي انهمرت عليه كحبّات المطر قبل أن يصحبه «ياسر» إلى مَحطّة مصر، اندسّا وسط زِحام الصاعدين إلى الدرجة الثانية مِن الثُّعبان الحديدي الذي انطلق يهتز في رتابة زار حكومي مُمل، بِجانِب النافِذة جلس «طه»، شرد في المارة، في الزراعات وفي انعكاس وجهه العابِس من أشعة الشمس على

الزُّجاج، حاول «ياسر» استدراجه لحديث لكنّه لم يجِد ما يُقال، جُملتين أو ثلاث على سبيل تحريك عضلات الفك لم يفلحا في كسر الصمت، حين نزلا المحطّة لفحتهما نسمات اليود، ركبا سيارة أجرة أقلّتهما لمنطقة المكس، انقضت ساعة قبل أن تلوح قرية الصيّادين الأشبه بڤينيسيا الإيطالية إذا قصفت بقنابِل الفقر وقذائف اللهاث خلف لقمة العيش، نزلا يلتمِسا قهوة «صبّور» مِن عجوز متهالِك بدا من نسل البطالِمة.. أشار بأصبعين يرتعشان: عدّي الإمّة التانية.. جنب مراكِب «أبو زهرة».

عبرا كوبري صغير قُرب الجامع قبل أن يتّخذا طريقهما وسط البيوت التي تحتضن البحر حتّى وصلا القهوة.. سألا عن «حسن الجرجيشي».. لم يكُن موجودًا فاحتسيا كوبين مِن شيء يشبه الشاي قبل أن ينحني صبي القهوة على أذن «طه»: «حسن» جاي أهه.. أبو شنب اللي هِناك ده.. لم يكُن صيّادًا بدينًا يلبس ملابس البمبوطية.. كان شابا أسمر مفتول العضلات يرتدي ملابس شبابيّة فاقعة اللون.. استقبلهما بترحاب لا يخلو مِن حذر حتّى عرف أنّهما مِن طرف «وليد سلطان»: هو ملاغيني على كُل حاجة.. الأخ ده جاي معانا؟ كان يشير لـ«ياسِر».

نفى «طه» فابتعد «حسن» به أمتار عن القهوة ثم لوّح بأصابعه لمحل بعيد: شايف السوبر ماركت اللي هناك ده.. هتروح تشتري منّه إزازة سفن كانز وشيبسي كبير وكيس بلح ناشف.. وهات لك شندوتشات فول على طعمية من العربية اللي هِناك دي.. وأقراص فحم وإسهال مِن الأجزخانة وتعالا لي بعد ما تودّع زميلك.

قضيا ثلث الساعة في شراء لوازِم رحلة الموت.. يخيّم عليهما صمت لم يستمِر طويلًا فقد قطعه «ياسِر»: الليلة دي خطر عليك.. هِج في أي حِتّة جوّة البلد.. إن شاء الله الصعيد.

– الصِعيد!! أعمِل إيه في الصعيد.. أنا مِش هعيش طول عُمري هربان.. امسك.. ده نسخة من مفتاح الشقة.. التوكيل اللي معاك يخلّيك تِبيعها في أي وقت.. أنا كنت ملاغي الولية «ميرفت» اللي في التالت عندنا.. ما هتصدّق.. واستنّى منّي تليفون عشان تحوّل لي على أي بنك.. والجواب ده تدّيه لأمّي.. عنوانها عليه.. وده لـ«سارة» أوعى تلخبط.. فيه حاجة كمان.

– خير.

– البت «ياسمين» اللي أنت بتكلمها على الـ(Face book).

– مالها؟

– مش بنت ومش «ياسمين».

بعدما حكى «طه» حكايته سكت «ياسر» لدقيقة قبل أن ينفجر: الله يحرقك بجاز.. إلهي تغرق بيك المركب وتطلع لك سَمكة قرش حولة تؤرمك في أعز ما تملك يا بعيد.

ضحك «طه» حتّى دمعت عيناه قبل أن يرمقهما «الجرجيشي» بنظرة تأفّف: يا برنس سلّم عل زميلك واتّكل.. أصلها مِش عُمرة والا حِج هيّا عشان اللمّة دي.. مِش عاوزين مشاكِل الله يبارك لك.

يلله يا «ياسِر».. سلِّم على عمِّتي.. ثم همس في أذنه: أنا كلّمت مراتك امبارح على تليفون البيت وفهّمتها كُل حاجة.. البت غلبانة

يالا وشارياك.. واحدة تانية كانت طلبت الطلاق.. عشان خاطر «زينة» اللي بكرة ربّنا يرزقها بـ«هيركليس».. وابقى يا سيدي اطفي النور وأنت شغّال.

قبض «ياسر» على يده واحتضنه.. افترقا حين جمع «الجرجيشي» «طه» وشابا آخر: تعالوا معايا.

سار «الجرجيشي» ومرافقاه بمحاذاة البحر حتّى دخلوا كوخًا صغيرًا يقال له خُص، رائِحته أنفاس مَكتومة وعبق أرجُل مُركّزة.. بالداخِل كانوا ثمانية يجلسون القرفصاء.. وجوه ريفية شاحبة يعلوها القلق وعيون غائِرة متربّصة.. أغلق «الجرجيشي» باب الخص والتفت للجالسين وبينهم «طه» الذي انحشر وسط الجمع: بُصّوا يا حضرات.. بالصلاة على النبي كده إحنا هنتحرّك بعد اتناشر بالليل.. لمّا ناخُد إشارة إن مراكِب الخفر بتغيّر الورديّة.. هنِمشي خمسة ميل جوّة وهِناك هتستلمكوا مركب تانية وتوصّلكوا بالسلامة.. مين ما يعرفش يعوم؟

رفع خمسة ليس من بينهم «طه» أيديهُم فأردف الرجل: حلاوة.. فيه سترة نجاة الواحدة بميتين جني.. الكُل ياخُد معاه أكله وشربه واللي عنده عيا ياخُد دوا.. من غير زعل اللي هيفيّص بندفنه في البحر.. أي استفسارات؟

رفع البعض أيديهُم سائلين عن بعض تفاصيل الرحلة مِثل قضاء الحاجة ومُدّة الرحلة وأي شاطئ سينزلون.. طمأنهُم «الجرجيشي» بثقة مضيفة طيران على خطوط «لوفتهانزا» الألمانية وطلب مِنهم المكوث هادئين في انتظار إشارة مِنه قبل أن يغلق الباب لتزداد

الرائحة تركيزًا خاصة حين أعربت مِعدة أحدهم عن التوتّر بإصدار غاز أقرب لغاز الأعصاب.. نام أغلبهم فيما جلس «طه» ضامًّا ساقيه إلى صدره واضعًا منديلا على أنفه حين تحدّث الشخص الجالِس بجانِبه: شكلك ما دخلتش جيش؟

– أنا فعلًا ما دخلتش جيش.

بوجه باسم وعيون خضراء ونحافة ورقة ٧٠ جرام: عشان كِده.. محسوبك «علاء عبد الجليل».. مِن الفيّوم.

– «طه» مِن القاهِرة.

– غريبة!!

– إيه الغريب؟

– أصل مِش متعوّدين على بتوع مصر يطلعوا الطلعات دي.

– إيه المُشكِلة؟

– إحنا فين وأنتم فين.. ظروفكم أحسن مِنّا ميت مرّة.. أنا مش بحسِد يعني.

– أنت مسافِر ليه يا علاء؟

– أقعد أعمِل إيه؟ البلد كُلّها بتسافِر، أنا مِن «تطون»، تسمع عنها؟ ميلانو الفيّوم، كُل الشباب بيسافر أوّل ما عوده يشِد، أنا ليّا أخّين ماتوا في البحر، وتلاتة وصلوا بالسلامة، هُمّا اللي شايلين البيت دلوقت.

ابتلع «طه» ريقه بصعوبة: غرقوا!!

– آه.. بس اللي وصلوا من البلد بتاع سِتّلاف واحِد لغاية دلوقتي.. في الأوّل كانوا بيروحوا العراق.. بس بعد الحرب إيطاليا كلت الجو.

– وأنت ما عندكش أرض تزرعها؟

– زرع إيه يا عم الحاج.. الزرع ما بيجيبش همّه دلوقت.. أهل البلد بيسقّعوا الأراضي عشان تمنها يغلا.. اللي بيطلعوا إيطاليا هُمّا بس اللي بيشتروا ويبنوا البيوت.. والجواز بقى صعب.. كُل واحِد بيرجع باليورو ينغنغ البِت اللي يتجوّزها.. يجيب لها الدهب بالكيلو ويبني لها بيت تلاتدوار لوحدها.. هتبُص على اللي زيّي ليه؟

– قول لي.. الليلة بتمشي إزّاي؟

– ولا حاجة.. الخمسة ميل بَحري دول لغاية ما نعدّي من خفر السواحِل.. نطلع بعد كِده شمال ناحية ليبيا.. تاخُدنا مَركب طالعة من بني غازي وتشرخ بينا على أقرب جزيرة في إيطاليا.. غالبًا راجوسا.. قبل الشط بيتاع تلاتين متر ننزِل.. هِناك فيه جماعة طليان بيبقوا مستنّيين.. يبيّتك عنده بـ٣٠٠ يورو.. تلات تيام لغاية ما تظبّط حالك والدوريات تخِف.. خد بالك الشرطة الطليان رخمين أوى.. لو عدّت على خير نطلع بعد كده على «باليرمو» وربنا يوفّق.. تشوف لك بقى بت طليانية والا واحدة كبيرة شوية تكون عاوزة راجل وعلى قد فلوسك طوح رجليك.. انت بقى مسافِر ليه؟

– هربان مِن جوز أمّي..

– سلّمها للّه.. لمّا نوصل بالسلامة هعمِل معاك واجِب.. أخواتي عيال جِدعان.. تاكُل؟

- لا شُكرًا.

فض علاء لفّة جرائِد مليئة بالسندوتشات: مِد أيدك يا عم والا بتقرف؟

- لا والله مِش قادِر.. أعفيني.

- براحتك.. قالها وانهمك بهدوء في حش طعميته المشبّعة بزيت «التربنتينا».

مع تناقُص السندوتشات التي تشرّبت الحِبر من الجريدة المهترئة ظهرت معالِم سطور مبلّلة وصورة منبعجة تكلّلها السلطة الخضراء، لكنّها كانت واضحة بالقدر الذي جعل «طه» يزيح قِطعة الخس بيديه ليتبيّن ما تحتها.. حَدق في الورقة قبل أن يَسحبها.. سقطت المخللات من فوقها فاستنكر رفيقه الفيومي إهانة النِّعمة.. أعاد «طه» قراءتها بعيوَن تلهث كالباحث بين الأسماء في سِجل الراسِبين قبل أن يفتح حقيبته.. بعثر محتوياتها حتّى وجده راقدًا.. دفتر والده وفيه ورقة النتيجة التي قطعها يَومًا ودسّها بين الصفحات يوم أضاء «طه» النور.. أخرجها وقرأ التاريخ.. السبت ١٥ نوڤمبر ٢٠٠٨.. نقل بَصره بين ورقة النتيجة وقصاصة الجرائِد قبل أن يقلّب دفتر والده في هستريا ليتوقّف أمام صفحة بعينها.. الصفحة الأخيرة.. السطر الأخير.. ثوان من الشرود في سَقف الخُص حتّى رجع برأسه للوراء وخبط جبهته حين لمعت في ذهنه فكرة.. كان ذلك قبل أن يطبّق ورقة الجرائِد بزيتها وخسّها وفتات طعميّاتها ويدسّها في جيبه.

* * *

الفصل السادس والعشرون

نفس الليلة..

حين انتهت «سارة» من قراءة الرسالة للمرة العاشرة أدركت أنّها لم تكن تعرف ذلك الذي ظنّت أنّها تعرفه.. ترقرقت عيناها فأغلقت جفونها حبسًا لدمع حارق.. طوت الجواب بين أصابعها وأعادت الاتصال بالرقم: الهاتِف الذي طلبته ربّما يكون مغلقًا.. لن تسمعي صوته ثانيةً.. هل قالت ذلك؟.. تلك العاهِرة.. قامت وسَحبت حقيبتها من فوق مكتبها بمقر الجريدة.. بخطوات واسعة اقتحمت مكتب مدير التحرير: ما لِك يا «سارة».. بتعيّطي ليه؟

حاولت التماسُك: أستاذ «هشام»، الموضوع بتاعي هينزِل أمتى؟

- بُكرة.. أجابها مستنكرًا تعبيراتها المشحونة.

- الموضوع فيه غلطة كبيرة.. لازِم يتأجّل.

- غلطة إيه..؟

- الموضوع مش زي ما كنت فاكرة.. مفيش تنظيم ولا سِر ولا شخص مجهول عنده تار شخصي مع الناس دي.. الموضوع مجرد صُدفة.

- اهدي وفهّميني..

- قلت لحضرتك مفيش حاجة من الكلام ده صح.. أنا بنيت التحقيق بتاعي على تخيلات.. بصراحة كنت بحاول أخلق قصّة تعمل لي اسم.. الموضوع ده لو نِزِل أنا هأذي إنسان عزيز عليا.. وهامشي من الجرنال..

رفع مدير التحرير سَمّاعة التليفون: اهدي يا «سارة».. أنا هتصرّف.. ألو.. أيوه يا «كرم».. وقّف المقال بتاع خاص بـ«أمل الوطن».. هبعت لك حاجة بداله.. شكرًا وضع السمّاعة والتفت لها: خلاص يا ستّي.. مُمكن تفهمِيني بقى فيه إيه!!

- أنا آسفة.. لازِم أمشي دلوقت ألقتها وانسحبت.

كان ذلك حين رفع مدير التحرير السمّاعة إلى أذنه ثانيًا: أيوه يا كرم.. مشّي الموضوع زي ما هو.. لأ مفيش تغيير.

في الطريق عاودت «سارة» الاتصال مَرات عِدّة حتّى وصلت البيت.. تطلّعت لشبابيك «طه» المغلقة تطلّع مراهِقة في الثانوية إلى بيت ابن الجيران الذي تزوّج ورحل.. صعدت لشقّتها واجمة.. أغلقت الباب وفضّت جوابه.. مرت بعينيها على كلمات بعينها.. راحتي معك التي لا أعرف لها سببا.. كيف لن أراكِ ثانيةً.. أبي وأسراره التي جرّجرتني إلى الجحيم.. انتقامي.. حبّك.. لست كاذبًا.. سامحيني.. الوداع.. اعتصرت الجواب حتّى انغرست أظافرها في راحتها قبل أن تدفن مَلامِحها بين طيّاته بحثًا عن وجه «طه» بين السطور.

* * *

نفس الليلة..
في فندق «بورتومارينا» بالعين السخنة..

كانت «بشرى» على ميعاد، دلفت البهو تتبعها حَسناء روسية القوام شمعية البشرة، ضربتا الأرض بكعوبهن ضربات أحصنة مدرّبة قبل أن تصعدا إلى جناح فخم تحفظ رقمه في رأسها، توقّفت أمام باب يحرسه رجلان بذلتاهما متخمة الجوانِب تبرز من أسفلها فوهات الرشاشات، لم تفتح معهما حديثًا، رفعت مَحمولها وهمست: «بشرى».. نطقتها بفحيح أنثوي مدروس، ثوان وفتحت الباب فيليبينية ضئيلة قادتهما إلى الداخِل بإنجليزية ركيكة. تركت «بشرى» رفيقتها في الاستقبال ودلفت التراس، كان يجلس في كرسي من الجلد لم يخف الصلعة اللامعة، موليًا وجهه شطر الشاطئ البعيد يطالع كتابًا في الأدب الألماني: سعادة الباشا! نادته بصوت خفيض فالتفت مُبتسمًا، اقتربت مِنه وصافحته في حرارة.

- أهلًا يا بشرى.. إزّيك.

دعاها إلى الجلوس وصَبّ لها كأسًا ولنفسه.. سَحب نفسًا عميقًا من الهواء الرطب وشخص ببصره في الفراغ.. لم تجرؤ على مقاطعته حتّى تكلّم.

- الجو تحفة النهارده.

عبثت «بشرى» بخصلة خلف أذنها: ليلة جميلة..

- كان ليكي تعامُل مع «هاني برجاس» يا بُشرى؟

تلجلجت «بُشرى» من سؤال مباغت: الله يرحمه.. والله...

وضع الكتاب جانبًا وخلع نظّارة القراءة الرفيعة من على أنفه الحاد: ما تحلفيش.. أنا مش بستجوبك.

– سعادتك شاكك في حدّ؟

– أنا اللي بسأل يا «بُشرى».. مين اللي كان بيقابله.

– ولد معرفتي.. لكن ليلتها ما قابلوش.. كان عنده حفلة وفيه شهود وإثبات.

ثم مالت وهمست: «هاني برجاس» كان ليه أعداء كتير أوي.

هز رأسه وهو يَرمق مَلامِح وجهها التي حاولت السيطرة على ثناياها.. كادت تضطرب لو لا أن أنهى سبر أغوارها بابتسامة هدّأت من روعها وسألها: أخبارنا إيه؟

هللت روحها: «أولجا».. تحفة فنّية.. نص أوكراني ونص ألماني.. قالتها ووضعت بين يديه باسبور وشهادة صحيّة.. نظر فيهما مدقّقًا في الصورة مليًّا قبل أن تفلت منه ابتسامة رضا حين أردفت: بونبوناية مَحدّش لمسها من ساعة ما جت مصر..(She is your slave).

وضع الباسبور في جيبه ثم حدق فيها بعينين تثقب جدارا قبل أن يَسألها: طلباتك؟

– خيرك سابق.. ده أقل كادوه أقدّمه لمعاليك..

هز رأسه مبتسمًا ثم أطلق عينيه للبحر أمامه في إشارة لها أن ائتي بها.. استأذنته وقامت قبل أن تبطئ خطواتها.. بدون أن يلتفِت سألها: نسيتي حاجة؟

اقتربت ثانيةً وبلطف: (Favor) صغير أوي.. قضيّة عاوزة (push) بسيط.. ظابط.. صديق.. مظلوم في قضيّة رشوة...

قطع كلامها بإشارة من يده تعني أن هاتي ما عِندك.. أخرجت من حقيبتها ورقة مطوية تحوي اسما وتفاصيل.. تركتها بين أصابعه ثم شكرته وانسحبت في هدوء.

* * *

نفس الليلة..

فتحت «ناهِد» الباب لتجِد «ياسِر» أمامها: إزّيك يا طانط.. أنا «ياسِر» فاكراني.. صاحِب «طه».. كُنت معاه في المدرسة.

بملامِح منزعِجة ابتسمت: أهلًا يا حبيبي.. خير.. «طه» كويّس؟

– ما تقلقيش هو كويس.. سافر شغل وسايب لك معايا جواب.

– طب اتفضّل يا حبيبي.

اعتذر بهدوء قبل أن ينسحب.. أغلقت الباب وفضّت الظرف.. كان فيه جملة مُقتضبة واحِدة.

– مسامحِك يا أمّي.. أدعي لي.. «طه»..

لم تتحمّل.. ضاق صدرها وانتابتها موجة بكاء.. جلست على الأرض وأسندت رأسها إلى كرسي تتأمّل خطّه على الورق قبل أن ترفع عينيها لصورة صَغيرة على الحائِط تجمعهما مَعًا..

* * *

نفس الليلة..

دلف «ياسر» إلى منزِله في هدوء.. وقف أمام الباب لثوان حين تعالى الدبيب المُحبب إلى قلبه.. ركضت «زينة» إليه ضاحكة.. أطلقت كلماتها السحرية غير المفهومة.. لغة ملائكة دون السنتين.. انحنى عليها يقبّلها.. اعتصرها بحنان ودغدغ أقدامها الصغيرة.. تعالى صَخب ضحكاتهما كما لم يتعال من قبل.. خلع حذاءه وجلس بجانبها على الأرض يتأمّل ملامِحها كأنّه فقدها ثم وجدها.. ذلك الشعور الذي شعر به في أوّل يوم لها بالدنيا.. حين بكى أمام الممرضات وهو يحمِلها.. القطعة التي انفصلت من قلبه لتنمو وتلعب من حوله.. صار معها طفلًا لدقائق قبل أن تبرز من باب الغرفة «داليا».. أم زينة.. هل فقدت بعض الكيلوجرامات أم أن البعد عن الشيء يفقده اتساعًا وحجمًا؟! والله وليك وحشة يا خزّان أسوان.. قالها في سرّه.. لم يكن ذلك وقت التفكير.. قام يَحمِل صَغيرته وبعيون نادِمة اقترب مِنها.. نظر إليها مليًّا قبل أن تبتسِم.. ضم فتاتيه إلى صدره.. وبيديه الشاغرة أحاط «داليا» فلامست أصابعه مِشد التخسيس الذي يحكُم خصرها قبل أن يهِز رأسه ويبتسم.

* * *

نفس الليلة..

تعدّت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حين اصطكّ المفتاح بالباب.. حاول ألا يُحدث جلبة.. بهدوء شديد دخل في الظلام ووضع حقيبته جانبًا قبل أن يتّجه للمطبخ.. فتح درجًا في الطرف وأخرج منه كشّافًا لا زالت بطارياته تنبض وانسحب للغرفة الثالثة..

دخلها ومَدّ يده للسّتائِر متممًا عليها قبل أن يضيء النور.. في دائِرة الضوء المحتضر وقف يتأمّل ذلك الكيان المُلاصِق للحائِط المغطّى بملاءة بيضاء.. مكتبة والده.. ثوان وأزاح القماش مُخلفًا غبارًا ناعِمًا أجبره على السعال.. الأرفف كانت مُتخمة بالكتب كما عَهدها.. تتزاحم فيها العناوين كطوابير عيش.. قفزت عيناه بين الكعوب بَحثًا.. كان من الصعب العثور عليه وسط هذا الكم.. قضى ما يقرب من عشر دقائق حتّى وجده واقفًا بين كتابين في براءة قصص الأطفال.. ببطء سحبه ونفض التراب عن عنوانه.. «متون الجحيم» وبخط أصغر «نصوص من رحلة إله الشمس في عالم الآخِرة».

جلس «طه» على الأرض وأمسك بالبطارية بين أسنانه.. فتح الصفحة الأولى.. كان فيها العنوان مكرر وتحته فقرة تقول: تحكي تلك الأسطورة عن رحلة «رع» إله الشمس في مركبه الذهبية إلى العالم السفلي.. والذي تطلق عليه المتون المصرية اسم «الدوات» وهي الرحلة التي تقوم بها الشمس بعد غروبها عن الأرض ودخولها في عالم الظلام خلال فترة اثنى عشرة ساعة من الليل.. قفز بعينيه فوق السطور ثم توقف عند فقرة ترك أباه تحتها خط: كم هي حزينة تلك المملكة.. لأن النهر في هذه المنطقة تحيط به أفاع ستة وقد اندلعت من أفواهها ألسنة اللهب الممزوجة بالسم.. هذه هي الساعة التي يخشاها الأشرار.. لأنّهم يؤخذون بما قدّمت أيديهم.. لا منقذ لهم ولا معين.. يرشدهم «أنوبيس» إلى سَاحة العدالة حيث «أوزوريس».. ثقيلة قلوبهم بما تحمِل من وزر لذلك تغطس في الماء.. وتظل تهوي إلى القاع حتى تصل إلى فك «عمعمت» آكِل القلوب ليعيش الآثِم إلى

الأبد في حفرة من نار.. عِند تلك الكلمات تحسّس «طه» الصفحة.. من تحتها كان هناك فراغ.. أدارها ليجد ما توقّع.. قلب الكتاب فارغا وبه يسكن دفتر أحمر.. دفتر جديد.. انتزعه من بين الصفحات ووضع الكتاب جانبًا وبدأ يقرأ.

* * *

الفصل السابع والعشرون

بعد أسبوعين خرج «وليد سلطان» من مبنى مَحكمة الجيزة الابتدائية بصُحبة مُحاميه.. حليق الوجه يَرتدي بذلة فخمة ونظّارة شمس لم تخف بَهجة طاغية في مَلامحه.. تبادل مع مُرافقه بعض الكلمات قبل أن يُحييه ويَركب سيّارته وهو يَستعيد ما سَمعه منذ ثلث الساعة حين صَدر الحُكم ببراءته في قضية الرشوة الجنسية!!

بعد أيّام سَيستعيد «وليد» حياته.. مَكتبه وسُلطاته.. بذلته وطبنجته.. مَكانته بين المعارف والجيران وزوجته.. ستأتي له السيّارة كُل صباح ليركبها بتأفف وسط النظرات الحاسدة.. سَيسعى الرقيق ثانية بين يديه.. عساكره الذين ضربهم الهزال.. عبيده.. سَيلاحقه المتزلفون المتذللون طلبًا لصُحبة عالية الكعب.. سيتقبّل هداياهم وقرابينهم وسينتقي.. وستذكُر صفحة الحوادِث اسمه مَسبوقًا بألقاب نسريه ودبّورتيه.. وستنفتح له الدنيا ثانيًا.. كما لم تنفتح من قبل!

أشعل سيجارته وأدار محرّك السيارة.. خرج لعرض الطريق حين تلقّى مُكالمة من رقم غير مُسجّل.. كاد يطير عقله حين أتاه صوت «طه».. صرخ: أنت فين؟ بتتكلّم من مَصر!!

في كلمات مقتضبة بث «طه» كلماته: حَصل مشكلة.. ما سَافرتش.. مِحتاج أقابلك.

- إيه اللي حصل؟

- مش هينفع في التليفون.. قابلني النهارده بالليل.. فيه قهوة اسمها «سركيس» في وسط البلد.. قدّام مَلابس الأهرام.. الساعة واحدة بالليل هستنّاك.. الموضوع يمسّك.

لم يمهله «طه» فرصة الرد.. كانت تلك كلماته.. أطاح «وليد» بتليفونه إلى أرضيّة السيارة حين شعر بهزّة الارتطام.. توقّف بحدّة ونظر في المرآة قبل أن يفتح الباب في سرعة ويتّجه للخلف.. كان الشاب في العقد الثالث.. هادئًا ينظر لمقدّمة سيّارته التي عانقت مؤخرة سيارة «وليد»: بسيطة الحمد لله.. أنا آسِف.. أصل حضرتك وقفت فجأة بس و...

كان ذلك آخِر ما قاله قبل أن ينقض عليه «وليد سلطان».. كال له لكمة استقرّت في ذقنه أفقدته التوازن فسقط فوق غطاء مُحرّك سيارته حين ناوله ثانية وثالثة ورابعة ممسكًا بياقته في إحكام وسط ذهول المارة الذين تجمّعوا ومن هول المفاجأة لم يتطوّع أحدهم لتهدئة الموقف، علاوة على هيئة «وليد» التي بثّت بينهم التردّد والنسر الملصق على زجاج سيارته.. لم يترك الشاب إلا حين فقد الوعي وسنّتين وهرست نظّارته.. انساب إلى الأرض كمنديل دام مُستعمل بين أرجل «وليد» الذي عدّل من وضع ياقته وأكمامه وانسحب مارًّا بعيون تلبّدت بالكراهية.. رمق الجمع بنظرة غضب قبل أن يدلف السيّارة وينطلِق.

* * *

على الرصيف المقابل لمقهى «سركيس» بوسط البلد جلس «طه» يحتسي قدحًا من النسكافيه.. نقل عيناه بين ساعته التي تعدّت الواحدة بعد منتصف الليل والشارع الخالي من المارة.. دقائِق واقتربت سيّارة «وليد».. أوقفها في الجهة المقابلة ونزل مِنها في هدوء.. عبر الطريق وهو يرمق «طه» وما حوله متفحصًا ثم سحب كرسيًّا وجلس بجانبه.. نظر في ساعته ثم لـ«طه»: قدّامك خمس دقايق.. لازِم أتحرّك.

رفع «طه» رأسه ناحية باب المقهى.. فرقع أصابعه للنادل فاقترب: شوف الباشا يشرب إيه.

- هات شاي.. بس بسرعة.

- شايفك مستعجِل!!

أشعل «وليد» سيجارته: إيه اللي رجّعك؟

- مش عارف أقول لك إيه.. فجأة حسّيت إنّي مش قادر أسافر.

- حبيبة القلب هي اللي رجّعتك.

- «سَارة»!.. لا.

- هتودّيك في داهية.. نشرت مَقالا عن الحوادث اللي بتحصل في الميدان.. ما جابتش سيرتك لكن سَخّنت الموضوع.. الداخلية مقلوبة وبرامج التليفزيون ما بتسكتش.. أنا بحاول أداري عليك وأنت جاي تظهر لي في الظروف الزِّفت دي؟

ابتسم «طه» فاقترب «وليد» منه: واضِح إنّك مش فاهم وجودك هِنا خطر قد إيه؟

بتر كلامهما اقتراب النادِل بكوب الشاي.. وضع الصينية ورحل قبل أن يكمل «وليد» جازًّا على أسنانه: أنت عارف إنّها مسألة وقت و التحقيقات تطولك.. «هاني برجاس» قضيّة رأي عام ولازِم الناس ترتاح.. أنت بتحطّني في وضع صعب.

– صحيح.. مبروك على القضيّة؟

أطرق «وليد» برأسه للسماء وزفر نفسًا طويلًا ثم التفت لطه: عاوز فلوس؟

– خالص.. مستورة الحمد لله.

وضع «وليد» السكّر في كوبه ورشف رشفات سَريعة متعجلة: أمّال فيه إيه؟!

استطرد «طه»: وأنا قاعِد جوّه الخُص في اسكندرية واحِد فيّومي عزم عليّا بسندوتشات فول وطعمية.. باضرب عيني على الجرنال الملحوس زيت ألاقي لك إيه!!

بَرَمَ «وليد» شفتيه ضجرًا فأخرج «طه» ورقة مطوية كانت في جيبه.. ناولها لوليد الذي سَحبها من يده في عصبية وفتحها.. بحث بعينيه بين العناوين قبل أن يُريحه «طه»: في الضهر على الشمال.. كانت هناك مقالة من أربعة أعمِدة وصورة جَماعية لأربعة رجال يتوسّطهم وزير.. بجانبه يقف «هاني برجاس» مبتسمًا في بذلة أنيقة وتحت الصورة تعليق يقول: الوزير يتوسّط مَجموعة من رجال الأعمال أمس في مؤتمر التعمير بالبحرين ويشهد بعد غدٍ توقيع عدد من اتفاقيات الشراكة بين شركات «برجاس» وشركات عربية لتشييد مدينة سكنية على مساحة...

نظر له «وليد» بتعجّب فابتسم «طه» وأشار لأعلى الصفحة حيث التاريخ.. انسحبت عين «وليد» حيث ذكر «طه» وقرأ: ١٥ نوفمبر ٢٠٠٨.. مش فاهِم حاجة!!

– على حد كلامك ده اليوم اللي بابا شاف فيه «هاني برجاس».. «هاني برجاس» في اليوم ده ما كانش في مصر!!

ابتسم «وليد» ثم ضحك: انت رجعت عشان كِده.. أكيد شافه في يوم تاني..

– أو يمكن ما يكونش شافه أصلًا!

تغيّرت ملامِحه: تقصد إيه بالكلام ده؟

أردف «طه»: بعد ما شفت المقال طلّعت أجندة أبويا.. لقيته كاتب إن اللي شافه يستحِق يدّفن في «متون الجحيم».. في الأول حسّيت الجملة عادية.. لكن لمّا شفت التاريخ ما أعرفش إيه اللي خلاني أفتكر إن بابا كان عنده كِتاب بالاسم ده.. رجعت.. دوّرت ولقيت الكتاب.

ظل «وليد» يرمقه بلا تعبير حتّى انتهى: ولقيت فيه إيه؟

أخرج «طه» دفتره الصغير ووضعه على المنضدة في صمت.. نظر له «وليد» مَليًّا قبل أن يلتقطه.. فتح الصفحة الأولى حين أردف «طه»: قبل ما تقرا نسيت أحكي لك.. وأنا راجِع من اسكِندرية في القطر حِلمت بيك.. خير اللهم اجعله خير.. شفتك لابس اسود في اسود وشايل فوق كتفك غراب.. والـ«السيرفيس» الله يرحمه ساحبك من إيدك ورايحين مشوار.

رمقه «وليد» بنظرة حادة ولم يعقّب.. دفن وَجهه في الدفتر وبدأ يقرأ: لأول مرّة أراه رؤية العين.. سبقته سمعته وهيمنته وأقاويل ملوّثة تسد الصدور.. لم أصدِّق نفسي حين توقفت السيارة أمام دكّان «لورد».. الجيّاف القذر.. نزل مِنها متبخترًا فرفعت نظّارتي إلى عيني ودار بخلدي أنّي سأشهد نهاية الخِنزير على يد خنزير.. سيسحبه من أنفه ويلقيه في زِنزانة مظلمة.. سينقشع عن الحي تاركًا سيارة مرسيدس متآكِلة ولافتة لا تحمِل اسمًا.. سأبصق عليها حين أمرّ من أمامها.. لكن ما حدث جعلني أدرك أن الطريق لا زال بعيدًا.. وأن المرض ضارب حتّى الجذور.. ها هو حامي الحِمى ينحني.. يسلّم رأسه لعصا «سليمان».. يمد يمينه ليأخذ إتاوته وصندوقًا باردًا إلى السيّارة.. كان ذلك قبل أن يهرع أحد صبيان «اللورد» إلى المرسيدس العتيقة.. يرفع الغِطاء ويَستل لفافة من الحقيبة الخلفية.. يجري بها إلى سيّده الذي ناولها لـ«وليد سلطان» خلسة.. كان ذلك حين أضاء «طه» النور.. لحظتها رآني.. أكاد أقسِم أنّه ثقب النظّارة بين يديَّ.. رمقني لثوان ثم نادى «سليمان» الذي ظننت فيه بقايا إنسان.. أشار له إلى الشبّاك متسائلًا فمال على صاحب النسور.. بث في أذنه سمًّا تغيّرت منه الملامِح.. ملامح سجّلت حدود نافذتي وقصّتي.. هزّ رأسه وأخمد بحذائه سيجارته قبل أن يرحل.. الآن أعرف.. أكاد أرى بعيني ما سيحدث.. سيرسل من يتوعّدني لأسكت.. من يحبس روحي داخل جسدي.. سأنتظره وأفتح بابي.. إن هدّدني سأسخر منه.. سأنفخ في أنفه الجنون.. سأعتصر مرارته.. سأستفزه حتّى يجرؤ ويفعلها.. إن لم يغمِد غضبه في قلبي.. إن لم يرحني من سجني الأبدي.. سأركض بصدري إلى نصله.. حتّى أوقن حتفي.. حتّى ألقى خلاصي.. فأنا الآخر مثقلا بدين لم أسدّده بعد.

هنا توقّف «وليد» عن القراءة.. سدّت الغصة حلقه فنظر ناحية «طه» ليجد كرسيًّا خاليًا.. قام منتفضًا يرمق الشارع من حوله يَمينًا ويَسارًا فلم يعثر له على أثر.. سيادتك تحب تقعد هِنا والا جوّه؟ التفت فوجد نادلًا في قميص أبيض وبابيون أسود واقفًا يبتسم، نظر له «وليد» لثوان قبل أن يسأله: كان فيه واحد قاعد هنا جنبي.. راح فين!!

- مش عارف حضرتك.. أنا ما شفتش حد.. أجابه النادِل بوجه تملؤه الدهشة.

دس «وليد» الدفتر في جيبه وسحب مفاتيح سيّارته وأخرج محفظته بحثًا عن بعض الفكّة: حساب الزِّفت ده كام؟

نظر النادِل للكوب الفارغ ووعاء السكّر والمِلعقة: مين اللي جاب لسيادتك الشاي ده؟

توقّف «وليد» عن البحث ونظر للنادل: يعني إيه؟

- أصل الكباية والمَعلقة والسكّرية دول مش من عندِنا.. إحنا السكّر عندِنا في أكياس ورق.

بدا على «وليد» آيات العصبية: واد رفيّع كِده ولابس قميص كاروه وشعره عالي من قدّام و...

بتر النادِل كلامه: لأ.. ده يبقى مش من عندِنا.. إحنا اتنين وبنلبس قميص وبابيونة.

شرد «وليد» بنظره في نهاية الشارع.. أفكاره تشتّتت كألف قطعة بازل.. نصفهم مفقود...

* * *

الفصل الثامن والعشرون

«خليج نِعمة بشرم الشيخ» بعد ثلاثة شهور..

حَملت النسمات الصيفية الرطبة أصوات إيقاعات كاريبية يختلط بها صَوت الأمواج.. ذلك الششش المنتظِم الذي قالوا عنه يومًا أنه صوت تنفّس «بوسيدون» إله البحر.. على مَقربة من المَمشى السّاحِر وعلى البحر مباشرة يرقد «چولي بيسترو»، مَطعم إيطالي خافت الإضاءة يَصنع بيتزا مُميّزة وأكلات بَحرية منوّعة وسَلطات شهيّة، زجاجات الرمال المتناثرة تحوي شموع تقود الداخل عبر طريق صغير إلى مَرقص تحيطه مَوائِد ينتشر فوقها أحفاد القوقاز وبناته.. خليط من الطليان والألمان مُطعّمين بأعراق سلافية لا تعرف للمحشي كرنب طريقا.. وفي المنتصف وقف شاب في العقد الثالث شعره مسترسل مَحكوم بربطة من الخلف ومُمسكًا بجيتار (Electric) يبث بأوتاره مقطوعة ناعمة تتمايل معها رؤوس الذين اعتلوا المَرقص وتتشابك أيديهم، ومن خلفه جلس «طه» على آلته، درامز (Premiere) لم يحلم به يومًا، يرتدي چينز أسود و(T-shirt) أبيض.. كان قد ترك شعره

لينمو في الثلاثة أشهر الماضية وتورّد وجهه بحمرة الشمس وبعض الصحّة المستردة.. مغمضًا عينيه يقرع طبوله في الهواء الطلق.. يصنع جوًّا من التناغم لم يقطعه سوى صوت نشاز بدأ يعلو من منتصف الموائِد لطفلة تبكي بغلاسة ذبابة.. لم يكن هناك سبيل لإسكاتها إذا بدأت.. بعد دقائِق بدأ الراقصين يفقدون صَبرهم قبل أن يرجعوا إلى الموائِد غيظًا حين ارتفع صوت «ياسر» صارخًا في صغيرته وزوجته: مفيش فايدة.. ده أنا لو طلعت الجنّة انتم الاتنين هتطفّشوا أم الحور العين.. وانتي إيه اللي بتعمِليه انت كمان الله يخرب بيتك!!

أجابته «داليا» التي ازدادت عدّة كيلوجرامات في الثلاثة الأشهر الماضية: الحق عليّا بوفّر لك.

كانت تجمع بقايا الطعام من على المائِدة في علبة بلاستيكية صغيرة وتضعها في حقيبة يدها العملاقة..

- يا ستّي هو حد قال لك إنّي دافع فلوس!!

- والا خايف على منظرك قدّام السّناكيح المسلوعين بتوع روسيا اللي عينك هتطلع عليهم من ساعة ما جينا!! بص بص البت ناشفة إزّاي.. كُلّها كعاكيع.. أنا عارفة عاجبك فيها إيه بعضمها الدبابيس وشفايفها أمّ ضب والا صدرها!! عنبتين مفعّصين.

- عنبتين مفعّصين!! مش أحسن من البطّيخ النمس اللي عاوز سوزوكي ربع نقل ترفعه.

- «ياسِر».. أتلم وخلّي الليلة تعدّي.

في تلك اللحظة وضع «طه» حدًّا للصراع حين خبط كتف «ياسِر»:

– ما تخلّي عندك دم بقى.. هو أنا عازمك كام يوم تغيّر جو والا تتخانِق ثم موجّهًا كلامه لـ«داليا»: معلش يا دودو.. بس العيب عليكي.. انت اللي اخترتي النوع الصيني ده.. أنا مربّيه من زمان وعارفه.. واطي واطي.. بس طيّب.. عجبكم الجو؟

– الأغنية الأخرانية بتفكّرني بموال هاشكيك للقاضي بتاع «فاطمة عيد».

في الشهور الماضية تغيّر كُل شيء.. استقال «طه» من الشركة في اليوم السابق لآخِر لقاء جمعه بـ«وليد سلطان».. وقبلها بيوم باع شقّته «لتانت ميرڤت اللي في التالت» ثم اختفى.. لم يدر أحد شيئًا عنه سوى «ياسر».. استقر بـ«شرم الشيخ» لأسبوع قبل أن يلتحِق بالعمل كعازِف درامز بالمَطعم الإيطالي.. اشتهر باسم «تيتو» بين أصحاب المطعم وروّاد المكان.. يقضي وقته نهارًا على البَحر يقرأ وليله يَعزِف لأربع ساعات قبل أن يستقِر به المقام في كافيه بشارع «خليج نِعمة» عثر فيه على صُحبة قليلة الفضول حول ماضيه.. قبل أيام اتّصل بـ«ياسِر» يدعوه لقضاء يومين في المصيف؛ على شرط أن يأتي بزوجته وابنته.. ذلك الشرط الذي جز على أسنانه حين سمعه: يا عم قلت لك آجي لوحدي الله يحرقك.

حمل «طه» «زينة» وقبّل يدها الصغيرة: وكنت تسيب القمر ده في مصر لوحده..!! ثم وجّه كلامه لـ«زينة»: مبسوطة يا زيزي؟ هزّت رأسها بابتسامة قبل أن يضعها في حِجر أمّها ويسحب «ياسر» من يديه قرب البحر.. أشعلا سيجارتين قبل أن يردف «طه»: ياد مش هتبطّل وساختك دي!! خف عليها شوية بقى.

– يا ابني عملت زي ما قلت لي.. جبت لها سيديهاية فيلم نيلة رومانسي و(Uncut) كمان وهدّيت النور وضربت البوكسر أبو خمسة وعشرين جنيه وقعدنا.

– هاااا..!!

– نامت في أول ربع ساعة.. لقيت فجأة شخير ولا موتور جرّار محروق، رحت قايم قافل أم الفيلم، وقالع أم البوكسر أبو خمسة وعشرين جنيه، وطافي أم النور ودخلت اتنيّلت اتخمدت.

نظر «طه» في وجهه قليلًا قبل أن ينفجرا ضحكًا.. التفت «ياسِر» حولهما ليتأكّد من خلو المكان: فيه خبر حبّيتك بس تعرفه.

– إيه؟

– صاحبك في المستشفى.. بيخلّص.

– من إمتى؟

– حوالي أسبوعين.. عرفت بالصدفة لمّا رحت القسم أطلع شهادة ميلاد إلكتروني لـ«زينة».

سحب «طه» نفسًا من سيجارته وأطلقه في وجه القمر حين أردف «ياسِر»: خلاص يا «طه».. القصّة خلصت.. «السيرفيس» مات واللي سلّطه مسألة وقت.. ترجع بقى شغلك وحياتك.. تنسى التراب والغبار والعفرة وتشوف لك جوازة والا...

قاطعه «طه»: أنا ما كنتش مِستنّى موت «وليد سلطان» عشان أرجع.. خلاص أنا ارتحت هِنا.. لقيت نفسي.. أنا لما دخلت الكلّية

دخلتها عشان أرضي أبويا.. بس عُمري ما حبيتها ولا حبّيت شغلانة المندوب.. الليلة كُلّها نِفاق وضِحك على الدقون.. أنا أوّل مرّة أحِس إنّي بني آدم.

نظر «ياسر» خلفه إلى المرقص ثم أردف: بيني وبينك اللي يشوف الوِز اللي بتشوفه كُل يوم ده يبقى كيس جوافة لو رجع تاني.

– سيبك أنت.. الحمار حمار..

ثم سكت لحظات محاولًا كبح سؤال يراوده: «سارة» ما كلّمتكش تاني؟

هز «ياسر» رأسه نفيًا حين سمع «طه» صفيرا يستدعيه ليعاود العزف فأطفأ سيجارته واستأذن صديقه قبل أن يتوقّف: متشكر يا ياسِر.

– على إيه يالا!

– أنا دخّلتك في حوارات كانت ممكن تودّيك في داهية.. بس عارف يالا.. كان لايِق عليك أوي موضوع القهوجي ده.

– اتّريق الله يحرقك.. وأنا يومها كنت بجيب من تحت بليلة من كتر الرعب.

ضحك «طه» ثم احتضنه: متشكِّر بجد يا «ياسِر» قبل أن يتركه ويعتلي آلته ويبدأ العزف..

* * *

الفصل التاسع والعشرون

بعد ثلاثة أيّام.. الساعة ٦:٣٠ مساء.. كانت تتمشّى جيئة وذهابًا قرب باب الجناح بمستشفى «دار الفؤاد».. ترتدي قميصًا مفتوح الصدر وتنورة قصيرة ضيقة وصندلًا عالي الكعب. أزاحت خصلات شعرها من أمام عينيها وأبدلت الهاتف المحمول بين أذنيها تهدئة لسخونة مكالمة تخطّت نصف الساعة: حتّى وهو بيموت لسّه بيكدب، لقيت في محفظته فاتورة قديمة لغرفة (double) في (Stella de Marie).. في نفس الوقت ده كان قايل لي إن عنده مأمورية.. الواطي.. ده غير الصور اللي على تليفونه.. مصوّر صوابع رجليها الهايج.. تخيّلي.. يسيبني أنا ويروح للسودة الماسحة.. الكلب.. أنا مش طايقة حتّى أخش أبص في خِلقته.. استغفر الله العظيم.. شكله بقى مسخ.. (anyway) أنا خلّيته كتب الكافيه ليا وللولاد بيع وشِرا، والشقة من زمان باسمي.

في تلك اللحظة قاطعها انفتاح باب المِصعد.. خرج يحمِل باقة زهور كبيرة اختفى وجهه من خلفها.. توقّف أمام باب الغرفة قبل أن ينزِل الزهور ليسألها: مساء الخير.. هي دي غرفة «وليد بيه سلطان»؟

أنزلت مَحمولها وحدقت في وجهه قبل أن تنزل عينيها إلى الورد باحثة عن كارت يَحمِل اسم صاحبته: مين اللي باعته؟ أجابها: محدّش باعته.. أنا اللي جاي أزوره.. «وليد» بيه أخويا الكبير.

بلامبالاة أشارت إلى الغرفة قبل أن ترجِع لمكالمتها.. نقر الباب بأصابعه فأتاه السكون.. لحظات ثم دخل.. كان «وليد سلطان» ممدّدًا على سريره.. فقد الكيلوات المعتادة لمن سف التراب وعم السواد وجهه.. تتنازعه المحاليل وخراطيمها البارزة من يديه كأذرع أخطبوط هزيل، وجهاز رسم قلب يرسم مطبات صناعية واهِنة لن توقف موتا يأتي راكضًا.. حين شعر بصوت غلق الباب التفت بصعوبة.. تسمّرت حدقتاه وبدأ جهاز رسم قلبه يشذ عن إيقاعه.. بهدوء وضع «طه» الباقة على المنضدة حين رفع «وليد» أصابعه مُحاولًا ضغط زِر الاستدعاء.. بسرعة أدرك «طه» الرسغ الواهِن وأبعد الزِّر قبل أن يجلس على طرف السرير بجانبه: والله لسّه شارب نسكافيه قبل ما أطلع.. ما تكلّفش نفسك.

ارتعش جفن «وليد» وجز على أسنانه في ألم حين أردف «طه»: أنا جاي اطّمِن عليك.. مش معقولة ما أشوفكش وأنت رايح المسافة البعيدة دي كلّها.

بدأ السرير يضطرب إثر اهتزازات «وليد» فوقه، نفرت عروق رقبته كشجرة جافة وسَعل حتّى كاد يمزّق حنجرته بحشرجة لا تأتي من ماسورة صرف مشروخة، بجهد رهيب تحامل ورتّب حروفه: يا ابن.. الكلب.

-شششش.. هدّي أعصابك.. دي كلّها حاجات بتطلع في الغسيل يا «وليد» بيه.

شدد قبضته على يد «طه»: «السيرفيس» كان طالع يخوّفه.. أبوك هو اللي استفزّه.. أبوك انتحر.. أنا...

– أديك رايح لهم.. اتفاهم هناك على الحساب براحتك.

تهدّج صدر «وليد» حين نظر في وجه «طه» الذي انسحب إلى باب الغرفة، قبل أن يتوقّف: أبقى سلّم لي على «السيرفيس» و«برجاس».. سكت لحظة ثم أتبع: وأبويا إذا قابلته.

قالها ورحل تاركًا جهاز رسم القلب يصرخ.. قبل أن يهدأ بغتة.

* * *

فوق سور الكوبري العتيق جلس، أدلى بقدميه في الهواء مُوليًا ظهره لصخب الناس وضجيج السيارات، عيناه لا تطرف، غارقة في لمعان الإضاءة على صفحة الماء المضطرب، سيجارته احترقت بدون أن يسحب نفسًا وعقله توقّف عن إصدار الأوامِر، أذناه لا تسمع سوى صوت شهيق وزفير وإيقاع نبض يهز صدره، لم يسحبه من شروده سوى مركب صغير مرّ بين قدميه، عليه رجل ضئيل يرتدي جلباب لا لون له، يزن نفسه على الحافة بساقين مدبّبتين بالكاد تحمِلانه، طوّح ذراعيه إلى الهواء بشبكة هزيلة أكلها السمك والزمن، بحرفة انتشرت في دائرة حول قاربه المتهالك، تركها تنغمس في الماء وجلس القرفصاء يقبض على طرفها بيد وباليد الأخرى التقط راديو ترانزستور صغيرا ألصقه بأذنه، كان ذلك حين دس «طه» يده

في جيبه، أخرج قنينته الصغيرة، داعبها بأنامله، لامس اسم عائلته المحفور على جوانبها، يومًا ما كانت في يد جدّه، وأيّامًا اختبأت في كرسي أبيه، واليوم ستستقر في قاع نهر، يا لها من رحلة! رفع يده وأغمض عينيه لحظات، سحب لرئتيه نفسًا وهمّ بإلقائها حين أوقفه صفير وتصايح الشّباب الجالس على بُعد أمتار مِنه يتابعون يختا يمر أسفل الكوبري، يختًا أبيض زجاجه مُضاء بلون فيروزي ساحِر، يصدر عنه صوت موسيقى ذات إيقاع هادِر، تعلو سطحه حفلة صاخبة تتوسّطها فتيات لا عظام فيهن، يتمايلن على الموسيقى بشعور طويلة تثير الرياح، على جانب اليخت كُتب بحروف ذهبية وخط إيطالي مائِل أنيق: (Bergas)!

بدا اليخت كسهم يشقّ المياه حين مرّ بجانب مركب الصيد التي بالكاد تفاداها، رفعت أمواجه حافّتها فقام الصيّاد النحيل وقبض على الخيوط بيديه متشبثًا، التقطت المروحات العملاقة طرف الشبكة المهترئة، طرفة عين ودار القارب الصغير حول نفسه كريشات مروحة، استمات الرجل على شبكته يدفع جسده بكعبيه عكس اتّجاه الجذب، ثانيتان وانهارت مقاومته، جذبه اليخت بشبكته إلى المياه، سحبه بسرعة كمتزلج على الماء، متزلج بجلباب! انجذب الرجل خلف اليخت.. لحظات وابتلعته المياه مُخلفة وراءه دوّامة صغيرة ما لبثت أن ذابت وسط الأمواج. انتفض «طه». اعتصر قنينته بكفّه وجزّ أسنانه ألمًا قبل أن يقف بقدميه فوق السور يتابع مكان الابتلاع. استجدى الله في سرّه بكلمات لم يعهدها وعيناه تمسح طيّات المياه في لهفة، ما هي إلا ثوان لم يتحرّك فيها ساكِن على الكوبري وانشقّت المياه عن رأس ويد. يد ضربت الأمواج في قوّة.

أخذ يقترب من قاربه الذي انفلت حتّى أمسكه. رفع نفسه في حنكة وفي يده بقايا شبكة. صفّق الواقفون وهلّلوا بصفير وصياح حين وقف الرجل بجلبابه الملتصق يتابع اليخت الذي ابتعد، ألقى بسبّتين وبصقة من القلب قبل أن يرفع يده بدعاء حار. جلس «طه» ثانيًا على الحافة.. نظر إلى القنينة برهة ثم وضعها في جيبه ثانيًا.

* * *

الفصل الثلاثون

شرم الشيخ ليلًا..

اعتلى آلته.. رفع عصيّه إلى السماء وانهال على طبولها يصفعها صفعًا.. مغمضًا عينيه يملأ رئتيه برائحة البحر من خلفه.. يتأمل نغماته تصعّد تجتاح جيوش الراقصين أمامه.. قبل آخر المقطوعة لاحت من بعيد.. لمحها فاضطرب إيقاعه.. أبطأ حتّى لاحظ الموجودون.. ظلت تقترب حتى توقّفت أمامه وتوقفت يداه.. همس في أذن صديقه عازف الجيتار مستأذنًا.. مشى وراءها الخطوات التي رسمتها قدماها في الرمال حتّى وصل قرب البحر قبل أن تلتفت له.. ما أضفاه القمر على عينيها وفستانها الأسود جعل كلماته تتأخر فبادرته مبتسمة: كان شكلك أحلى بالقرعة.

ابتسم وهو ينظر في عينيها صامتًا فأردفت: فاكر أول مرّة كلمتني فيها؟

– قلتي إن عزفي وحِش أوي.

– برج الجوزاء لمّا يتريقوا على حاجة بتبقى عاجباهم.

– «ياسر» اللي قال لك إني هنا؟

– يعني.. وما تنساش إنّي صحفية شاطرة.

– يا ترى جاية النهارده شغل والا...؟

–«طه».. أنا سبت الجرنال بعد المقال اللي كتبته عن اللي بيحصل في الميدان.. صدّقني حاولت ألغيه لكن ما قدرتش.. كمان مرّيت بظروف صعبة خلّتني أشوف حاجات ما كنتش أصدّقها.. كُل حاجة في حياتي اتغيّرت بعد ما قريت جوابك.. ما كنتش متخيّلة انّك عايش كُل ده وكاتمه جوّاك.. وما كنتش متخيّلة إنّ فيه حد مُمكن يحبّني أوي كِده.. إنت غيّرت حياتي.. من ساعة ما مشيت وأنا بحاول أتّصل بيك زي المجنونة.

– انتي فعلًا مجنونة.

– مجنونة بس عاوزاك.

– «طه» اللي إنت عاوزاه ما بقاش هو.

– أنا كمان ما بقتش أنا.

أطلق عيناه إلى الفضاء فلامست أنامله: طبعًا أنت مالكش في الرقص؟

نظر لعينيها قبل أن يبتسم: خالص.

– طب اتفضّل سمعّني شوية نشاز.

هز رأسه وابتسم قبل أن يضم أناملها بكفه ويرجعا للمرقص لينصهرا..

بين الناس...

* * *

شكر خاص لكل من ساعدوني في إخراج هذا العمل

حسام مجدي

عبد العزيز الشعّار

محمود الشعّار

عمي فاروق وابنه معتز

أحمد أمير

ياسر خلوصي

حاتم رفعت

محمد معروف

علاء الجمل

نرمين نعمان

حسن بدير

أحمد زكريا

محمود حسيب

وليد الشيشيني

أحمد العايدي

عن المؤلف

أحمد مراد، من مواليد القاهرة - مصر - في ١٤/ ٢/ ١٩٧٨.

روائي مصري ومصور ومصمم جرافيك، أتم دراسته الثانوية في مدرسة الليسيه الفرنسية قبل أن يلتحق بالمعهد العالي للسينما شعبة التصوير السينمائي، حصل على البكالوريوس بترتيب الأول على شعبته عام ٢٠٠١، وحصلت أفلام تخرجه (الهائمون، في اليوم السابع، الثلاث ورقات) على عدة جوائز في مهرجانات أوربية.

بدأ كتابة روايته الأولى «فيرتيجو» في شتاء ٢٠٠٧ ونشرت في نفس العام وتوالت طبعاتها...

أحمد مراد

تراب الماس

دار الشروق

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف
أحمد مراد

رقم الإيداع ٢٠١٠/٣٥٢٧
ISBN: 978-977-09-2762-9

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ ٢٠٢ +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com